الأعمال الكاملة

صالح مرسي

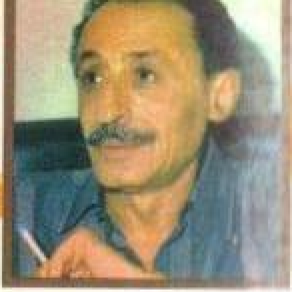

سامية فهمي

الفَصْل الحَادي وَالعُشرُون

المصْيَدة

عندما كنت جالساً ذات مرة مع سامية فهمي ، لم أملك إلا أن أوجه لها سؤالاً بدت لي إجابته محيرة أشد ما تكون الحيرة . . . فإذا كانت سامية ـ وهذا قولها بالحرف ـ قد أحست منذ لحظة لقائها الأول بنبيل سالم بعد عودته من الخارج ، أن هذا الذي تصافحه ، غير ذاك الذي غادرها منذ عامين مهاجراً إلى الخارج ، فلماذا استمرت في علاقتها به ، ولماذا تركت لنفسها العنان كي تقص وتحكي وتقول له ما يجب وما لا يجب . . . وعندما هممت بالرد عليّ ، وجدتني ـ بدافع من تلك الصداقة الحميمة التي ربطتني بها ـ أتساءل بصوت عال : هل الحب شيء مجرد ، هل هو عاطفة خالصة تجاه إنسان ما . . . أم أن هذا الإنسان ليس سوى مجموعة من القيم والأفكار والطباع والأهداف والأحلام التي إذا ما اشتركت مع قيمنا وأفكارنا وطباعنا وأحلامنا وأهدافنا ، كونت تلك العاطفة أو ذلك الرباط الذي نطلق عليه اسم : « الحب » ؟! حتى إذا ما اختلفت تلك القيم في بعضها أو كلها ، سقطت تلك العاطفة ، أو على الأقل ، تقلصت بتقلص العناصر المكونة لها ؟!!

كنت أعرف أني أقسو على سامية بمثل هذا السؤال ، ولقد أدركت مدى قسوتي عندما لمحت الدمع يتصاعد إلى عينيها وهي تستمع إليّ في صبر ، حتى إذا ما فَرَغْتُ ، سألتني : « خلصت كلامك؟! » ، قلت : « أيوه . . . وعاوز أعرف الرد بوضوح! » .

قالت سامية : إنها بالفعل أحست أن نبيل سالم تغير حقاً ، ومنذ اللقاء

الأول ، لكنها أبداً لم تظن ولم يخطر ببالها ، ولم يكن ممكناً أن يخطر ببالها ، أن تغيره هذا جاء نتيجة لشيء آخر غير تجربته المرة التي مر بها ، والتي كان يحكي لها عنها يوماً بعد يوم ، وطوال أسبوعين عاشهما في القاهرة !!

وإذا كان تأففه ـ عندما طلبت من سائق التاكسي التوجه إلى هذا الكازينو المتواضع والذي شهد بدايات حبهما ـ قد لفت نظرها ، فلقد كان السبب في النهاية سبباً عاطفياً خالصاً . . . فبصرف النظر عن تلك الساعات التي قضياها معاً في هذا الكازينو ، فلطالما ذهبت أثناء سفره إلى هذا الكازينو وحدها ، ولطالما جلست بالساعات وهي تحملق في مياه النيل سابحة مع أحلامها وذكرياتها وحبها في انتظار هذه اللحظة التي سوف تلتقي فيها به . . . ولقد بدا نبيل وكأن الأمر لا يعنيه في كثير أو قليل ، بدا وكأنه نسي كل شيٍء أو تَرَفّع على كل شيء فثارت في صدرها عواطف الشك ـ لم تذكر سامية أبداً كلمة الغيرة في حديثها هذا !! ـ في أن يكون قد ارتبط بفتاة أوروبية ، عواطف شك عاطفي كانت ، ولم تكن عواطف شك في أي شيء آخر . . . يومها ضحكت متباسطة وكانت تشعر بالخذلان وهي تهتف به :

« **انت بقيت برجوازي يا فتى؟!** » .

قال وهو يبادلها الابتسام :

« **إذا كان معانا فلوس ، ليه نحرم نفسنا من قعدة حلوة!!** » .

هكذا أنبأها بنجاحه في كلمات موحية فاطمأنت إلى هذا التفسير واستردت على الفور فرصتها ، أو تشبثت بها . . . وعندما وصلا إلى ذلك الفندق الذي كان ملتقى الصفوة من المثقفين والفنانين لعقد كامل من الزمان ، اختارا ـ رغم برودة الجو ـ أن يجلسا في الشرفة المطلة على النهر !!

هناك جلس كل منهما قبالة الآخر وراحا يتبادلان الحب والأشواق ، وتناثرت الكلمات فيما بينهما تقول أو لا تقول أشياء اختُزِنَتْ في الصدر لعامين كاملين . . . ذات لحظة نظرت سامية فيها إلى ساعة يدها ، فقال نبيل إنه لا يريد أن يعطلها عن عملها ففي الوقت متسع ، وقتها صاحت فيه ضاحكة

والدهشة تملؤها :

« اتعلمت الذوق ده فين أيها التعس؟! » .

ضحك وهو يومىء نحو ساعة يدها قائلاً :

« مش يمكن عندك ميعاد؟! » .

« لا . . . ده مش ميعاد . . . دي المحاضرة بتاعة الدكتور إبراهيم اللي زمانها بدأت ! » .

« محاضرة إيه دي؟! » .

« على العموم ما يهمكش . . . أنا أصلي اعتذرت بالتليفون قبل ما أنزل من البيت! » .

« اعتذرتي عن إيه يا سامية؟! » .

« عن المعهد! » .

بدت على نبيل الحيرة والدهشة معاً ، فهي لم تكتب له عن المعهد أو دراسة أو محاضرات . . . فردد وراءها :

« معهد إيه ده؟! » .

« المعهد العالي للدراسات الاشتراكية! » .

هتف ضاحكاً وقد استبدت به الحيرة :

« أنا مش فاهم حاجة ، إنتي رجعتي تلميذة تاني؟! » .

وهكذا كان لا بد لسامية من أن تشرح له وظيفة هذا المعهد ، قالت ـ وكان الحماس يملؤها ـ أن هناك تطوراً كبيراً في الحياة السياسية المصرية ، وأن بيان ٣٠ مارس ـ إن كان قد سمع عنه ـ قد أرسى دعائم هذا التطور . . . وهي في المعهد مع زميلات وزملاء آخرين ، يقومون بمناقشة كل ما يجري في مصر ، وأن لقاءات هامة ومناقشات على أكبر قدر من الأهمية ، تتم بين القيادات السياسية وبين الناس ، وهي لقاءات ومناقشات تطرح كل المشاكل ، مهما كانت درجة خطورتها ، بوضوح . . . وكان طبيعياً أن يسأل نبيل :

« قيادات سياسية زي مين يا سامية؟! » .

وكانت المفاجأة التي واجهها نبيل ، هي أن سامية طرحت عليه أسماء لامعة لنواب رئيس جمهورية ، ونواب لرئيس الوزراء ، ووزراء ، ومفكرين ، وأساتذة جامعة ، وعلماء ، وصحفيين ، وأدباء . . . و . . . ومرة أخرى قاطعها نبيل مداعباً :

« خلاصة القول إنك عاوزة تفهميني إنك بتشوفي الناس دول كلهم؟! » .

« طبعاً . . . دي حاجة عادية خالص! » .

« أفهم من كده إنك بقيتي مهمة؟! » .

في مرارة وصدق هتفت :

« مش مسألة أهمية يا نبيل . . . أي إنسان في مصر النهاردة ، من خلال العمل السياسي ، يقدر يقابل أي شخصية وأي اسم مهما كان مركزه ! » .

هَمّ نبيل بالحديث فأردفت وقد جرفها الحماس :

« مش بس يقابله . . . لا . . . ده ممكن يقابله ويناقشه ويختلف معاه ويعلن اختلافه ده كمان! » .

« إنتي مصدقة الكلام ده يا سامية؟! » .

« أيوه! » .

هكذا أجابته في استقامة ، فعاد يسألها :

« طيب إحنا اتغلبنا ليه؟! » .

وهكذا اندفعت سامية في الحديث بلا روية ، اندفعت تشرح وتحكي وتحلل وتعدد الأخطاء أيضاً . . . وهكذا ، ومنذ اللقاء الأول ، قدمت لنبيل سالم أهم ما جاء إلى مصر من أجله دون أدنى قدر من المجهود ، اللهم الا بعض الأسئلة التي كانت تثير حماسها وحميتها وتدفعها إلى الاسهاب في الحديث . . . ولقد قالت لي سامية فهمي ، إن الظاهرة الغريبة في الأمر كله ، أن نبيل كان يبدو وكأن كل هذا الذي كانت تحكيه وتقوله لا يعنيه . . . فهو ـ مثلاً ـ لم يسمح للحوار بينهما في أي موضوع أن يستمر حتى نهايته ، بل انها

في بعض الأحيان كانت تشعر بأنه عازف عن الحوار والخوض في تلك الموضوعات الخطيرة . . . مما دفعها إلى الإحساس بأن من واجبها أن تستعيده مرة أخرى مهما قالت ومهما باحت ! !

ولقد قص عليها نبيل سالم ما رآه وسمعه وعاشه في أوروبا بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ . . وكيف عاش في ألمانيا أياماً سوداء ، وكيف ظل لأيام طويلة لا يبرح غرفته الصغيرة وهو يرتجف من البرد والألم والجوع أحياناً ، لأنه كان يخشى ان يلتقي بمن يسخرون منه ومن مصر وهزيمتها التي دوت في جميع أنحاء العالم . . . حكى لها عن تلك الصور التي نشرتها الجرائد والمجلات وأذاعها التليفزيون عما حدث في سيناء . . . ومن ناحيتها ، فلقد كانت تعرف ـ في مصر قبل أوروبا ـ عمق هذا الشرخ الذي صنعته النكسة في نفوس الناس . . . فراحت تحاول أن تلملم أشلاء حبيبها كي تعيده سوياً كما كان . . . قالت : إنها في بعض الأحيان كانت كمن تهدهده كي تعيد إليه هدوء نفسه وإيمانه بوطنه . . . ولم يكن هذا هو الذي لفت نظرها على كل حال ، فالناس في مصر كانوا يقولون أضعاف ما كان نبيل يقوله ، وكانوا يتألمون أضعاف ما كان يتألم ، وهي . . . هي قد تعودت هذا في كل مكان كانت تذهب إليه ، كانت تسمع البسطاء وهم يسألون ، ويلحون في السؤال : « ليه . . . ليه ده كله حصل؟! » . . . لم يكن هذا هو الذي لفت نظرها ، لكن الذي لفت نظرها هو عزوف نبيل عن كل ما كان يذكره بالماضي . . . كان يبدو وكأنه يريد أن يخلع جلده ! !

ذات مرة أرادت أن تدعوه إلى تناول الغداء في حي الحسين ، فدعاها إلى تناول العشاء في فندق يقع تحت سفح الهرم . . . ولقد هتفت به مداعبة :

« ما اشتقتش للكباب والكفتة يا نبيل؟! » .

« اشتقت للهرم أكتر ! » .

لكنه بدا مشتاقاً لشيء آخر غير الأهرامات ، شيء غامض لم تستطع أن تعرفه أو تدركه . . . ولم يكن ممكناً أن تغير عقلها كي تدركه وتتعرف على

هويته . . . وكيف تدركه وهي ترى نبيل كـل يوم ، وفي كـل أوقات فـراغها ، موجوداً ، وكأنه ما جاء إلى مصر إلاّ من أجلها . . . كانت تنتهي من الدراسة في المعهد ، فتجده في انتظارها أمام حديقـة « الميريـلاند » كي تقضي معـه بقية يومها ، أو حتى دقائق إذا ما كان لديها عمل تؤديه ، فكيف يمكن أن تشك ؟!!

في أول إجازة أسبوعية لها ـ وكانت يوم جمعة بطبيعـة الحال ـ سـافرا إلى الاسكندرية في الصباح ، اشترط عليها قبل السفر ألا يتناقشا ، وأن يعيشا يومهما دون خلاف . . . وكان هذا من أسباب سعادتها البالغة ، وقضت معه يوماً رائعاً أكلا فه سمكاً حتى الامتلاء . . . لكنها سألته وهما عائدان في القطار :

« **ما فكرتش تقعد في مصر يا نبيل؟!** » .

« **ما فكرتيش إنتي تيجي إيطاليا؟!** » .

ضحكت من أعماقها ومالت عليه هامسة :

« **أروح إيطاليا أهبب إيه ؟!** » .

« **تشتري عربية!!** » .

كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها ذكر شراء سيارة من إيطاليا . . . وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تحقيق الهـدف الثاني الـذي من أجله جاء نبيل إلى القاهرة . . . وبالرغم من غرابة العرض بالنسبة لسامية ، فـإنها هتفت في سعادة لم تحاول أن تخفيها :

« **عربية ؟!. . . عربية منين يا سيد؟!** » .

« **مالكيش دعوة . . . تعالي إيطاليا وأنا أدبر لك المسألة!** » .

برزت مخالبها وهتفت به منذرة :

« **يعني إيه؟!** » .

« **يعني لمي لـك قـرشين كـويسين وأنـا أقـدر أتصـرف لـك في عـربيـة كويسة!** » .

قالت لي سامية إن فكرة شراء سيارة كـانت قد راودتهـا بالفعـل من قبل ، خاصة بعد أن تشعبت علاقاتها ومسؤولياتها وتعددت الأماكن التي كانت تذهب

إليها ، مما جعل استعمالها للمواصلات أمراً شاقاً ، كما جعل استعمالها لسيارات الأجرة ، أمراً مرهقاً لميزانيتها المحدودة ! . . . ولكن ، حال دون تحقيق تلك الرغبة التي - أبداً - لم تصل في يوم من الأيام إلى حد الحلم ضيق ذات اليد ، فمن أين لها أن تجمع بضع مئات من الجنيهات قد تصل إلى خمسمائة جنيه بالتمام والكمال ، كي تشتري بها سيارة ؟!

قالت سامية فهمي إنها لم تكن تدري ، ولم يكن ممكناً أن تدري أو حتى تعقل ، أن نبيل بما عرضه عليها ، كان ينفذ جزءاً من خطة رسمت لاستدراجها إلى الخارج . . . ثم ، حتى وهو يغريها بشراء سيارة « برخص التراب » ، كان كل ما ظنته أنه يريد أن يشتري لها السيارة من جيبه الخاص . . . ولذلك ، وبالرغم من أنه أوضح موقفه من الأمر ، فإنها أرادت أن تضع أمام عينيه النقاط فوق الحروف ، ربما - هكذا أكدت لي سامية - لأنها أرادته أن يفهم ، أن أمواله مهما كثرت لا تعنيها في شيء . . . قالت له :

« **نبيل . . . انت يظهر نسيت طباعي!** » .

« **ليه؟!** » .

« **أنا لو اشتريت عربية فعلاً ، حاشتريها بفلوسي مش بفلوسك!** » .

ولقد قال نبيل سالم فيما بعد إنه في تلك اللحظة بالذات ، أدرك أن أبا سليم كان على حق ، وأن فكرة شراء سيارة لم تكن بعيدة عن ذهن سامية كما تصور هو ، بل إنه لاحظ أن الفكرة راقتها بالفعل ، فراح يضغط عليها مرحاً :

« **وهو أنا قلت كلام تاني؟!** » .

« **تقدر تقول لي بقى ، اللي زيي ممكن تشتري عربية منين؟!** » .

وهكذا راح يشرح لها أن ثمة سيارات تقع تحت يده في أوقات يكون أصحابها في حاجة ماسة إلى المال ، فيستطيع أن يشتري أية سيارة محترمة بأبخس الأثمان . . . ولقد أعطاها مثلاً بهؤلاء المقامرين الذين أدمنوا داء الميسر إلى الحد الذي يدفعهم ، عندما يكسبون مالاً ، إلى شراء أفخم السيارات والملابس ، وإلى الحد الذي يدفعهم ، إذا ما خسروا أموالهم ، إلى بيع ، لا

سياراتهم فقط ، بل وملابسهم أيضاً !!

قال لها نبيل إن مائتين من الجنيهات ، أو ثلاثة ، تكفي لشراء سيارة تغنيها عن ركوب المواصلات ، أو استنزاف مرتبها في سيارة الأجرة !

« **طيب وأجيب المتين جنيه دول منين؟!** » .

« **خدي سلفة من المجلة!** » .

قبل أن ترد ساخرة بأن سلفة المجلة لا يمكن أن تزيد على مرتب شهرين ، أي ما يوازي مائة جنيه فقط ، أردف بأسلوب الخبير :

« **وماما ممكن تسلفك الباقي!** » .

ولقد حدث هذا بالفعل . . . فاتحت سامية أمها في الأمر ، وكان هذا في نفس الليلة التي تحدثا فيها حول الموضوع !!

. . .   .

. . .   .

عندما علمت السيدة إقبال حسين من ابنتها أن نبيل سالم قد وصل في إجازة إلى القاهرة ، بدا عليها الامتعاض ولم تعلق على الأمر . . . حاولت سامية أن تحكي لها بعضاً مما قصه عليها نبيل ، فاستمعت دون أن تتفوه بكلمة . . . أحست سامية أن أمها لا تزال عند موقفها من نبيل فلم تشأ أن تخوض معركة كانت ترى أن أوانها لم يحن بعد . . . غير أنها عندما تحدثت إليها في أمر السيارة بعد ذلك ، لم تجد لديها معارضة للفكرة ـ فكرة شراء سيارة ـ في حد ذاتها ، لكنها نظرت إليها بجانب عينها متسائلة :

« **هو نبيل اللي حيشتريها لك؟!** » .

« **لو حضرتك وافقتي يا ماما!** » .

لم تجب السيدة إقبال بالإيجاب أو السلب ، وجدتها سامية فرصة قد تصلح للحديث عن نبيل ، فهتفت وهي تميل نحو أمها :

« **نبيل اتغير خالص يا ماما . . . إنتي لو شفتيه دلوقت حا. . . . . .** » .

« أنا مش عاوزه أشوف حد! » .

هكذا قاطعتها السيدة إقبال حسين حاسمة الأمر ، قالت ما قالت وهي تنهض منصرفة إلى غرفتها ، لكنها قبل أن تصل إلى الباب ، توقفت ملتفتة نحو ابنتها قائلة :

« إنتي ما بقتيش صغيرة يا سامية ، وأنا مهما اختلفت معاكي . . . إلا إني واثقة إنك تقدري تتحملي مسؤولية نفسك وتصرفاتك وتختاري الطريق اللي انتي شايفة إنه صح!! » .

واختفت حضرة الناظرة في غرفتها تاركة سامية وحدها تتمزق فيما بين عواطفها التي أججها وجود نبيل بالقاهرة ، واقتناعها بأن خبرة أمها وتجربتها لهما وزنهما في تقديرها للأمور . . . غير أنها أحست ، بشكل واضح ، أنها ـ منذ تلك اللحظة ـ سوف تتحمل وحدها مسؤولية علاقتها بنبيل سالم، وأن أحداً لن يُسأل في المستقبل عن هذه العلاقة سواها !!.

. . . .

. . . .

راحت الأيام تتطاير يوماً بعد يوم وموعد رحيل نبيل يأزف . . . كانت الأيام تؤكد لسامية أن ثمة شيئاً هائلاً قد تغير في نبيل بالفعل ، شيئاً لا تستطيع أن تمسكه بيديها ولا أن تحدده بعقلها ، كان ـ بالنسبة لعواطفها ـ هو هو نبيل الذي أحبته ، ولكن عقلها كان يقول شيئاً آخر . . . ولقد فاض بها الأمر ذات ليلة كانا يجلسان فيها في ذلك الفندق المطل على النيل ، فواجهته بإحساسها ، وطرحت بين يديه قلقها ، واستمع هو إليها جيداً ، حتى إذا انتهت ، سألها :

« إيه اللي اتغير فيّ بالضبط يا سامية؟! » .

« ما اقدرش أقول لك إلا إن نبيل اللي قاعد قدامي ده مش نبيل اللي سافر من سنتين علشان يبني مستقبله!! » .

في تمرد مرح هتف بها :

« وهو أنا لازم أوافقك على كل آرائك علشان أبقى نبيل اللي إنتي عاوزاه؟! » .

« إنت عمرك ما وافقتني على آرائي أو وجهة نظري قبل كده! » .

« طب إيه بقى؟! » .

« فيه حاجات أساسية في حياتنا يا نبيل ما بقتش بتاخد بالك منها ، أو . . . او يمكن ما بقتش تهمك ، لا من بعيد ولا من قريب! » .

« زي إيه؟! » .

صمتت سامية طويلاً ، وكان نبيل ـ في تلك اللحظات وكما اعترف فيما بعد ـ متوتراً أشد ما يكون التوتر ، وكلما طال صمت سامية وترددها ، ازداد توتره ، حتى إذا ما قالت :

« زي إنك فكرت إننا نتجوز وانت لسه طالب ما حلتكش حاجة . . . دلوقت بسم الله ما شاء الله ، معاك فلوس ومبسوط ، ورغم كده ، ما فكرتش حتى إنك تفاتحني في الموضوع ولو من باب المجاملة!! » .

تنفس نبيل الصعداء ، وانفثأ توتره ، وقال بصوت مرتجف :

« وهو أنا لسة حافاتحك في حاجة زي دي يا سامية؟! » .

« ليه لأ يا أخي . . . هو أنا مش إنسان بيحس وعنده كرامة؟! » .

« أنا كنت متصور ان دي مسألة منتهية من زمان! » .

« إزاي . . . وإمتى؟! » .

واندفع نبيل يحكي لها عن الحياة في أوروبا ، عن المستقبل الباهر الذي ينتظره . . . راح يحكي لها عن المكاسب التي من الممكن أن يجنيها إذا ما استطاع أن يدعم مركزه في الشهور القادمة ، وكيف أن أبواب الثراء مفتوحة أمامه وليس عليه سوى أن يخطو بحذر كي يعبرها بضربة حظ قد تأتي اليوم أو غداً ، فكيف يفلت من يده فرصة عاش طوال عمره يحلم بها ويتحينها . . . ترفق نبيل في الحديث فعاد إلى ذاكرة سامية عبير تلك الأيام الخوالي عندما كان

نبيل يحملها على أجنحة الأمل نحو مستقبل مشرق زاهي الألوان . . . غير أنها ـ في لحظة انتبهت فيها إلى ما يحدث ـ لم تستطع إلا أن تصيح فيه :

« يا أخي بدل ما تبذل الجهد ده كله في بلاد برة ، إبذله في بلدك ، مصر أولى بيك! » .

هذه المرة لم يخالفها نبيل ولم يختلف معها ، بل استخدم أسلوباً آخر . . . قال :

« مانا باخدم بلدي بره برضه يا سامية! » .

« بتخدم بلدك ببيع العربيات؟! » .

« يكون في علمك إن أي قرش باوفره بره لأي مصري ، باوفره برضه للبلد ! » .

كان حديثه منطقياً فراحت سامية تتأمله في صمت ، لكنه أردف وكأنه ـ بمنطقها هي ـ يُجْهِز عليها :

« وأي قرش باكسبه أنا نفسي بره ، ما هو في الآخر راجع لمصر!! » .

نظرت إليه دهشة فاستطرد :

« إنتي متخيلة اني حافضل طول عمري في أوروبا؟! » .

« يعني إيه؟، » .

« يعني لما ربنا يفرجها ويبقى عندي قرشين كويسين ، في دماغي بدل المشروع عشرة وعشرين وميت مشروع عاوز أعملهم هنا في البلد! » .

قبل أن تفتح فمها عاجلها :

« البلد محتاجة لعملة صعبة يا سامية . . . ولو كل مصري في الخارج حول إن شاء الله ميت دولار كل شهر ، البلد حتلقى العملة الصعبة اللي هي محتاجاها! » .

كادت سامية تطير من الفرح ، كان منطقه عظيماً ، وكانت فكرته تصلح لكي تُطرح للمناقشة ثم تتحول إلى دعوة لكل المصريين في الخارج كي يقفوا

إلى جوار وطنهم في محنته !

أما نبيل سالم ، فلقد لزم الصمت بعدها ، وقد أدرك أنه هذه المرة قد أصاب الهدف تماماً . . . كان يعلم يقيناً سحر كلمة « البلد » إذا ما قيلت أمام فتاة مثل سامية فهمي كانت تصحو وتنام وتأكل وتشرب وتتنفس حباً لهذا البلد . . . كان نبيل يعرف هذا يقيناً ، فراح يعزف على ذلك الوتر الحساس فإذا هي تستمع إليه بقلبها قبل أذنيها .

« الحرب مش بالمدافع بس يا سامية في العصر ده ، الحرب بالفلوس كمان! » .

« ومين قال كلام تاني يا نبيل؟! » .

« ثم إنك بتتكلمي عن الحرب وإزالة آثار العدوان والتحرير والكلام الفاضي اللي شبعنا منه ده . . . تقدري تقول لي إزاي إحنا ممكن نحرر سيناء وجيشنا كله مضروب؟! » .

هكذا راح نبيل يطبق ـ ببراعة ـ دروس أبي سليم ، نقلها من الحلم إلى الواقع فارتطمت به ، كان لا بد من أن يثير هذا كل ملكاتها للدفاع عن هذا الواقع ، كي تنزلق إلى الحديث عما لا ينبغي الحديث فيه ، ولقد أفلح تماماً . . . فما أن قال نبيل ما قاله عن التحرير حتى انبرت هي في حماس :

« إحنا مش أول دولة انهزمت ، ولا حانكون آخر دولة تنهزم! » .

« برضه إزاي حنحرر سيناء ونزيل آثار العدوان؟! » .

« بالشغل يا نبيل ، بتعبئة الشعب ، بإعادة بناء القوات المسلحة . . . بالعمل السياسي! » .

« أوعى بس الاتحاد الاشتراكي!! » .

هكذا انزلقت ولم تكن تدري أنه يسير معها في الحوار حسب مخطط يبغي استدراجها إلى البوح بما لا ينبغي البوح به . . . وفي حقيقة الأمر فإن نبيل ، بالفعل ، كان مستفزاً من آراء سامية . . . فلقد انتابه ذلك الإحساس الرهيب

والمرير بأن كل كلمة كانت تتفوه بها ، لم تكن سوى أمر بكشفه والقبض عليه والزج به في السجون أو إرساله إلى حبل المشنقة. . . وكان عليه أن يتحمل إحساسه هذا ، وأن يستحلب المر في كل لحظة يلتقي فيها بها . . . ثم ، ثم إنه لم يستطع ـ ربما دفاعاً عن نفسه وعما اقترفه ـ إلا أن يقارن بين المجتمع الذي كان يعيش فيه في ألمانيا وإيطاليا ، وبين ذلك السهوم البادي على وجوه الناس في مصر ، وقد بدت البلاد وكأن سحابة من الهم تظللها . . . استغزه ذلك التناقض الرهيب بين ما نشر وقيل وأذيع في الخارج عن تلك الهزيمة المروعة ، وما كانت سامية تردده على مسامعه فإذا هو يتساقط فيما بينهما قبل أن يصل إلى أذنيه . . . عندما فاهت بما فاهت به ، لوح بذراعه في ضيق وهو يميل نحوها :

« أنا مصري زيي زيّك ، ويهمني مصر تبقى قوية ، يهمني إنها تبقى زي ألمانيا وإيطاليا وفرنسا أو حتى زي اليونان! » .

« انت نسيت اننا كنا محتلين من عشر سنين بس؟! » .

« طب ما هي دي دول ما زالت محتلة لحد النهاردة لكن بنت نفسها! » .

« إحنا كنا دولة مستعمرة لمئات السنين ولسة ما أخدناش نَفَسْنا ، ضربونا علشان نفضل زي ما إحنا! » .

« ولما أخذنا الاستقلال ، عملنا بيه إيه؟! » .

« نبيل! » .

هكذا زمجرت في وجهه وقد كشرت عن أنيابها فضحك هاتفاً :

« إذا كنت أنا اتغيرت زي ما بتقولي ، يبقى موقفي أحسن من اللي مش عاوز يتغير ، ويعيش حياته زي قالب أو بغبغان بيقول نفس الكلام! » .

دقت بأصابعها فوق المائدة التي كانت تفصلهما وهي تقول :

« اللي ما تغيرش فيّ يا نبيل هو إيماني بالبلد دي ، وإيماني بأن اللي حصل ده قدرنا . . . وإيماني كمان ، بأن المستقبل بالتأكيد حايبقى أفضل! » .

« بالاتحاد الاشتراكي برضه؟! » .

كانت سامية تشعر بأنه ليس سوى شاة شردت بعيداً عن هموم الوطن وعليها

أن تعيدها إلى ناسها من جديد . . . راحت تشرح له كيف يمكن تنظيم الشعب ودفع عجلة البناء في نفس الوقت . . . وأن هذا ممكن أن يتحقق عن طريق عناصر وطنية تعمل داخل الاتحاد الاشتراكي دافعة الشعب من خلال تنظيم منضبط ، نحو الهدف الأسمى !

« والعناصر دي حانجيبها منين؟! » .

« ما هي موجودة . . . مصر ولاّدة! » .

« بيتهيأ لك ، بصي على الناس في الشوارع! » .

« أنا مش باتخيل ، دي حقيقة يا نبيل! » .

« يعني إيه الكلام ده بقى؟! » .

« يعني فيه تنظيم بيشتغل فعلاً من قبل النكسة كمان! » .

« أنا بقى لي عشرة أيام في البلد ، ما سمعتش عن حاجة زي دي! » .

« لأنه تنظيم سري! » .

« يعني ضد النظام والحكومة؟! » .

« لا . . . ده تنظيم اسمه التنظيم الطليعي . . . العناصر اللي. . . . . . » .

توقفت سامية عن الحديث وقد أحست أنها انساقت وراء عواطفها بلا روية فباحت بما لا ينبغي أن تبوح به . . . طال الصمت لثوان قال نبيل بعدها ساخراً :

« سكتي يعني؟! » .

« إسمع يا نبيل . . . المسألة دي سرية جداً ، ومش كل حاجة لازم أي حد في الدنيا يعرف عنها حاجة! » .

كان صوتها يرتجف انفعالاً ، وكانت ثقتها فيه بلا حدود رغم كل ما كان يبدر منه . . . لكنها لم تكن تدري وهي تشرح له فكرة التنظيم الطليعي وكيف كان يعمل وماذا كان يعمل ، أنها كانت تدلي إليه بمعلومات لم تخطر ببال نبيل ، أو حتى أبي سليم نفسه !!

* * *

قال لي عادل مكي إن نبيل استطاع في تلك الزيارة أن يحقق كل الأهداف التي من أجلها جاء إلى مصر ، ببراعة يحسد عليها . . . استطاع أن يحسم موضوع الزواج دون أن يقطع على نفسه وعداً . . . كما استطاع أن يغريها بشراء سيارة ، وكان معنى هذا أنه سيستدرجها إلى الخارج كي يسلمها لقمة سائغة لأبي سليم وزبانيته الذين كانوا ـ الآن ـ يستعدون بكل ما لديهم من إمكانات ودهاء وخبث . . . لكن الضربة التي حققها في مصر حقاً ، هي معرفته بأمر التنظيم الطليعي ومعرفته ـ بالتالي ـ بعلاقات سامية ومدى اتساع نشاطها !!

ولقد كان لظهور سامية في الصورة رد فعل عنيف على عادل مكي . . . فلم تكن سامية في ذلك الوقت مجرد صحفية من الممكن أن تحصل لنبيل سالم على معلومات أو أخبار لكنها كانت « كادر » سياسي تعتز به بعض القيادات الهامة في البلد اعتزازاً دفع البعض منهم إلى التفكير في إسناد مسؤوليات هامة إليها . . . ولذلك ، فلقد أصيب عادل في تلك الأيام بما يشبه الأرق . . . لا لأنه شك في سامية ، ولكن لأنه كان يراها مدلهة في حب هذا الشاب الخائن ، وطوال الأسبوعين اللذين قضاهما نبيل في مصر ، لم تكن ترى ـ في أوقات فراغها ـ سواه . . . ولقد ظل نبيل تحت أعين الرجال منذ أن هبط من الطائرة حتى صعد إليها مغادراً مصر ، فلم يتصرف تصرفاً واحداً يؤخذ عليه أو يلقي عليه أية شبهة . . . التقى بأصدقائه لقاءات لم تطل ، فلقد كان كل ما يعنيه في تلك اللقاءات التي سعى إليها ، أن يؤكد للجميع أنه نجح ، وأنه قادر على إثبات وجوده . . . ولقد بلغ به الحرص حداً فاق كل توقع . . . فعندما وضع عادل مكي في طريقه بعضاً من هؤلاء الذين قدمهم نبيل لأبي سليم في نابولي ، كان يصافحهم بفتور وهو يتصنع النسيان . . . وعبثاً حاول بعضهم دعوته إلى الغداء أو العشاء أو حتى فنجان قهوة ، رداً لبعض الجميل الذي طوق به أعناقهم في نابولي . . . لكنه كان دائماً ما يعتذر ولا يلبي الدعوة !!!.

شخص واحد كان نبيل حريصاً كل الحرص على لقائه كل يوم حتى ولو لم يدم اللقاء سوى دقائق قليلة . . . هذا الشخص هو « سامية فهمي » !!

ولقد كانت سامية في وداعه في المطار يوم السفر، وكان الوداع مؤلماً لها ، بكت كثيراً ، تأثر نبيل لبكائها فدمعت عيناه . . . وكان لا بد من أن يفترقا ، فافترقا ، وعادت سامية إلى بيتها وحيدة !

... ...

... ...

ابتسم عادل مكي وهو يقول : إنه لم يكد يمضي يومان على رحيل نبيل سالم إلى إيطاليا ، حتى دقت في رأسه ، وفي مكتبه ، وفي الأوراق ، وفي رؤوس رجاله أيضاً كل نواقيس الخطر . . . ذلك أن الأنباء كانت قد وصلته ، بأن سامية فهمي تستعد للسفر إلى إيطاليا ، كي تشتري سيارة !!!.

* * *

الفَصلُ الثاني والعشرون

التحرك نحو الهدف

وجد عادل مكي نفسه في موقف لا يحسد عليه . . . وإذا كان مثل هذا النوع من الرجال ، يحسن التصرف مع المواقف ويجيد إخضاع الظروف لمتطلبات أمن وطنه . . . إلا أنه وجد نفسه أمام موقف يضطره أن يفعل ما كان يعز عليه أن يفعله .

كان قد أصبح موقناً أشد ما يكون اليقين ان زيارة نبيل سالم إلى القاهرة ، لم تكن تستهدف سوى سامية فهمي بالتحديد . . . ذلك أن نبيل ـ طوال الأسبوعين اللذين قضاهما في مصر ـ كان يبدو وكأنه كَرَّسَ كل وقته وجهده لسامية وحدها دون غيرها ، فوق أنه ـ بالتأكيد ـ لم يجر أي اتصال ، ولم يلتق بأي أحد ، ولم يتصرف تصرفاً واحداً يثير أدنى قدر من الشك أو الريبة . . . ولم يكن الأمر في مثل هذه الحالة ـ وبالنسبة لرجل مثل عادل مكي ـ في حاجة إلى تفكير أو تحليل ، فلقد كان مدركاً ـ الآن ـ أن الإسرائيليين قد قنعوا من وراء نبيل سالم بهذا الدور الذي كان يلعبه ، وهو دور « الصياد » الذي كان يقدم لهم صيده من أبناء وطنه . . . هذا الدور الذي برع فيه ـ رغم قصر المدة ـ براعة ملفتة للأنظار . . وأنه ما جاء إلى مصر، إلاّ لكي يلعب نفس الدور مع الفتاة التي أحبته ، وواجهت الدنيا كلها من أجله ، ووضعت فيه كل ثقتها . . . جاء نبيل سالم إلى القاهرة ، كي يستدرج سامية فهمي إلى براثن أبو سليم وزبانيته !

فأي إنسان هذا ؟!!

هناك الكثيرون ممن يظنون أن رجل المخابرات إنسان بلا عاطفة ، أو ،

هكذا يجب أن يكون . . . ذلك أن أمن أمة بأسرها ـ في لحظة ـ قد يصبح رهن قرار يتخذه ، أو تصرف يتصرفه . . . وهو هنا لا بد له من التجرد تماماً من العواطف ، كي يزن الأمور بميزان لا يقبل الخلل ، وقد يصبح الخطأ فيه كارثة !!

وبالرغم من تعاطف عادل مكي الشديد مع سامية فهمي ، الذي كان إعجابه بها كصحيفة وكمواطنة وممارسة للسياسة في حقل مليء بالألغام ، يتزايد يوماً بعد يوم . . . إلا أنه كان عليه أن يتخذ عدداً من الإجراءات . . . أو ، فلنسمها احتياطات ، من حول سامية فهمي نفسها !!

فماذا كان عليه أن يفعل ؟!

. . .　　. . .　　. . .　　. . .　　. . .　　. . .

. . .　　. . .　　. . .　　. . .　　. . .　　. . .

كان أمراً طبيعياً ، وقد عرف الإسرائيليون علاقة نبيل بسامية ، أن يحاولوا معرفة من تكون تلك الفتاة التي ارتبطت بعميلهم بمثل تلك القوة والحرارة . . . وبصرف النظر عما حكاه نبيل عن علاقته بسامية . . . فإن خطاباتها إليه ، سواء تلك التي أرسلتها إلى ألمانيا ، أو تلك التي أصبحت منتظمة بعد أن انتقل إلى إيطاليا . . . كانت تحت سيطرتهم الكاملة حتى من قبل أن تصل إلى نبيل ، وكانت تلك الخطابات ـ دون شك ـ تشير إلى مدى ارتباط هذه الفتاة بذلك الفتى . . . وعلى ذلك ، فلا بد أنهم بذلوا جهداً في محاولة الإلمام بظروف سامية وشخصيتها وأسلوب تفكيرها . . . ومن وجهة نظر عادل مكي ، فإن الأمر لم يكن في حاجة إلى الكثير من الجهد ، فلقد كان يكفي أن توضع مجموعة من التحقيقات الصحفية أو المقالات التي كتبتها سامية في مجلة الفجر ـ مع صور من تلك الخطابات التي أرسلتها ـ تحت مجهر التحليل العلمي ، كي تشير إلى أهم العناصر المكونة لهذه الشخصية ، ومعرفة نقط ضعفها بالذات ، فوق تعرفهم على إمكانيات هذه الكاتبة أو الصحفية ومدى خطورة وتشعب علاقاتها واتصالاتها خاصة بقيادات التنظيم السياسي في مصر !

دون أدنى شك كانت سامية صيداً ثميناً لا بد من محاولة إيقاعه في شباكهم . . . ولذلك ، وما أن طار نبيل سالم عائداً إلى إيطاليا ، حتى وجد عادل مكي نفسه أمام ذلك الموقف الصعب ، والذي ازدادت صعوبته ، بعد أن نما إلى علمه أن سامية فهمي تستعد للسفر إلى إيطاليا خلال الأسابيع القليلة القادمة . . . كي تشتري سيارة !!

. . .   .

. . .   .

بداية ، كانت هناك حقيقة هامة لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها ، وهي أن حواراً ما قد دار بين نبيل وسامية حول الحياة السياسية في مصر . . . فما الذي قالته سامية في هذا الحوار ؟! . . .

وإلى أي مدى سارت بهما المناقشات . . . وهل باحت له ببعض ما كانت تعرفه ولا يجب أن يعرفه نبيل ؟! . . . وما الذي باحت به مما لا بد وأن ينقله إلى أبي سليم فور عودته إلى إيطاليا . . . ثم . . . إذا كان الغموض يلف هذه المنطقة من المعرفة بالنسبة لعادل ، إلا النذر اليسير . . . فلا بد أن الظلام سوف يزداد كثافة إذا ما سافرت هي إلى إيطاليا . . . فهناك ، بالقطع ، سوف تلتقي بمن هم أقدر من نبيل ، ولا بد أن هذا الشاب سوف يقدمها إلى واحد من أساتذة الاثارة الذين يعرفون كيف يبتزون المعلومات من الناس ، هؤلاء المدربين تدريباً عالياً على فن استخلاص المعلومات من البشر ، خاصة من هذا النوع الرومانسي - مثل سامية - الذين قد يدفعهم حماسهم إلى البوح - بحسن نية - بمعلومات ما أن تسقط في يد العدو حتى تحقق كارثة . . . أو على الأقل ، تفتح نافذة جديدة يستطيع أن يطل منها علينا ويهتك أسرارنا !

مرة أخرى . . . ما الذي قالته سامية فهمي لنبيل سالم ، وما الذي باحت به ؟!

كانت هناك خطوتان على عادل مكي أن يخطوهما فوراً ودون إبطاء .

كانت الخطوة الأولى : هي التحكم ـ بقدر الإمكان ـ في المعلومات التي تصل إلى سامية !

أما الخطوة الثانية : فكانت بذل محاولة لإثناءها عن السفر في الوقت الحاضر !

... ...

... ...

كانت صعوبة الخطوة الأولى تتمثل في أن التحكم في المعلومات التي من المحتمل أن تصل إلى سامية ، يجب أن يتم ، ليس عن طريق المسؤولين الذين تلتقي بهم فقط ، سواء في عملها الصحفي أو السياسي ، بل أيضاً عن طريق اجتماعات التنظيم الطليعي ، أو حتى العلاقات الخاصة فيما بينها وبين الآخرين !

ذلك أن الرجل كان لا بد وأن يضع في اعتباره ، أن سامية أولاً وأخيراً صحفية ، وهي ، بحكم عملها ، تملك العديد من مصادر المعلومات سواء من المسؤولين أو ممن هم دونهم ، الذين ـ دون شك ـ تعوّدوا منها الالتزام والحرص ومعرفة الفارق بين ما ينشر وما لا يجب أن ينشر في بلد تعيش في حالة حرب . . . ثم ، هناك تلك الثقة الكبيرة في سامية نفسها ، والتي أكسبتها إعجاب الجميع بلا استثناء وتلك المكانة التي احتفظت بها لنفسها ، والتي جعلت مناقشة الأمور معها أو أمامها أمراً طبيعياً ولا غبار عليه !

وإذا كانت هذه النقطة ـ نقطة التحكم في المعلومات ـ تعتبر حجر الزاوية فيما يختص بسامية فهمي . . . فإنها كانت تحمل مخاطر عديدة بالنسبة لشخصيتها ومستقبلها معاً ! !

كان عادل مكي مدركاً أن مثل هذه الأمور ، حتى ولو فوتح فيها البعض بأسلوب حساس أو أوحي بها إليهم ، قد تثير الشكوك حول شخصية سامية ، مما قد يصبح التخلص من آثاره ، فيما بعد أمراً بالغ الصعوبة . . . بمعنى أن

التحذير ، حتى ولو بالإيحاء ، قد يُلقي ظلالاً من الشك حول الفتاة التي كان عادل مكي مقتنعاً أشد ما تكون القناعة بأنها مواطن شريف ، بل مواطن من نوع فاخر وممتاز . . . فكيف يمكن أن يتم الأمر في وقت واحد . . . كيف يمكن حجب المعلومات بالتحذير أو الإيحاء أو الرجاء ، دون أن تمس شخصية تلك الفتاة ذات الحظ التعس !!

عندما سألت عادل مكي كيف استطاع أن ينفذ خطته فيما يتصل بهذا الأمر ، أطبق شفتيه تماماً ورفض الحديث . . . وفي محاولة مني للضغط ، بدا عليه الغضب ، وكان رأيه : أن الناس لا يعنيهم معرفة مثل هذه التفاصيل بقدر ما يعنيهم أن يعرفوا النتائج .

وعلى كل . . . إذا كان عادل مكي قد استطاع أن ينفذ خطته ، فيما يختص بحجب المعلومات عن سامية دون المساس بشخصها بشكل أو بآخر ، فلقد كان عليه الآن وبعد أن اطمأن ، أن يحاول إثناءها عن السفر حتى يجنبها مزالق كانت هي في غنى عنها تماماً ولسنا ندري كيف فعل عادل هذا بالتحديد . . . غير أني عندما سألت سامية إن كان هناك من حاول إثناءها عن السفر ، بدت عليها الدهشة لثوان لم تطل ، ثم قالت : إن أحداً لم يتحدث معها في هذا الموضوع سوى أمها لأنه لم يكن من حق أحد أن يتحدث معها في هذا الموضوع سوى السيدة إقبال حسين التي وقفت بحزم ضد رغبتها تلك . . . لا لأنها لا تريد لابنتها أن تشتري سيارة ، بل لأن السيارة كانت ستأتي أصلاً عن طريق نبيل سالم . . . ولم تقتنع سامية بالطبع ليس لاختلاف وجهة نظرها عن وجهة نظر الأم في نبيل فقط ، ولكن لأن السفر في حد ذاته كان هدفاً من أهدافها . . . قالت لأمها ذات مرة أثناء مناقشة الأمر :

« إنتي نسيتي يا ماما إن عمري ما طلعت بره مصر ، وإن سفري لأي مكان في الدنيا فايدة كبيرة لي! » .

غير أن سامية هتفت بي ذات لحظة ، وكنا قد تركنا هذا الأمر وانتقلنا من

حديث إلى حديث إلى موضوعات أخرى ، هتفت وكأنها تذكرت شيئاً هاماً . . . ولَزَمْتُ الصمت تماماً وحبست أنفاسي وكأني تلقيت أمراً بالصمت المطلق وكان عليّ أن أطيع . . . كانت تبدو لعيني بنظارتها الطبية الرقيقة ووجهها المستدير المليح الذي يحيطه ذلك الإطار اللامع من الشعر الأسود ، وكأنها شدت إلى الماضي بقوة . . . وما لبثت أن قالت :

« حصل في واحد من اجتماعات المجلة الأسبوعية أني طرحت فكرة سفري لإيطاليا ، وسألت الأستاذ أحمد مختار ـ رئيس التحرير ـ إن كان عايز مني شغل معين أعمله هناك . . . لكن . . . لكن. . . . . . . » .

صمتت سامية وبدت وكأنها تغوص في الماضي بعنف ، فرحت أستحثها :

« لكن إيه؟! » .

اعتصرت رأسها بأصابعها وهي تغمغم :

« هو ما طلبش مني إني ما أسافرش ، إنما قال كلام تاني! » .

« زي إيه؟! » .

« زي إن البلد محتاجة لوجودنا في مصر دلوقت . . . وإن سلسلة التحقيقات اللي كنت باكتبها لازم تكمل . . . و . . . وحاجات بالشكل ده . . . إنما . . . إنما. . . . . . » .

كانت الذكريات الآن تترى على ذهنها في تدفق فهتفت مستطردة :

« آه . . . افتكرت ، كلهم ، كلهم ما وافقوش على سفري . . . رغم إن فيهم ناس كانوا سافروا فعلاً واشتروا عربيات! » .

« واجهتهم بالواقع ، وقلت لهم إني محتاجة زيهم لعربية! » .

صمتت لثوان ثم أردفت وكأنها تحلم :

« ويمكن ده اللي خلاهم في الآخر يسكتوا! » .

لم يخطر ببال سامية فهمي أن حواراً مثل هذا من الممكن أن تكون له أهمية من نوع خاص ، كان حواراً عادياً وكان طبيعياً للغاية أن تحدث مناقشة من هذا

النوع في اجتماعات التحرير فلا تثير إلاّ زوبعة في فنجان الاجتماع تنتهي آثارها بمجرد الانتقال إلى موضوع آخر !

وهكذا . . . رفضت سامية كل الحجج التي سيقت إليها حتى تعدل عن السفر . . . بل اننا نستطيع القول : إن مثل تلك الاعتراضات ، لم تكن الا لتزيد رغبتها في الطيران إلى إيطاليا مهما حدث !

و . . . وسافرت سامية !

* * *

عاد نبيل سالم إلى إيطاليا وهو تحت السيطرة الكاملة ، بل والمطلقة لعادل مكي كانت الحاجة إلى ملازمة ذلك الشاب المتردي في مهاوي الخيانة قد أصبحت لازمة أكثر من أي وقت مضى . . . وضع عادل خطة شديدة التعقيد لمراقبته ، خطة كلفت الأبطال الذين طاروا إلى إيطاليا ، أو الذين كانوا هناك ، الكثير من الجهد . . . كان يعلم أن نبيل سوف يعود إلى روما كي يبقى فيها أياماً قبل عودته إلى نابولي لإنهاء صفقة السيارات التي لم يكن صعباً على رجاله في نابولي أن يعرفوا كل شيء عنها . . . وإذا كانت خطوات نبيل وتحركاته قد وضعت في القاهرة تحت مجهر لا شك في نتائجه . . . إلا أنه - أي نبيل - لم يشعر في لحظة أن هناك من يرقبه ويعد عليه خطواته . . . ولذلك ، فلقد عاد إلى إيطاليا وهو يشعر بثقة لا حدود لها ، ليس في نفسه فقط ، ولكن . . . في تلك المنظمة التي يعمل لحسابها التي أكدت له زيارته للقاهرة ، أنها بالفعل قادرة على حمايته ، وإخفاء أي اتصال به !

دون استباق للحوادث ، فلقد كان هذا بالضبط ، هو ما يريده عادل مكي . . . وإذا كانت كل المحاولات التي بذلت مع هذا الشاب كي يعود إليه صوابه قد فشلت ، وإذا كان حضوره إلى القاهرة يفرض أنه كان محاصراً في الخارج ، كانت فرصة ذهبية له كي يُبلّغ عما حدث له ولم يفعل ، بل أمعن في تنفيذ مخططات العدو ضد أقرب الناس إليه وأكثرهم حباً له وإيماناً به . . . فلقد كان على عادل مكي الآن أن يوقع بهذا الخائن . . . وإذا كان الإيقاع به من

الصعوبة بمكان ، لعدم وجود دليل واحد يدينه ، ونتيجة لحذر نبيل الشديد وحيطته التي كانت تتقدم كل الأولويات . . . فلم يعد أمام عادل سوى طريق واحد . . . أن يُدخل الطمأنينة إلى نفس نبيل تماماً ، وأن يشعره بأن مخلوقاً في الدنيا لا يعرف عنه شيئاً . . . هنا ، لا بد أن يفقد نبيل - إن آجلاً أو عاجلاً - حذره ذات لحظة ، هي كل ما يريده عادل كي يُوقع به متلبساً بجرمه .

عاد نبيل إلى إيطاليا إذن ، وهو يشعر بثقة لا حدود لها . . . وكان بالطبع يتعجل لقاءه بأبي سليم كي يزف إليه بشرى ما فعل في مصر وما حصل عليه من معلومات . . . أحس أنه الآن يستطيع أن يطالب بإسقاط الدين كله عنه ، بل تنامى إحساسه إلى حد أن فكر في مساومة أبي سليم . . . فها هي سامية قد باحت له فوق ما باحت به حول عملها وعلاقاتها بوجود ذلك التنظيم السري الذي يعمل لحساب النظام لا ضده . . كان قد التزم تماماً بتعليمات أبي سليم ، وعاد بنتائج جد طيبة ، عاد يحمل إليهم كنوزاً عليهم أن يقدروها حق قدرها !

غادر مطار روما - ليلة وصوله من مصر ، وهي الليلة التي حددها أبو سليم بالضبط - إلى ذلك الفندق المتوسط الذي كان عليه - حسب تعليمات أبو سليم أيضاً - أن ينزل فيه ، ثم ينتظر إلى أن يتصل به الرجل ! . . . ومهما طال الانتظار ، فليس له أن يغادر روما ، وليس له أن يعود إلى نابولي ، وليس له أن يغير الفندق قبل أن يتم هذا الاتصال . . . وحتى يعاين السيارات ويعود إلى السنيور أسكالكو برأيه ، أو يبرم الصفقة إن كانت مجزية !!

لكن الاتصال لم يتم طوال أسبوع كامل !

طوال سبعة أيام كل يوم فيه أربع وعشرون ساعة ، وكل ساعة فيها ستون دقيقة ، لم يتصل به أحد فلم يعره مخلوق اهتماماً ! .

عندما مضى يومان بدأ القلق يتسلل إلى نفسه . . . ولما كان يعلم يقيناً أن أبا سليم سوف يطلب منه كتابة ما حدث مهما حكى له أو قص عليه ، فلقد راح في اليوم الثالث يكتب ، بالتفصيل ، كل ما حدث له في القاهرة منذ لحظة

هبوطه إلى مطار القاهرة الدولي حتى لحظة عودته إلى مطار روما ، كتب كل ما دار بينه وبين سامية فهمي من حوار حول كل شيء ، حتى هذا الحوار « الشديد الخصوصية » الذي دار بينهما . . . كتبه !!!.

في البداية . . . أراد أن يكتب كي يقطع الوقت ويبدد الملل ، لكنه كلما كتب وأمعن في الكتابة ، تضاربت في نفسه الأحاسيس والمشاعر ، فإذا هو أسير معركة احتدمت في صدره احتداماً مخيفاً !

كان مع تزايد قلقه يوماً بعد يوم لغياب أبي سليم وعدم اتصاله به وكأنه يتعرى حتى من نفسه ـ كان هذا تعبيره بالضبط ! ـ ولقد جسدت له سامية فشله تجسيداً كان يشعل النار في صدره . . . وبلا أدنى شك ، فلقد ساعده على هذا الإحساس ، شعوره بأنه قد تلوث وانتهى الأمر ، مضافاً إليه شعوره بذلك النقاء الذي لم يتلوث في سامية ، وذلك النجاح الذي حققته ولم يعد يستطيع أن يحتمله ! . . . حتى جاء عليه وقت واجه نفسه بسؤال اهتز له حقاً : هل هو يحب سامية أم يكرهها . . . لم يكن هناك ما يدعو إلى كراهيتها ، بل العكس هو الصحيح . . . فلقد أحبت سامية في نفسه ذلك الإحساس البعيد بُعْدَ قرون من الزمن السحيق في أغوار نفسه ، بأنه ينتمي ، بشكل ما ، إلى عالم نظيف . . . وكان في نفس الوقت يتساءل إذا كان يحب سامية حقاً ، ويجتاحه الحنين إلى عالمها . . . فما هذا الذي كان بينه وبين شيرلي هايمان ، وكيف كانت سامية تبدو له ـ في تلك الأيام ـ وكأنها شيء فاتر لا حياة فيه ؟! . . . وما هذا الذي كان بينه وبين مارشيللا ، تلك الذي أدخلته جنة ما حلم يوماً أن يرتاد أرضها ، والتي أشعرته ـ ربما لأول مرة في حياته ـ بأنه رجل من نوع خاص !!

مضت الأيام السبعة وهو صريع تلك الأفكار والمشاعر وكان ما يملكه من مال قد بدأ ينفد خاصة وأنه أنفق في القاهرة عن سعة ، بل كان يبذّر في محاولة لإعطاء سامية إحساساً بأنها إذا كانت متفوقة عليه بذاتها ، فهو يستطيع التفوق عليها بماله . . . لكنها للأسف لم تكن تهتم بما ينفق بقدر ما كانت تهتم بما يفكر فيه ، فأخذت النار تزداد اشتعالاً في صدره !!

كان نبيل سالم حريصاً على أن يكون التقرير الذي كتبه مصاحباً له في كل مكانٍ ، كان يضعه في جيبه إذا ما خرج ويضعه في حقيبة أوراقه إذا ما عاد إلى الغرفة . . . حتى كان يوم عاد فيه من جولة في المدينة ، وجد رسالة تقول إن « مارلو » قد اتصل به . . . وكان اسم « مارلو » هذا هو الاسم الكودي الذي اتفق معه أبو سليم على استعماله إذا طلبه في التليفون . . . يومها لازم الفندق ولم يغادره ، أحس في الغرفة بالاختناق عندما طالت به الساعات ، هبط إلى البهو بعد أن أعطى لعاملة التليفون خبراً بمكانه . . . جاء الليل وانتصف دون أن يتصل به مارلو هذا مرة أخرى . . . حاول أن يتناول العشاء لكن نفسه عافت الطعام فعاد إلى الغرفة يجرجر ساقيه . . . ما أن دلف إلى الفراش حتى راحت الأفكار تداهمه مرة أخرى ، بدأ النوم يغزو جفونه فإذا صور لأشباح تحوم في مخيلته وتهاجمه . . . فجأة قفز جالساً في الفراش أثر كابوس رأى نفسه فيه يهوي من حالق . . . تفصد جسده بالعرق وكانت أنفاسه لاهثة وجرس التليفون يدخل بإلحاح إلى دائرة وعيه ، انتبه إلى الجرس فاختطف سماعة التليفون في لهفة :

« **برونتو!** » .

« **انت نمت والا إيه؟!** » .

« **انت فين يا أخي!** » .

هكذا هتف في توسل فإذا الرد يأتيه هادئاً :

« **في الأوضة اللي جنبك!** » .

وسقطت السماعة من يده !!

. . .   .

. . .   .

مضت ساعتان وهو يحكي لأبي سليم كل ما حدث له في مصر بالتفصيل . . . عندما فتح الباب لاستقبال الرجل كان ينتفض بالحماس ، صافحه في شوق لكن يد أبي سليم كانت فاترة . . . اندفع يحكي فإذا هذا يبدو

وكأنه يتشاغل بأي شيء عنه . . . وكلما أمعن أبو سليم في تجاهله كلما ازداد حماسه ، لكنه أصبح حماساً انطفأت شعلته وبهتت ألوانه وذهب بريقه . . . وحتى عندما وصل إلى الحديث عن التنظيم الطليعي ، استقبل أبو سليم الأمر وكأنه يستمع إلى حديثه عن نوع جديد من الصابون . . . توقف في لحظة متسائلاً في قلق :

« إيه الحكاية يابو سليم؟! » .

« حكاية إيه؟! » .

« هو الشغل مش عاجبك؟! » .

تجاهل أبو سليم سؤال نبيل ، ثم سأله سؤالاً آخر :

« مش تقول لي انت لقيت إيه في مصر؟! » .

« أمال أنا كنت باحكي عن إيه من ساعة ما قعدنا سوا! » .

هز أبو سليم رأسه نفياً وهو يردد :

« لا . . . لا مش ده . . . مش ده؟! » .

وقع نبيل في حيرة وفي عينيه تساؤل قلق ، اعتدل الرجل في جلسته مغمغماً :

« إنت نسيت اللي انت اتعلمته يا نبيل والا إيه؟! » .

« قصدك إيه يابو سليم؟! » .

« فيه حد أخد باله منك في مصر؟! » .

وصلت الرسالة إلى نبيل أخيراً فانطلق يحكي ويقص ، قال إنه منذ الدقيقة الأولى كان ملتزماً بكل احتياطات الأمن التي علمها له أبو سليم ، وأن الناس في مصر يبدون وكأنهم يعيشون عالماً مختلفاً ، قال :

« ولعلمك يا بو سليم ، لو كان المصريين أخدوا بالهم من حاجة ، مكانش ممكن سامية تتفتح معايا بالشكل ده! » .

« يعني محدش مشي وراك؟! » .

« بالمرة! » .

« حد اتعرض لك في الدخول أو الخروج؟! » .

« ما حصلش . . . بس كان فيه مشكلة! » .

« إيه هي؟! » .

« مشكلة خاصة بالتجنيد! » .

« وليه ما قلتليش عليها؟! » .

« بصراحة كنت ناسي الحكاية دي خالص وما اعرفش إزاي؟! » .

« وازاي حليت المشكلة دي؟! » .

« سامية هي اللي حلتها! » .

« في حقيقة الأمر ، لم تكن سامية هي التي حلت المشكلة رغم أنها تحدثت في الموضوع مع واحد من المسؤولين . . . لكن الذي قام بالجهد كله هو عادل مكي الذي أوعز إلى صديق له في مصلحة الجوازات بأن ييسر مهمة الخروج لنبيل بعد بضع عقبات كانت تحل واحدة بعد أخرى حتى بدا الأمر طبيعياً تماماً !! » .

ساد الصمت بينهما لثوان تساءل بعدها نبيل والقلق ينهش صدره :

« إيه الحكاية يا بو سليم؟! » .

مال أبو سليم نحوه وركز عينيه في عيني نبيل وهو يقول :

« مش كان لازم تنتبه لحكاية التجنيد دي؟! » .

« ما هي انحلت والباسبور اتجدد! » .

« وحليتها ليه قبل ما أقولك؟! » .

تذمر نبيل ناهضاً من مكانه :

« إذا كان الشغل مش عاجبك قول وخلصني! » .

« مين اللي قال إن الشغل مش عاجبني! » .

« أمال ما لك كده زي ما تكون. . . . . . . » .

قاطعه أبو سليم ناهضاً هو الآخر :

« هو أنا لما أخاف عليك ، تزعل؟! » .

هرب نبيل من الموقف متسائلاً :

« يعني الشغل كويس؟! » .

« المهم إنك تكتب لي كل الكلام اللي انت . . . . » .

هتف نبيل مندفعاً نحو حقيبة أوراقه :

« كله مكتوب بالحرف الواحد! » .

التقط نبيل الأوراق التي كتب فيها تقريره عائداً إلى أبي سليم فهالته تلك النظرة التي كانت تنطلق من عيني الرجل وكأنها طلقات رصاص محموم ، ارتد نبيل إلى الخلف خطوة وهو يتساءل :

« فيه إيه تاني؟! » .

مد أبو سليم يده إلى الأوراق المطوية وهو يغمغم :

« إنت كتبت الكلام ده إمتى؟! » .

« طول الأسبوع اللي فات؟! » .

أصاب نبيل الذهول وهو ينظر إلى الرجل الذي أخرج ولاعته وأشعلها ، ثم قرب الأوراق من النيران التي راحت تلتهمها أمام عينيه ، لم ينظر أبو سليم في الأوراق ، لم يفضها ، لم يكلف خاطره عناء قراءة سطر فيها أو مناقشة واقعة مكتوبة .

« بتعمل إيه يا أبو سليم؟! » .

« أنا علمتك تكتب حاجة قبل ما أقول لك؟! » .

كانت الأوراق تحترق أمام عينيه وجسده يتفصد عرقاً وقلبه يخفق انفعالاً ، وعندما أتت النيران على آخر قطعة ورق ، قال أبو سليم :

« تقدر دلوقت تكتب اللي انت قلتهولي! » .

ظل نبيل سالم جامداً في مكانه وكأن صاعقة أصابته . . سار الرجل نحو الباب وهو ينظر في ساعته ، مد يده إلى المقبض ثم استدار نحو نبيل :

« تعمل حسابك تخلص التقرير قبل الساعة ثمانية الصبح! » .

هتف نبيل :

« دانا ما نمتش لحد دلوقت! » .

« ما انت نايم بقى لك ثلاثة أسابيع! » .

قال الرجل هذا ، ثم خرج !

كان نبيل سالم يشعر بنفس الإحساس الذي انتابه وهو يهوي من حالق ، في ذلك الكابوس الذي أيقظه مع جرس التليفون !.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

ليس سوى الطاعة العمياء!

مضت خمسة أيام لم يذق فيها نبيل طعم النوم إلا نادراً ، ما أن جاء صباح اليوم التالي حتى كان قد انتهى من كتابة التقرير . . . في تمام الثامنة صباحاً دق الباب وكان أبو سليم هو الطارق ، تسلم منه التقرير ثم صحبه إلى سيارة كانت تنتظرهما في شارع جانبي . . . قال له أبو سليم : إنهما ذاهبان إلى الوكالة التي تم الاتفاق على الصفقة معها . . . كان أبو سليم عند وعده فلقد وجد نبيل كل شيء جاهزاً والصفقة مجزية ، ولم يكن باقياً سوى تلك الإجراءات الرسمية التي لا بد من أن ينهيها بنفسه بصفته وكيلاً عن السنيور أسكالكو . . . سأل نبيل ـ وهما في السيارة يقطعان طرق روما إلى حيث وسط المدينة ـ :

« مش المفروض إني أتصل بالسنيور اسكالكو في نابولي؟! » .

« المفروض إنك كنت طول الأسابيع التلاتة اللي فاتوا في مفاوضات مع السنيور البرتو اجنازيو مدير الشركة اللي اشتريت منها العربيات! » .

« مش كتير تلات أسابيع؟! » .

« لاحظ انك لفيت معاه كام بلد حوالين روما علشان تشوف باقي السيارات! » .

همّ نبيل بالحديث ، لكن أبي سليم استطرد :

« وإن المفاوضات كانت صعبة وأخدت وقت طويل! » .

قال أبو سليم هذا وهو يدس يده في جيبه كي يخرج ظرفاً متوسطاً منتفخاً

بالأوراق . . . قدم الظرف لنبيل الذي يتهلل وهو يتناوله متسائلاً :

« إيه ده؟! » .

« دي الإيصالات وتذاكر السفر والفواتير بتاعة المطاعم واللوكاندات في البلاد اللي انت زرتها برة روما ، ولاحظ ان كلها باسمك!! » .

إنتاب نبيل ضيق مفاجىء . . . فلقد خاب ظنه في أن الظرف كان مفعماً بالأوراق المالية . . . ساد الصمت لثوان قال بعدها أبو سليم :

« ولازم طبعاً في الكام يوم اللي جايين تسافر البلاد اللي المفروض إنك رحتها وتشوف اللوكاندات اللي نزلت فيها ، علشان اسكالكو لو سألك ، تبقى عارف كل حاجة! » .

« طب إحنا رايحين فين دلوقت؟! » .

« رايحين عند سنيور البرتو اجنازيو ، مدير الوكالة اللي انت اتفقت معاها على العربيات ، وده حايديك مكتب في شركته علشان تستعمله لحد ما تخلص كل الإجراءات اللي فاضلة! » .

« مكتب؟! » .

كانت دهشة نبيل كبيرة . . . لكن أبا سليم عاجله :

« لاحظ إن فيه شوية إجراءات لازم تتم ، صحيح هي حاجات خاصة بالتسجيل والعقود ، لكن الراجل حط لك سكرتيرة علشان تفهمك كل حاجة وتسهل لك الإجراءات كمان! » .

قال أبو سليم هذا وهو يرمي نبيل بنظرة جانبية من عينه ، فتهرب هذا من نظرات الرجل مدمدماً في حدة وضيق :

« يعني أتصل باسكالكو ولّا لأ؟! » .

لم يجبه أبو سليم ، وإنما انطلقت من عينه نظرة حادة متسائلة ، أجاب عنها نبيل هاتفاً :

« ما هو مش معقول يا أبو سليم أروح مصر وأشتغل وأعمل كل اللي

مطلوب مني وأكتر . . . ولما أرجع ما ألاقيش حتى كلمة الحمد لله على السلامة! » .

« الحمد لله على السلامة! » .

قالها أبو سليم باسماً فلم يتمالك نبيل نفسه من الابتسام ، فعاد الرجل إلى الحديث :

« البرتو اجنازيو ده مدير أكبر وكالة لبيع العربيات المستعملة ، مش في روما بس ، إنما في إيطاليا كلها . . . والفرع الرئيسي للوكالة في ميلانو ، لكن البرتو ممكن ينفعك في الكام يوم اللي حاتقعدهم هنا لو حاولت تتعلم منه هو بيشتغل إزاي . . . لأن ده حاينفعنا في المستقبل! » .

أدرك نبيل أن وراء حديث أبي سليم ما وراءه . . . عندما تحدث إليه بالأمس وعندما سلمه التقرير منذ أقل من ساعة لم يقل كلمة حول زيارته للقاهرة . . . تهاوت أحلامه وتقلصت وهو يرى الرجل يتجاهل الحديث حول ما ظنه ضربة موفقة . . . استدار بجسده كله نحو أبي سليم وقد أراد حسم الأمر حسماً نهائياً :

« يعني ما قلتليش رأيك يا أبو سليم؟! » .

« في إيه؟! » .

« في التقرير اللي في جيبك! » .

« مش لما اقراه؟! » .

أحس نبيل برغبة عارمة في الثورة ، لكنه كبح جماح غضبه وسأله :

« طب رأيك في الكلام اللي قلتهولك إمبارح بالليل؟! » .

« عاوز تعرف رأيي في إيه بالظبط يا نبيل؟! » .

« عاوز أعرف رأيك في اللي حصل مع سامية! » .

« مش لما تيجي سامية؟ » .

أسقط في يد نبيل ، كشف الرجل الغطاء بقسوة عن كل الحقائق مجردة عارية فإذا هو يرتجف . . . لم يكن هناك ما يقوله وإن كان صدره يغلي بغضب

مكبوت وإحساس مشين بالعار ، وزفر ذات لحظة هارباً مما هو فيه :

« **يعني أكلم اسكالكو ولّا بلاش؟! »** .

« **وبلاش ليه؟! »** .

« **هو انت ما تقولش كلمة تبل الريق أبداً؟! »** .

« **مش مهم الخطوة الأولى يا بلبل . . . المهم النتائج! »** .

« **بس أنا عملت اللي علي! »** .

« **كل ده علشان خمسميت دولار عاوز تنزلهم من اللي عليك؟! »** .

قال نبيل سالم فيما بعد أنه أحس بوضوح في ذلك الصباح أن الرجل يربطه بإحكام إلى عجلة تسعى إلى حيث لا يدري ، إنتابه اليأس من كل شيء لكنه كان فاقد الحيلة . . . توقفت السيارة أمام بناية هائلة من تلك البنايات التي أقيمت حسب الأسلوب الأمريكي والتي كانت تبهر نبيل كلما مر بإحداها . . . في مدخل البناية اختطفت عيناه أسماء لعدد من الشركات ذات السمعة العالمية . . . خرج من المصعد في الدور الثالث والعشرين ودلف خلف أبي سليم من باب كان يفضي إلى عالم يشغى بالحركة والحياة ، ووجد نفسه يخوض في غابة من الحسان والشبان ذوي الأناقة الملحوظة . . . قبل أن يدخل إلى مكتب السنيور اجنازيو كان يتصوره كهلاً تعدى الخمسين من عمره لكنه وجد نفسه أمام شاب في الثلاثينيات وسيم الأناقة ، فتساءل ، كيف غابت عنه السينما الإيطالية ؟ صافحه البرتو في حرارة من كان يعرفه منذ سنوات خلت ، عندما قدم أبو سليم كلاً منهما للآخر هتف البرتو ضاحكاً :

« **تستطيع أن تعتبرني من الآن صديقاً لك سنيور جيزي! »** .

لم يمكث أبو سليم سوى دقائق تركهما بعدها كي يتفقا على إتمام إجراءات صفقة وطلت إلى مائتي سيارة . . . همّ نبيل بسؤال أبي سليم - قبل انصرافه - متى سيلتقيان ؟ لكنه تراجع خوفاً من نظرة قد تصيبه من عيني الرجل الذي أصبح همزة الوصل الوحيدة بينه وبين عالمه هذا الجديد ، الذي كان يطل عليه من الطابق الثالث والعشرين في إحدى بنايات روما الحديثة . . . غادر البرتو

مقعده وأعد لنبيل فنجاناً من القهوة الإيطالية المركزة حمله إليه بنفسه ، ثم جلس إليه وراح يشرح له طبيعة الصفقة . . . استمر الحوار بينهما لأكثر من نصف ساعة خرج بعدها نبيل بانطباع أدهشه أشد ما تكون الدهشة . . . كان يشعر بالفعل بأن هذا الشاب الوسيم الثري قد أصبح صديقاً له . . . تذكر فريدريك الألماني وكيف قادته صداقته له إلى المخدرات ، ومن المخدرات إلى التجسس . . . فإلى أين يقوده هذه المرة البرتو اجنازيو هذا الذي يشبه نجوم السينما ؟ عندما ناداه نبيل ذات مرة « سنيور اجنازيو » هتف هذا معترضاً :

« تستطيع أن تناديني البرتو! » .

عندما انتهى الحوار حول الصفقة ومجموع السيارات وما إلى ذلك ، قال البرتو :

« . . . . وكما ترى ، لم يعد باقياً سوى الإجراءات القانونية ، وهي إجراءات معقدة بعض الشيء لكن انطونيللا سوف تساعدك وتسهل لك الأمور؟! » .

« أنطونيللا؟! » .

هكذا تساءل نبيل فقال البرتو :

« هذا هو اسم سكرتيرتك طوال مدة إقامتك في روما ، وهي فتاة طيبة ودؤوب ! » .

ثم ضحك وهو يدور حول المكتب ويرفع سماعة التليفون كي يطلب رقماً داخلياً :

« لا يعيبها شيء سوى حيويتها وصرامتها أثناء العمل . . . أما بعد العمل. . . . . » .

قطع حديثه مع نبيل في التليفون :

« أنطونيللا . . . إن سنيور جيزي هنا! » .

قبل أن ينصرف نبيل مع أنطونيللا من مكتب البرتو صاح هذا :

« إياك أن ترتبط بأي موعد في المساء ، فأنت مدعو الليلة على العشاء! » .

قادته أنطونيللا إلى المكتب الذي خصص له فوجد نفسه في غرفة كالحلم . . . في صدر الغرفة مكتب وأمام المكتب مقعدان وثيران ومن خلفه ستارة نصف مسدلة على حائط زجاجي يطل على الحديقة العريقة . . . كانت هناك موسيقى تنتشر ألحانها الخافتة في الجو كي تختلط بشذى ورد وضع على جانب من المكتب بينما زينت الحيطان بلوحات تشي بقيمتها حتى لهؤلاء الذين لا يتذوقون فن التصوير !

وقف نبيل في منتصف الغرفة دهشاً فاغر الفم دون أن ينطق بحرف . . . إنتبه إلى الفتاة التي كانت تقف إلى جواره وكانت ترميه بنظرة اخترقت عظامه حتى النخاع ، ابتسم لها فأشارت إلى ملف أنيق فوق المكتب ممتلىء بالأوراق ، سبح صوتها إلى أذنيه كالنغم :

« هذه هي الأوراق الخاصة بالصفقة ، ولا بدّ من أنك مشوق لقراءة ما فيها ! » .

خطا نبيل نحو المكتب فتابعه صوت أنطونيللا متمسحاً به :

« لقد علمت أنك لا تتقن الإيطالية بالقدر الكافي! » .

التفت نحوها في دهشة فاستقبلته ابتسامتها في رقة :

« لا تشغل بالك بمثل هذا الأمر ، فأنا هنا لتلبية كل رغباتك! » .

وصلته الرسالة واضحة أشد ما يكون الوضوح ، مد يده نحو الدوسيه فاستطردت وهي تشير إلى ظرف متوسط الحجم أنيق اللون والورق :

« أما هذا الظرف الصغير فهو يخصك أنت! » .

لفتت الجملة نظره وامتدت يده إلى الظرف الذي ما أن لامسته أصابعه ، حتى تيقن من أنه محشو بالأوراق المالية . . . رفع عينيه نحو أنطونيللا التي قالت بابتسامة شديدة العذوبة :

« إنه مصروف الجيب لثلاثة أسابيع مضت! » .

مرة أخرى تصله الرسالة واضحة فابتسم هامساً في اقتضاب :

« جراتسي! » .

« هل تأمر بشيء سنيور جيزي؟! » .

همّ بشكرها لكنه تذكر اسكالكو فهتف :

« هل أستطيع التحدث إلى سنيور اسكالكو في نابولي؟! » .

« بالتأكيد!! » .

قالت هذا وهي تسبح مغادرة الغرفة ، فوجد نبيل نفسه يهتف بصوت عال :

« إيه ده! » .

كان موقناً أشد ما يكون اليقين أن وراء كل هذا يكمن هدف لأبي سليم لا يستطيع الآن إدراكه ، ومهما كان الأمر ومهما كان الأسلوب أو الهدف فلا بد له من الاعتراف بأن أبا سليم كان يحقق له أحلامه . . . استخفه مع السعادة زهو بالغ فطرد الوساوس من رأسه وفض الظرف فإذا رزمة من ورق النقد الإيطالي من فئة الخمسة آلاف ليرة تطالعه . . . أعاد الظرف إلى جيبه مبتسماً فلقد أدرك السر في أن أبا سليم لم يعرض عليه مالاً . . . انكبّ في حماس فوق الملف وراح يقرأ أوراقه بقدر ما أسعفته معرفته باللغة الإيطالية . . . دق جرس التليفون وأعلنته أنطونيللا بأن سنيور اسكالكو على الخط . . . جاءه صوت الرجل مغموساً في القلق :

« نبيل . . . أين أنت ؟! . . . وأين كنت طوال تلك الأيام ؟! . . . ولماذا لم تتصل بي من قبل ؟! . . . لقد حاولت الاتصال بك في روما عبثاً فأنا لا أعرف حتى الآن في أي فندق نزلت. . . . . » .

تركه نبيل حتى أفرغ شحنة انفعاله ثم زف إليه بشرى التعاقد على مائتي سيارة بأسعار مجزية تماماً . . . سرعان ما ابتلع الرجل قلقه وغلفت اللهفة نبراته وهو يسأل ويستفسر . . .

راح نبيل يجيبه حيناً ويراوغه حيناً وقد اضطجع في مقعده وهو يدخن في

التذاذ ، راح ينظر إلى كل ما حوله وقد استعاد ثقته بنفسه . . . سأله سنيور اسكالكو إن كان في حاجة إلى المال فضحك نبيل قائلاً :

« سوف يصبح عليك أن تدفع مبلغاً طائلاً فيما بعد ، فكل الإيصالات والتذاكر في جيبي! » .

« ومتى تعود إلى نابولي يا نبيل؟! » .

« عندما أنتهي من كل الإجراءات . . . إلى اللقاء! » .

كما يفعل الأمريكيون وأرباب الأعمال وضع السماعة دون أن ينتظر رداً من الرجل ، حاول من جديد أن يفك طلاسم تلك الأوراق التي امتلأ بها الملف فلم يستطع . . . طلب أنطونيللا ، فجاءته تسعى كي توضح له ما خفي عليه . . . كانت جادة كل الجد مستقيمة كل الاستقامة مؤدبة غاية الأدب . . . مضت ساعتان أنجزا فيها الكثير من العمل فأحس برغبة مفاجئة في مغادرة المكان :

« ألا أستطيع أن ألقي نظرة على بعض من تلك السيارات؟! » .

ابتسم في محاولة للتبسط قائلاً :

« تستطيعين أن تناديني نبيل! » .

التفتت إليه بسرعة وأطلقت عيناها نظرة كأنها لسان من نار ، قالت :

« ليس هنا . . . ليس في أوقات العمل! » .

هذا وجه آخر يتسلل إلى حياته فكيف حال مارشيللا وكيف غاب عنه أن يتحدث إليها أو حتى يسأل اسكالكو عنها ، استأذنته أنطونيللا لدقائق فاستغرق في أفكاره وكان أكثر ما أدهشه أنه تذكر « شيرلي هايمان » ؟ . . . كانت هي البداية ، فأين تكون النهاية ؟ . . . عندما غادر المبنى إلى الجراج قدمت له أنطونيللا سلسلة صغيرة بها مفتاح واحد ، تناولها منها متسائلاً :

« ما هذا ؟! » .

« إنها مفاتيح سيارتك التي ستستعملها طوال وجودك في روما! » .

قالت هذا وهي تدور حول سيارة أنيقة إيطالية الصنع ، دلف إلى السيارة

وجلست الفتاة إلى جواره . . . انتبه نبيل وهو يغادر الجراج بالسيارة إلى سطح الأرض إلى حقيقة غابت عنه وإن كان قد أحس بها . . . أن هذه الفتاة الجالسة إلى جواره في صمت تتصرف وكأنها تعرفه وتعرف ما يريد بالضبط ، بل تكاد تعرف كيف يفكر . . . راحت ترشده أثناء الطريق حتى وصل إلى ساحة هائلة في أطراف المدينة . . . ساحة رصت فيها مئات السيارات المستعملة والناس يسعون من حولها وفيما بينها وهم يسألون ويجوبون ويتناقشون ويفاصلون وتختلط كلماتهم لتصنع في المكان جواً خاصاً . . . استقبله المسؤول عن الساحة في حرارة واحترام ، لكنه عندما صافح أنطونيللا انحنى على يدها كي يقبلها ، فتساءل نبيل سالم : من تكون هذه الفتاة ؟!

قادته أنطونيللا إلى مجموعة من السيارات في أحد أركان الساحة ، سُوِّرت بسور من الحبال وكتب عليها أنها مباعة . . . كانت الصفقة مجزية إلى حد لا يصدق ، كان معني أن تتحقق صفقة بمثل هذه الأسعار أن سنيور اسكالكو سوف يكسب مبلغاً باهظاً . . . وجد نبيل نفسه يتساءل ، دون قصد منه . إن كان هذا هو الثمن الذي يدفعه الإسرائيليون للرجل كي يسمح لهم باستعماله واستعمال جراجه في نابولي ؟! . . .

أزاح الأفكار جانباً وهو يجري في عقله عملية حسابية عن نصيبه من الصفقة وكان المبلغ الذي سيجنيه فوق كل خيال . . . حان وقت الغداء فصحبته الفتاة إلى كافتيريا في نفس الساحة تناولا فيها الشطائر الإيطالية مع كأسين من النبيذ . . . طوال اليوم وحتى عودتهما إلى المكتب ، التزمت أنطونيللا بحدود الأدب ولم ترفع الكلفة لحظة . . . عندما انتهى يوم عمل كامل وهمّ بالانصراف ذكّرته بموعد العشاء مع البرتو . . . أسقط في يده فهو لم يسأل البرتو أين سيكون العشاء ومتى سيلتقيان ؟ . . . وكأن أنطونيللا قرأت أفكاره . . . قالت :

« سألت سنيور اجنازيو عن الموعد والمكان ، وكان رده أنه سيمر عليك في الفندق حوالي الساعة السابعة! » .

ودعها وقاد السيارة إلى الفندق وأخذ يستعد لتلك السهرة ، حلق ذقنه

وتحمم وارتدى أغلى بذلة عنده . . . في السابعة وعشر دقائق ، دق جرس التليفون وكان المتحدث البرتو من بهو الفندق . . . عندما التقيا كانت بصحبة البرتو غادة شديدة الجمال . . . ما أن وصلوا إلى ذلك المطعم ذي الطابع الخاص والذي يقوم عند سفح تل تكسوه الخضرة ، حتى سأله البرتو :

« أليست لك صديقة في روما؟! » .

أجاب نبيل بالنفي فصاح هذا مهرولاً :

« أنا آتيك بها! » .

بعد أقل من نصف ساعة ، انضمت إليهم أنطونيللا وكانت ترتدي فستاناً ذا لون شاحب فكأنها إحدى أميرات الرومان خرجت من التاريخ كي تصحبهم ليلة . . . كانت أنطونيللا التي جاءت في المساء إنساناً آخر . . كانت . . كانت سفينته التي أبحرت به إلى عالم فريد من نوعه ! .

في تلك الليلة عاش نبيل ساعات وكأنها حلم ، أكل وشرب ورقص ومرح وأحس أن البرتو هذا صديق قديم قدم العمر نفسه . . . ذات لحظة صاح من خلفه صوت أجش عريض كان يرحب بالبرتو الذي نهض إلى صاحب الصوت وكان رجلاً ضخم الجثة ضخم التقاطيع عالي الصوت ، قدم البرتو الرجل إلى نبيل قائلاً :

« سنيور جارديني ، واحد من أهم الصحفيين في إيطاليا! » .

صافح الرجل نبيل بحرارة وكان البرتو يقدمه للرجل بقوله :

« هذا سنيور جيزي ، صديق قديم فرعوني الأصل! » .

« مصري؟! » .

هكذا هتف الرجل وهو يقبض على يد نبيل وكأنه يتشبث به ، أجاب نبيل :

« نعم! » .

« هل لك علاقة بالصحافة؟! » .

كان السؤال مفاجئاً فتلعثم نبيل لثوان لكنه قال :

« ليست علاقة مباشرة على أي حال! » .

جلس جارديني إلى جواره ملتصقاً به ، راح ينفث دخان سيجارته الأمريكية في وجهه ، استأذن البرتو في كأس فقدمها له هذا ، قال لنبيل :

* * *

« إن لي صديقاً إنجليزياً أنشأ في روما وكالة جديدة للأنباء . . . وهو ليس ثرياً كما أن رأسماله محدود ، لكنه يريد مراسلين لمنطقة الشرق الأوسط! » .

« ولكني لست صحفياً! » .

« لقد قلت إن لك علاقة غير مباشرة ، فما كنه هذه العلاقة؟! » .

همّ نبيل بالرد لكن الرجل لاحقه :

« إستمع إليّ جيداً ، ان ادريان صديق عزيز . . . وهو. . . . . . » .

قاطعه نبيل :

« من هو ادريان هذا؟! » .

« إنه صحفي إنجليزي . . . ألم أخبرك الآن! » .

« وماذا أستطيع أن أفعل من أجله؟ » .

بدا على الرجل التذمر ، فنهض بعد أن ابتلع كأسه كاملة وهو يقول :

« إن كنت تعرف من يصلح لأن يكون مراسلاً له في مصر ، فلم لا تساعده؟! » .

قفزت سامية ـ بالقطع ـ إلى ذهن نبيل وكان الرجل يستطرد مشيراً إلى البرتو :

« إن هذا الشيطان الوسيم يعرف كيف يجدني . . . إلى اللقاء! » .

قال الرجل هذا ثم مضى . . . هم نبيل بسؤال البرتو ، لكن هذا كان قد نهض كي يراقص صديقته وكأن الأمر لا يعنيه في كثير أو قليل . . . التفت نحو أنطونيللا ، وكانت هذه تنظر إليه في عتاب صارخ . . . دعاها إلى الرقص فلبت الدعوة ، احتواها بين ذراعيه فكأنه يحتوي حلماً ، راح يخطو فوق أرض المرقص وكأنه يسبح فوق السحاب ! .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

بذور الشك

قالت لي سامية فهمي إنها - في تلك الأيام - اندفعت تجهز للسفر وكأنها تستعد للزفاف ، ارتبطت فكرة السفر في رأسها بداية بشراء السيارة . . . نعم . . . لكن الفكرة بعد مرور أيام كانت تختمر وتتوالد في ذهنها فإذا هي تكتشف أنها في شوق عارم لرؤية الدنيا خارج مصر . . . عادت لبعض الكتب فهالها أن إيطاليا زاخرة بما يمكن أن يزار ، أصبحت زيارة إيطاليا هدفاً من أهداف السفر حتى قالت لأمها ذات ليلة :

« أنا لازم أزور الأماكن دي يا ماما . . . مش ممكن أروح إيطاليا ولا أزورش الفاتيكان ، وبركان ڤيزوف وبيزا وبرجها المايل وفينسيا وكنوز الفن اللي هناك ! » .

كانت الساعة قد تعدت العاشرة وكانا قد تناولا طعام العشاء معاً لأول مرة منذ أيام طالت إلى أسابيع . . . أمام التليفزيون جلستا وقد تدثرت كل منهما بروب من الكستور ، أمام كل منهما كان كوب الشاي تتصاعد منه أبخرة بعثت بالدفء إلى جسديهما وإلى الجلسة معاً . . . كان من طبع السيدة إقبال حسين أنها إذا ناقشت أمراً ووصلت في المناقشة إلى نهاية ، سواء بالسلب أو الإيجاب ، ألا تعود مرة أخرى . . . غير أن سامية قالت فجأة :

« ماما . . . أنا عاوزة أتكلم ! » .

ضحكت يا سامية . . .

« إنتي عاوزة إذن ؟! » .

« أيوه ! ! » .

هكذا قالت سامية وهي تنهض إلى التليفزيون كي تغلقـه . . . عادت إلى مكانها كي تجلس القرفصاء إلى جوار أمها وكأنها عادت طفلة من جديـد . . . أدركت السيدة إقبال ما الذي كانت سامية ترمي إليه ، طافت بملامحها سحـابة من ضيق ، فلم تكن راغبة في مناقشة أمر علاقة ابنتها بنبيل سالم ، طردت عنها الضيق وابتسمت قائلة :

« عاوزة تقولي إيه؟! » .

« عاوزة أناقش فكرة السفر معاكي! » .

« ما إحنا ناقشناها؟! » .

« من زاوية واحدة! » .

« وهو فيه زاوية تانية؟! » .

وهكذا انطلقت سامية تتحدث عن رغبتها في رؤية تلك المعالم الفنية في إيطاليا ، هتفت أمها ذات لحظة :

« تفتكري نبيل حايسيب شغله علشان يوديكي الحتت دي كلها؟! » .

« ونبيل ماله يا ماما؟! » .

« أمال حاتجيبي فلوس منين؟! » .

« ما أنا مسافرة ومعايا فلوس! » .

« علشان تشتري بيها عربية! » .

« ما هو ده اللي أنا عاوزة أتكلم معاكي فيه! » .

هكذا اعتدلت السيدة إقبال حسين ملتفتة بكليتها نحو ابنتها .

« إتكلمي يا سامية! » .

« أولاً أنا مش حاسمح لنبيل انه يدفع لي قرش صاغ واحد لا في اللوكاندة ولا في الفسح ولا في تمن العربية! » .

« يابنتي لا [illegible] . . . . » .

« عارفة إن الفلوس اللي حاخدها يادوبك تجيب عربيـة أي كلام وتكفيني كام ليلة في لوكاندة درجة تالتة! » .

« يبقى مفيش قدامك غير إنك يا تشتري العربية . . . يا تتفسحي! » .

« إنتي إيه رأيك؟! » .

اجتاحت ملامح السيدة إقبال ابتسامة عبرت عن سعادة تفوق الوصف ، إنطلق من عينيها وهي تحتضن ابنتها بنظراتها ذلك البريق الذي اختفى طويلاً . . . قبل أن تجيب ، طافت بملامح سامية سحابة من هَمٍّ مكبوت ، اعتدلت في جلستها ، ومدت يدها إلى كوب الشاي قائلة :

« مش بس كده يا ماما . . . فيه حاجة تانية أهم من الفسحة! » .

« إيه هي؟! » .

« أنا لو رحت إيطاليا ، حاعرف نبيل عايش إزاي هناك! » .

توقفت لحظة وتطلعت إلى أمها بنظرة متوسلة .

« إسمعيني للآخر يا حضرة الناظرة أنا ماليش حد غيرك اتكلم معاه! » .

« قولي يا بنتي . . . قولي! » .

« نبيل لما جه هنا كان باين عليه مرتاح قوي . . . كان بيبعزق الفلوس ببساطة غريبة! » .

لزمت السيدة إقبال الصمت ، راحت تتطلع إلى ابنتها التي استطردت :

« هو كان مرتاح من بره . . . إنما من جوه؟ » .

قالت هذا ثم صمتت ، ولم تكن في حاجة إلى أن تكمل فقالت السيدة إقبال :

« أمر طبيعي! » .

« ليه؟! » .

« لأنه عايش في غربة ولأن الشغل في البلاد دي محتاج لحاجات كتير إحنا ما نعرفهاش! » .

« أهو أنا عاوزة أسافر علشان أعرفها! » .

« إنتي حاتسافري إمتى؟! » .

« الفيزا حاتطلع بكرة! » .
« ونويتي على السفر إمتى؟! » .
« مش عارفة يا ماما . . . مش عارفة! » .

قالت هذا وهي تميل برأسها نحو صدر أمها ، وكـان الصدر في استقبـالها بكل ما يملك من حنان !

* * *

انقضت خمسة أيام ونبيل يعمل بلا كلل توطدت علاقته بالبرتو كمـا كانت أنطونيللا هي ذراعه اليمنى . . . *سافر إلى تلك المدن التي كان من المفروض* أن يسافر إليها . . . عاين السيارات وشاهد الفنادق التي كان من المفروض أنه نزل فيها . . . كان يعمل ويعمل بحماس ونشاط وكأنه يهرب من واقعه إلى واقع صنعه لنفسه حتى استطاع أن يلم بالكثير من خفايا تجارة السيـارات المستعملة وخباياها . . . حتى إذا كان صباح دق جرس التليفون فوق مكتبـه وعندمـا رفع السماعة جاءه صوت أنطونيللا تقول :

« هناك من يدعى سنيور باروخ يريد التحدث إليك! » .

انقبض قلب نبيل بعنف وقد أعاد إليه اسم بـاروخ ذكرى أيـامه الأولى في إيطاليا ووجه ذلك الرجل الذي ظل يعتصـره لعشر سـاعات كـانت هي العذاب المقيم ، عندما حولت أنطونيللا الخط التليفوني إليه جاءه صوت أبي سليم :

« إزيك يا بلبل! » .

كان يعلم أن أبا سليم لا يحدثه إلا إذا كان هناك ما يدعو إلى ذلك ، ترك له قيادة الحديث حتى سأله الرجل إن كان قد ذاق البيتسا الإيطالية الأصلية، كـان السؤال غريباً لكن نبيل أدرك أن الرجل يريد أن يلتقي به . . . التقيا في المساء وصحبه الرجل إلى مطعم خارج المدينة بدا له وكأنه قصر صغير من تلك القصور الرومانية التي يرجع تاريخها إلى قرون مضت . . . كان المطعم منعزلاً في غابة صغيرة ، ما أن دلفا إليه حتى قوبلا بعاصفة إيطالية من التحيات أطلقها صـوت أجش لـرجـل ضخم الجثـة ضخم التقـاطيـع لا يكف عن تـدخين اللفـائف

الأمريكية ، كان الرجل هو السنيور جارديني الذي صافح نبيل بحرارة وكأنه صديق قديم ، وتلعثم نبيل وهو يرى نظرات أبي سليم تنطلق من عينيه كالشرر ، تهرب من الرجل أمسك بذراعه قائلاً :

« لقد أخبرت ادريان بالحديث الذي دار بيننا وهو في انتظار رد منك! » .

ما أن جلس نبيل إلى جوار أبي سليم حتى زمجر هذا من بين شفتيه :

« إيه الحكاية؟! » .

ألقت نظرات أبي سليم وصوته الرعب في قلب نبيل الذي قال :

« ده راجل قابلته وأنا باتعشى مع البرتو أول ليلة! » .

« وما قلتليش ليه؟! » .

« لأني ما شفتكش غير النهاردة يا أبو سليم! » .

بعد دقائق احتلت زجاجة من النبيذ الفاخر مكانها فوق المائدة وكان نبيل قد بدأ يقص على الرجل كل ما فعله وما صادفه وما مر به وما حدث طوال تلك الأيام التي انقضت . . . حتى إذا وصل إلى حديثه عن السنيور جارديني وما دار بينه وبين البرتو من حوار قال أبو سليم وعيناه تلمعان وكأن الفكرة فاجأته :

« والله فكرة! » .

« هي إيه اللي فكرة يا أبو سليم؟! » .

« انت مش بتقول إن سامية حاتيجي علشان تشتري عربية؟! » .

« ده اللي قالتهولي في مصر! » .

« خلاص . . . لما تيجي عرفها على جارديني أو ادريان ده وآهي تكسب لها قرشين كويسين! » .

هم نبيل بالحديث فاستطرد أبو سليم :

« وبدل ما تشتري عربية كهنة ، تشتري عربية عليها القيمة! » .

« طب إزاي أعرفها بيهم وأنا حابقى في نابولي؟! » .

« بسيطة! » .

« انت مش لك مكتب في الشركة هنا مع البرتو؟! » .

« أيوه! » .

« وسكرتيرة؟! » .

« أيوه! » .

هم أبو سليم بالحديث فلاحقه نبيل :

« أوعى تنسى ان ده كله مرهون بفترة وجودي في روما وأنا ما أعرفش سامية جاية إمتى!! » .

« ما هو سامية لو جت ، انت لازم تستقبلها في المطار!! » .

« تمام! » .

« وبعد ما تتم الصفقة ، حايبقى من حقك تطلب من اسكالكو إجازة كام يوم! » .

«وافرض ! » .

« خلص صفقة السيارات . . . إنما ما تسحبهاش كلها! » .

« يعني إيه؟! » .

« أكيد حاتلاقي كام سيارة عاوزين شوية تصليح أو إعادة نظر! » .

« ولما آجي روما ، أقدر أستعمل المكتب! » .

« والسكرتيرة كمان ، لأنه حايبقى عاوز يخلص منك! » .

أضاءت الفكرة في رأس نبيل تماماً ، راح ينظر إلى أبي سليم في دهشة وخوف معاً ، كان تفكير الرجل شيطانياً إلى حد يبعث على الذهول ، بدا لنبيل داهية يستطيع أن يطوع كل شيء وأي شيء لما يريد . . . جاءت فطائر البيتسا وهو مستغرق في حلم فرض نفسه عليه فرضاً ، تخيل سامية وهي تخطو إلى الشركة وتمر بأنطونيللا وتدلف إلى المكتب وترى البرتو . . . انتبه ذات لحظة فإذا أبو سليم قد انكب بكليته وراح يلتهم فطيرة البيتسا بشراهة وهو يحتسي النبيذ بين لقمة وأخرى وكأنه لم يأكل منذ أسابيع . . . أدرك أن كل شيء قد أصبح واضحاً أمام عينيه ليس في حاجة إلى تفسير أو إعمال فكر . . . أدرك أن كل ما حدث منذ وصل إلى إيطاليا كان مخططاً ، أحس ـ بشكل بدا له في البداية

غامضاً ـ أن هناك مخططاً دقيقاً ليس كل هؤلاء ـ حتى هو ـ سوى أدوات تسعى لتحقيق هذا المخطط . . . وأحس ، بل أيقن أن سامية لا بد آتية ، مثله ، إلى قدرها . . . فانتابته راحة عميقة ، زفر بعدها وهو يرشف من كأس النبيذ رشفة ، وقبل أن يبدأ طعامه ، قال أبو سليم وكأن الأمر مجرد شيء عارض :

« تعمل حسابك تسافر بكرة على نابولي! » .

هم نبيل بالاعتراض لكن الرجل أردف :

« اسكالكو بدأ يقلق! » .

فأطبق شفتيه ، فلقد كان مدركاً أنه الآن لا يملك سوى الطاعة العمياء !!!.

. . .   .

. . .   .

قالت سامية فهمي لعادل مكي إنها يوم أن ركبت الطائرة من القاهرة إلى روما لأول مرة ، كانت تشعر فعلاً بأنها تطير فوق السحاب ، لم يكن ذلك الإحساس وبعد ذلك الواقع الذي تراه بعينيها والطائرة ـ بالفعل ـ تخترق ركام السحب التي تلبدت بها سماء القاهرة إلى ما فوق السحاب ، ولا منظر السحب من الناحية الأخرى المواجهة للسماء الذي كانت تراه لأول مرة ، ولكنه إحساس آخر تماماً إحساس داخلي امتلأت به نفسها !

ففوق أنها كانت تغادر مصر لأول مرة في حياتها إلى الخارج ، إلى أوروبا ، ثم ذلك الإحساس الفياض الذي استجلبه خيالها وهي تتصور نبيل يقف في المطار في انتظارها كانت هناك تلك الخطط التي وضعتها لمشاهدة تلك المعالم التي طالما قرأت عنها ، وهذا الخليط الغريب من اللهفة والخوف والترقب والأمل ، كل هذا جعلها وكأنها بالفعل تسبح فوق السحاب . . . كانت سامية فهمي سعيدة بالرغم من كل ما كان ينتابها من شكوك راحت تردعها بعنف وتخفيها عن وعيها في أعمق أعماقها !!

وعندما أعلنت المضيفة عن قرب هبوط الطائرة في مطار روما ، كان قلب

سامية يخفق بعنف وهي تطل من النافذة على تلك المدينة العريقة من الجو !!

وعلى كل . . . فما كادت سامية تخرج إلى ساحة المطار الخارجية ، حتى وجدت نبيل هناك ، كان يبدو أنيقاً وسيماً باسماً مفتوح الذراعين ، وبالرغم من كل ذلك ، فلقد أجفل شيء في أعماقها . . . وهي لا تدري لم أجفلت بالتحديد ، كل ما استطاعت أن تصل إليه ، هو أنها - مرة أخرى - لم تجد نبيل الذي عرفته . . . كان هذا الذي يستقبلها يبدو وكأنه شاب آخر ، ربما كان شاباً إيطالياً ، أو مكسيكياً ، أو يونانياً . . . لكنه ليس مصرياً بأي شكل من الأشكال !!

وعندما رأت سامية في عينيَّ نظرات تتساءل قالت :

« مش الهدوم بس اللي كان لابسها على آخر موضة ، لكن . . . لكن تصرفاته ، وحركاته ، وحتى لغته وكلامه مع الناس ، مكانش فيها نبيل اللي أنا عرفته واللي أنا حبيته! » .

وعندما تحدثت إلى عادل مكي في هذا الأمر ، ابتسم وهو يقول إن تقديره الشخصي إن هذا الإحساس بالذات ، كان درعاً وقى سامية شر الغفلة ، وكان تفسيره البسيط والعميق في نفس الوقت هو :

« أصل سامية بنت مصرية ، مصرية قوي وهي لما أحبت ، أحبت شاب مصري زيها ، وكانت عايزة الشاب ده بالذات ، مكانتش عاوزة شاب طلياني بيصرف وبياكل ويشرب وبيتكلم زي الطلاينة! » .

صمت عادل مكي بعدها قليلاً وكانت ابتسامته لا تزال معلقة فوق شفتيه ثم أردف بعد قليل :

« وهي دي الغلطة الكبيرة اللي وقع فيها أبو سليم » .

ولم يزد حرفاً فوق ذلك !!!

* * *

كانت المدة التي غاب فيها نبيل سالم عن نابولي حوالي شهر ، ولكنها

كانت كافية تماماً لأن يعود إلى المدينة التي شهدت البدايات الأولى لنشاطه المعادي لوطنه ، والتي خَبَرَها وعرف شوارعها ودروبها وكون فيها صداقات وعلاقات . . . وكأنه تحول إلى إنسان آخر تماماً !

بداية . . .

كانت زيارته لمصر ، وإحساسه بأن أحداً لم ينتبه إليه ولم يعرف عنه شيئاً ، خاصة مع تشعب علاقاته وكثرتها مع المصريين الذين كانوا يفدون إلى نابولي لشراء سيارات ، قد أمدته بكم هائل من الإحساس بالأمان والثقة بالنفس . . . ثم كانت علاقته بالبرتو اجنازيو ، ذلك الشاب الذي كان يدير وكالة هائلة لبيع وشراء آلاف السيارات المستعملة ، قد أمدته بإحساس واثق بالندية ، ذلك أن البرتو لم يبخل عليه بالنصيحة أو ازجاء الخبرة ، مما جعله يخوض في أسرار تلك التجارة المعقدة والمركبة . . . كل هذا جعله يشعر بالفارق الكبير بين البرتو وبين سنيور اسكالكو ، مخدومه في نابولي ، والرجل الذي أعطاه الفرصة الأولى في إظهار مواهبه !

وإذا كانت مارشيللا ، تلك الفتاة التي بدت اللهفة في كل حركة من حركاتها وسكنة من سكناتها ، قد أبدت مع اللهفة حباً وغيرة اشتعلت في صدرها ، فراحت مع العتاب تضيق عليه الخناق ، وتسأله عما فعل في روما ، ومن عرف من الفتيات ومن صادق منهن . . . إذا كانت مارشيللا قد فعلت هذا ، فلقد أمده ذلك أيضاً بإحساس متعاظم بالثقة جعله يشعر أنه يخطو لأول مرة في حياته ، فوق أرض صلبة ، وأنه قادر على اكتساب القلوب وإبهار الآخرين !

عاد نبيل سالم إلى نابولي كي يجد لهفة من الجميع على عودته ، لهفة من اسكالكو ومارشيللا والموظفين والسماسرة والمصريين الذين انتظروه طويلا والذين عقدوا معه صداقات والوافدين بحثاً عن سيارة . . . غير أن أكثر الجميع تعبيراً عن تلك اللهفة ، كان السنيور اسكالكو الذي استقبله بترحاب عاصف واحترام بالغ وهو يمطره بعشرات الأسئلة عن الصفقة والسيارات وعددها وما تم

وما حدث والأثمان وموعد شحن الدفعة الأولى . . .

غمغم نبيل :

« **لقد كانت الرحلة شاقة بكل المعاني** » .

رد اسكالكو واضعاً نظراته في عيني الشاب الجالس أمامه :

« **إن أصدقائك من المصريين كانوا متلهفين على عودتك . . . إن الكثيرين ممن جاءوا عن طريق البحر ، أحجموا عن الشراء إلى حين عودتك!!** » .

قال نبيل وثقته بنفسه تتزايد :

« **وها أنا قد عدت سنيور اسكالكو!** » .

رد الرجل وكأنه يمنحه وساماً :

« **تستطيع أن تناديني جيوفاني!** » .

وهكذا . . . وعندما كان نبيل سالم يجلس إلى أبي سليم بعد يومين في مسكنه ذاك المتواضع الذي كان لا يزال يشغله ، كان يتيه فخراً وسعادة بما أحرزه من نجاح هنا وهناك . . . راح يقص على الرجل كل ما حدث منذ أن وصل إلى نابولي ، وفيما هو مستغرق في الحديث عن انتصاراته المتتالية ، فاجأه الرجل وكأنه يرده إلى حيث يجب أن يكون :

« **تحاسبت مع اسكالكو ولا لسة؟!** » .

هتف نبيل :

« **طبعاً . . . وبصراحة الرجل اداني حقي على داير ليرة!** » .

« **أخذت كام!!** » .

كان السؤال طبيعياً من أبي سليم ، لكن الأسلوب الذي ألقاه به ، جعل نبيل يجفل لثوان وهو يتلقى نظرات تلكما العينين النفاذتين اللتين انطلقت منهما تلك النظرات التي جعلته يهتف :

« **إيه الحكاية يابو سليم؟!** » .

لم يجب أبو سليم ، فقط ، راح يرمي نبيل بتلك النظرة التي جعلته كمن يتلوى ألماً . . . كانت نظرة ترد كل شيء إلى أصله ، وتعيد كل شيء إلى

نصابه . . . وإذا نبيل في لحظة تعيسة يدرك أن قيمة كل ما أحرز من نجاح ، مرتبطة برضاء أبي سليم وموافقته . . . كان المبلغ الذي حصل عليه نبيل ضخماً بكل المعاني ، وكان جيوفاني اسكالكو قد قدم له شيكاً لم يصرفه نبيل بأكمله ، بل فتح به حساباً في نفس البنك الذي صدر إليه الشيك . . . ولقد رضخ نبيل وهو يذكر كل شيء لأبي سليم ، فإذا الرجل يقول :

« مش ناوي تسدد حاجة من اللي عليك؟! » .

قفز نبيل من مكانه صارخاً :

« بقى ده معقول يا بو سليم؟! » .

« إيه هو اللي مش معقول؟! » .

« والشغل اللي أنا عملته في مصر . . . والأسامي اللي أنا محضرها لك عن المصريين اللي هنا؟! » .

« على عيني وراسي ، بس أنت ناسي حاجة مهمة قوي! » .

« إيه هي؟! » .

وبقدر ما كان نبيل متوتراً منفعلاً ، كان أبو سليم هادئاً هدوءاً خافت الصوت يرسل إلى الفتى نظرات كانت شديدة الوطء على نفسه ، مرت لحظات بدت مثل دهور ، وكان نبيل يشعر وكأن عشرات الأطنان تقيده إلى واقع شديد البشاعة ، تكشفت له الحقيقة بأنيابها تسخر منه . فإذا هو أمام لا نجاح حاول أن يخدع نفسه به . . . قال أبو سليم وهو يشعل سيجارة :

« انت عارف انت فاضل عليك كام مارك؟! » .

« مهما كان! » .

« لسة فاضل مبلغ كبير! » .

« يعني إيه يا بو سليم؟! » .

ولدهشته البالغة ، شعر نبيل سالم في داخله بذلك الانهيار الغريب والمهين يقتحم كل ما بنى من ثقة في نفسه كي يهدمها ، أحس أنه لم يملك شيئاً حيال حياته ومستقبله ، وأنه مقيد إلى هذا الرجل الشيطاني التفكير . . . وجد نفسه

يعود إلى مقعده وقد تبدد انفعاله وهو يقول كمن يتوسل :

« خلي مكسبي من العـــربيـــات لي يـــا بـــو سليم ، واخصم الـــدين من الشغل! » .

في بساطة مذهلة ، قال أبو سليم :

« براحتك!! » .

هكذا انتهى الأمر ، وهكذا تنفس نبيل الصعداء ، لكنه أدرك بعد لحظات شـديدة القصـر ، إنه وقـع في فـخ رهيب ، وخبيث . . . وأن عليـه أن يخـون ويخون ويخون . . . بلا مقابل سوى الهوان !! .

* * *

كان نبيل يقف في مطار روما في انتظار سامية فهمي ، وهو موقن أشد مـا يكون اليقين ، بأن أبا سليم هناك ، في مكان ما من المطار ، يربض كالثعلب ويرقب ما يحدث . . . وهو لم يكن يدري لِمَ انتابه ذلك الإحساس ، ربما لأن أبا سليم ، في الليلة السابقة ، كان قد دعاه إلى العشـاء ـ شأنـه كلما أراد منـه القيام بمهمة خاصة ـ وراح يثرثر معه كالعادة ملقياً إليه آخر تعليمـاته التي كـان يقولها وكأنها جاءته عفو الخاطر . . . لكنه في تلك الليلة بـالذات ـ هكـذا قال نبيل فيما بعد ـ لم يستطع التظاهر باللامبالاة طويلاً ، أو بأن الأفكـار تأتيـه عفو الخـاطـر . . . بـل راح يلح ، وفي وضـوح أدهش نبيـل وكشف عن اهتمـامـه البالغ ، على ضرورة اتباع تعليماته بدقة متناهية !

كان على نبيل أن يرحب بسامية ترحيباً يبث في نفسها السعـادة ، وأن يمد لها في حبال الأمل كيفما أراد دون أن يرتبط معها بموعد أو كلمة ، وكان عليه أن يحقق لها كل رغباتها وأن يدفعها إلى أن تطلب أكثر ، وأن يصحبهـا في جولـة تشمـل كل معـالم روما القـديمة والحـديثة معـاً وأن . . وأن . . . مما اضطر نبيل إلى مقاطعته قائلاً :

« حيلك يا بو سليم! » .

« إيه ما لك؟! » .

« الفلوس اللي مع سامية مش ممكن تقضي الحاجات دي كلها! » .
« وانت رحت فين؟! » .
« ما أنا قلت لك قبل كده إن سامية ما تحبش حد يدفع لها قرش! » .
« طب وماله! » .

« ومالو إزاي . . . دي جاية تشتري عربية ، وأكيد الفلوس اللي معاها يا دوبك تغطي ثمن العربية وأجرة اللوكاندة! » .
« وهي حاتشتري العربية يوم ما توصل؟! » .
« لا طبعاً! » .
« خلاص . . . على ما تلاقي العربية المناسبة ، لازم تفسحها! » .
همّ نبيل بالحديث لكن أبي سليم استطرد في لهجة أمره :
« ولازم تنزلها في لوكاندة عليها القيمة! » .
هنا هتف نبيل محتجاً !
« لحد هنا أنا مش فاهمك! » .

بوضوح صارخ ولهجة جافة ونبرة حادة قال أبو سليم وكأنه يضع كل النقاط فوق كل الحروف :
« لأنك مش عاوز تفهم . . . ولا عاوز تتعلم » .

* * *

الفَصل الخامِس والعُشرُون

لحظات بين عينيه !

عاد إلى نبيل ذلك الإحساس المرير بالضعة أمام الرجل ، فتراجع انفعاله وهو يقول :

« طب فهمني يا بو سليم! » .

« لو فلوس سامية خلصت قبل ما تشتري العربية ، حاتجيب فلوس منين؟! » .

« وهي تعرف حد غيري في إيطاليا؟! » .

« طب ما تقول لنفسك! » .

كانت ملامح نبيل تبدو الآن مبعثرة فيما بين آلاف المشاعر والأحاسيس التي راحت تحتدم في صدره لحظة بعد أخرى ، وكل شيء يتكشف له فجأة وكأن ضوء ألف شمس قد سلط عليه . . . جاءه الآن صوت أبي سليم وكأنه يأتي من أغوار سحيقة ، صوت عميق شرير بكل ما تحمل الكلمة من معنى :

« وفي الحالة دي ، حاتفضل انت البطل بتاعها على طول! » .

لم يكن هناك ما هو أحب إلى نبيل من هذا ، لكنه ، وقد اكتسب بعضاً من شر أبي سليم ، واجه الرجل وكأنه يعود إلى الحياة بعد أن شارف على الموت :

« خلاصة القول أنت عاوز سامية فهمي بأي ثمن! » .

أطلقت عينا أبي سليم تلك النظرة المخيفة لكن نبيل استطرد غير مبال :

« وأنا بالطبع معنديش مانع . . . بس اللي أوله شرط ، آخره نور!! » .

« قصدك إيه يا نبيل؟! » .

« قصدي إني سافرت مصر وعملت لكم شغل كويس وجبت معايا معلومات مهمة و . . و . . . » .

قاطعه أبو سليم وقد عادت إلى شفتيه ـ لدهشة نبيل ـ ابتسامته الواسعة :

« مانا قلت لك! » .

« قلت لي لما تيجي سامية ، وأهي سامية جاية أهيه! » .

« طب انت عاوز إيه دلوقت؟! » .

« عاوز حقي يتخصم من الدين اللي عليّ! » .

قبل أن يرد أبو سليم ، هتف نبيل مردفاً :

« وعايز حقي المرة دي على قد الشغل اللي أنا عملته!! » .

. . .   .

. . .   .

قال لي عادل مكي وهو يتحدث عن تلك المرحلة . . . إن نبيل سالم كان قد بدأ يفهم ألاعيب أبي سليم ، وكان أبو سليم ـ بالتالي ـ مدركاً لهذا كما كان مستعداً له . . . ففي الوقت الذي ظن نبيل أنه يصارع أبا سليم وينتصر عليه ، لم يكن يدرك أن هذا بالضبط ما كان يبغيه أبو سليم . . . أن يعلن نبيل عمالته له في وضوح ودون لف أو دوران ، ولقد وقع نبيل في الفخ ، وسار بنفسه إلى المصيدة التي نصبها له الرجل . . . ومنذ تلك اللحظة ، أصبح للعلاقة بينهما شكل جديد ، شكل كان نبيل يتعامل فيه مع ضابط المخابرات الإسرائيلي كعميل محترف ، واضح العمالة . . . وكان هذا بالقطع في حاجة إلى نوع آخر من المعاملة . . . وأسلوب جديد في السيطرة !!

*   *   *

بالرغم من ذلك الإحساس الواضح الذي انتاب سامية فهمي تجاه نبيل سالم منذ اللحظة الأولى للقائها به في مطار روما ، ذلك الإحساس الغامر بأن

هذا الشاب المتألق ليس هو شابها المصري الذي أحبته ، إلا أنها عاشت الأيام الثلاثة الأولى في روما ، أجمل أيام عمرها على الإطلاق !

ومنذ التقيا في المطار نشبت في صدرها معركة ضارية بين إحساسها هذا الغريب والوافد ، وبين حبها الذي كان يقاوم كل محاولة منها لعزله عما يحيطه من أحداث أو ظواهر ، أو وضعه في الإطار الصحيح . . . وهي ، ما أن ركبت إلى جوار نبيل في تلك السيارة الأنيقة التي خصصها له البرتو اجنازيو مدير وكالة السيارات ، حتى عبّرت عن هذا الإحساس هاتفة في مرح :

« **إيه الشياكة دي كلها أيها الشاب؟!** » .

« **شياكة إيه بس يا سامية؟!** » .

« **مش الهدوم بس يا فتى . . العربية كمان!** » .

« **دي حاجة عادية جداً بالنسبة لأي واحد بيشتغل هنا!!** » .

كانت الجملة موحية بقدر كاف ، ورغم بساطتها البادية ، كان لا بد لها أن تدفع سامية ، أو من يستمع إليها إن كان من مصر ، إلى المقارنة بين هذا الذي يعيشه شاب مثل نبيل في روما ، وبين أمثاله الذين يعيشون في مصر ، وتصبح أعظم أحلامهم هي السفر إلى الخارج لشراء مجرد سيارة مستعملة وبشق الأنفس . . . لم تكن سامية فهمي بطبيعة الحال تعرف أن نبيل سالم كان بجملته تلك يخطو خطوته الأولى في ذلك المخطط الجهنمي الذي وضعه له أبو سليم للإيقاع بها في براثنة . . . وعلى كل ، فمع فتاة مثل سامية ، كان لا بد للحوار أن يستمر طوال الطريق من المطار إلى المدينة . وكان لا بد لسامية أن تشرح وتحلل وتقارن وتتحدث عن أقدار الشعوب . . . حتى قال نبيل في لحظة :

« **يظهر انك اتعودتي على اشتراكية الفقر بتاعة جمال عبد الناصر!** » .

التفتت نحوه في عنف وهي تهتف محذرة منذرة !

« **نبيل!!** » .

كان نبيل متوقعاً رد الفعل هذا ، ولذلك فلقد ضحك تلك الضحكة التي

تعودتها منه كلما أراد مداعبتها ، في تلك الليلة أوصلها إلى ذلك الفندق الصغير الشديد الأناقة المنزوي في أحد شوارع روما الجانبية ، فكأنه فندق من نوع خاص . . .

« . . . . كان هذا فندقاً من نوع خاص بالفعل ، كانت صاحبته إسرائيلية تتحدث العربية في طلاقة ، لكن سامية لم تعرف ذلك بطبيعة الحال ، وكانت الموساد ، في أحيان قليلة جداً ، وخاصة جداً ، تستعمله لاستضافة هؤلاء الذين تريد أن تتعامل معهم معاملة من نوع خاص أيضاً ! ! » .

دعاها نبيل إلى العشاء فإذا هي تحيا معه حبها خالصاً . . . في تلك الليلة ، لم يعد نبيل إلى الحديث في السياسة ، وطوال اليومين التاليين حملها على أجنحة الحب إلى كل ما أرادت أن تشاهده في روما ، من الكولسيوم إلى الفاتيكان إلى النافورة حيث ألقت بقطعة برونزية من العملة وهي تتمنى النصر لمصر ، هامت سامية في ثنايا تاريخ إيطاليا الحافل ، وقفت أمام كنوز الفاتيكان مبهورة ، تذكرت جاليلو جاليلي الذي حكموا عليه بالموت حرقاً عندما قال بدَوَرَان الأرض حول الشمس ، في الكولسيوم دمعت عيناها فسخر منها نبيل ، ذكّرته بشهداء المسيحية الأوائل الذين ذهبوا طعاماً للسباع ، في تلك الليلة ، ولفرط انفعالها ، أسَرّت إلى نبيل بأحلامها في زيارة فلورنس وبيزا وفينيسيا ساحرة الأدرياتيك ، فرش لها نبيل الأرض بالورد ، وطوال ثلاثة أيام لم يكن له من عمل سواها ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة بعد وصولها طلب منها أن ترتدي أجمل ما تملك من ملابس . . . هتفت به متسائلة :

« إشمعنى؟! » .

« لأن النهاردة آخر يوم في إجازتي ، وأنا عازمك على العشا قبل ما أرجع للطاحونة اللي باشتغل فيها!! » .

كان نبيل بقوله هذا ينفذ تعليمات أبي سليم في دقة . . . لكنه لم يكن يدري أنه كان أيضاً يجيب عن أسئلة طالما داعبت رأس سامية وحيرتها في نفس الوقت . . . كانت تعلم أنه يعمل في نابولي ، وكان بقاؤه معها في روما ، أو

بقاؤهما معاً فيها ، وتفرغه الكامل لها ومصاحبته إياها من الصباح حتى المساء ، من شأنه أن يثير دهشتها وتساؤلاتها التي راحت تتراكم في رأسها وتغذي شكوكها تلك الغامضة والمحيرة . . . فسألته :

« **هو انت كنت في إجازة؟!** » .

« **أمال كنت حافسحك إزاي؟!** » .

« **ده انت لسة جاي من إجازة في مصر أسبوعين!** » .

« **معلش . . . أصل هنا كله بثمنه يا سامية!** » .

أحست بالذنب فقالت :

« **أنا عطلتك عن شغلك يا حبيبي؟!** » .

ولم يجب نبيل ، لكنه أعطاها عنوان البناية التي تشغل وكالة السيارات واحداً من طوابقها ، كما أعطاها أرقام التليفونات ، وشرح لها كيفية الوصول من فندقها إلى مكتبه . . . ثم طلب منها أن تزوره في الثانية عشرة ظهراً كي يتناولا طعام الغداء معاً !

ظلت سامية صامتة وهي تحملق فيه وقد اضطربت اضطراباً شديداً ، عادت الشكوك تعصف بها وكانت ترى أنه لا مبرر لها . . . سألها نبيل وقد أدهشه سهومها :

« **ما لك يا سامية!** » .

« **عاوزة أسألك سؤال محيرني!** » .

« **إتفضلي!** » .

« **اللي أنا أعرفه انك بتشتغل في نابولي . . . ودلوقت انت بتفاجأني بأنك بتشتغل هنا!** » .

كان نبيل ينظر إليها باسماً ، همس منفعلاً بالفعل :

« **انتي قلقانة عليَّ يا سامية ؟!** » .

« **قوي يا نبيل!** » .

« **طب انتي عاوزة تعرفي إيه؟!** » .

« عاوزة أعرف أنت بتشتغل هنا والا في نابولي؟! » .

أطلق نبيل ضحكة صاخبة مرحة وهو يقص عليها قصة صفقة السيارات التي اضطر إلى البقاء في روما بعد عودته مصر كي يبرمها ، وكيف نجح وكيف أبرمها بالفعل وكيف اكتشف أن هناك بعض التفاصيل الخاصة بعدد من السيارات اضطرته للعودة إلى روما من جديد ، كانت القصة محكمة كما كانت مقنعة لسامية . . . لكنها بالنسبة لنبيل بدت له عبقرية وهو يتذكر هذا الذي دفعه إليه أبو سليم دفعاً ، كي يأتي كل شيء متقناً لا ثغرة فيه . . . ولقد كانت سامية الآن منفعلة حقاً ، تشعر بالذنب تجاه شكوكها هذه المتتالية ، في حنان مدت يدها كي تمسك بيد نبيل وهي تهمس وكان قلبها قد تربع على شفتيها :

« أنا باحبك قوي يا نبيل!! » .

. . .   .

. . .   .

كانت سامية فهمي سعيدة حقاً بهذا الذي قاله نبيل ، والذي بدد شكوكها وقلقها وبعث بالطمأنينة إلى نفسها . . . وهي ـ عندما تحدثت في هذا الأمر ـ لم تكن تشك في ولائه لوطنه أو إخلاصه له ، بل ان هذا الأمر لم يخطر ببالها لحظة واحدة ، هي . . . هي كانت تخشى أن يكذب عليها أو أن يكون مرتبطاً بعمل مشين من تلك الأعمال التي مارسها الكثيرون ممن هاجروا إلى الخارج وقبلوا أن يكونوا خدماً عند الأجانب ، ورفضوا أن يعيشوا في بلادهم أسياداً . . . كانت سامية فهمي سعيدة مقتنعة بما قاله نبيل ، لكنها أيضاً كانت سعيدة لأنها سوف تتخلص منه أخيراً بعد أن عاشت تحت جناحه لثلاثة أيام شعرت فيها وكأنها طفل يتعلم المشي . . . عندما التقيا في المساء كانت جميلة ذلك الجمال الذي ينمى عن عقل صاحبته . . . صحبها في سيارته إلى واحد من تلك المطاعم الفاخرة التي لم تحلم يوماً بارتيادها ، صارحته بسعادتها لأنها سوف تتخلص منه منذ الغد وهما يحتلان مكانيهما حول مائدة صغيرة في ركن من المحل . . . ضحك نبيل وهو يقول لها إنها منذ الغد تستطيع أن تفعل ما تشاء ، لأنه يظل مشغولاً في

عمله طوال اليوم وفي بعض الأحيان تمتد ساعات العمل إلى وقت متأخر من الليل إذا كان هناك عملاء من مدن بعيدة . . . قال لها إنه قد يضطر في الأيام القادمة ، وحسب سير المفاوضات بالنسبة لصفقة السيارات ، أن يسافر إلى إحدى المدن البعيدة وقد يغيب فيها يوماً أو يومين . . قالت سامية وقد أحست بالقلق :

« أمال أشوفك إزاي يا نبيل؟! » .

« إلا تشوفيني إزاي . . . هو مفيش تليفونات في روما ، والا انتي فاكرة إن التليفونات هنا بتعطل زي مصر؟! » .

عاد من جديد يضغط على ما لا تحب أن تسمع فغاضبته :

« وبعدين معاك؟! » .

أجابها بابتسامة ساخرة فمالت نحوه وقالت له عبر المائدة :

« إنت نسيت إنك مصري؟! » .

هرب من الموضوع ببراعة إلى الحديث عما ظنت أنه نسيه تماماً . . . قال :

« ما تنسيش اننا بكرة حاناقش موضوع عربيتك وانتي عندي في المكتب! » .

« تو ما افتكرت ! » .

« كل شيء في وقته يا سامية! » .

« لاحظ أني عاوزة عربية على قد حالي ، مش سراية زي اللي انت راكبها!! » .

ما كاد يفتحِ فمه بالحديث حتى دوت في المكان صيحة رجل ثقيل اللسان :

« ها أنت أخيراً أيها الشيطان المصري الماكر ! » .

التفتت سامية إلى حيث رأت صاحب الصوت .

كان رجلاً ضخم الجثة هائل التقاطيع عريض الصوت أجشه . . . وكان يدخن كقطار ، ويترنح وكأنه شرب أطناناً من الخمر . . . وكان يقبل على نبيل الذي قدمه لها بالعربية قائلاً :

« سنيور جارديني ، واحد من أكبر الصحفيين والمعلقين السياسيين في روما! » .

مال جارديني نحو نبيل حتى كاد أن يلتصق به وهو يشير إلى سامية :

« ماذا قلت لهذه الحسناء عني . . . وبأية لغة تحدثت معها! » .

ابتسم نبيل وهو يقدم له سامية بالإيطالية :

« سنيوريتا فهمي . . . سامية فهمي ، صحفية مصرية ! » .

وكانت المفاجأة التي أدهشت سامية ، وأسعدتها لدقائق ، أن الرجل أمسك بتلابيب نبيل مداعباً وهو يصيح بالإنجليزية :

« ألم أطلب منك مندوباً بوكالة ادريان توسون : الشرق الأوسط؟! » .

ضحك نبيل ، كما ضحك جارديني وهو يلتفت نحو سامية منحنياً متحدثاً بإنجليزية طلقة :

« آنستي . . . إغفري لي تطفلي ولكن صديقك هذا يَعِدُ ولا يفي بوعوده! » .

« ألا تجلس معنا قليلاً بدل هذا الضجيج الذي يلفت الأنظار؟! » .

هكذا طلب نبيل من الرجل الذي سرعان ما سحب مقعداً جلس عليه إلى جوار سامية وهو يقول بصوته المتلعثم :

« هل تتصورين أنني في انتظارك منذ وصول نبيل من مصر؟! » .

ابتسمت سامية ، ابتسمت بالرغم من ذلك الخوف الذي انتابها فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تجلس فيها إلى رجل مخمور إلى هذا الحد ، نظرت إلى نبيل مستفسرة فقال هذا :

« أحب أقول لك إن جارديني ده واحد من أهم الصحفيين الطلاينة دا الكاتب الأول لجرنال اسمه « لاريبوبليكا » ، ده جرنال يساري . . . يعني شيوعي زيك! » .

وكانت تلك خطوة أخرى في طريق سارت فيه سامية حتى أدمت قلبها !!

في كثير من الأحيان ، تصبح مواجهة النفس بالحقيقة هي مفتاح الأمان لأي إنسان يقدم على شيء خطير أو غامض ، كي ينجلي الغموض وتنقشع سحب الخطورة . . . ولقد كانت سامية فهمي في تلك الليلة ، رغم تصرفات جارديني ، سعيدة بذلك العرض الذي يفتح لها آفاقاً لم تحلم بها في يوم من الأيام . . . هكذا واجهت سامية نفسها بوضوح بالرغم من كل ما حدث ، وبالرغم من إحساسها نحو جارديني هذا الذي كان ينفث رائحة الخمر في وجهها قائلاً :

« لي صديق إنجليزي هو ادريان تومسون ، افتتح وكالة للأنباء هنا في روما . . . وهو في حاجة إلى مندوب لوكالته في الشرق الأوسط ، في مصر بالتحديد! » .

قال الرجل هذا ثم توقف ريثما يجذب من سيجارته أنفاساً شرهة ، فإذا وجهه تحيطه سحابة كثيفة من دخان رديء الرائحة . . . عاد إلى حديثه وهو يشير إلى نبيل :

« ولأن هذا الشيطان المصري الفاتن صديق قديم لي ، فلقد لجأت إليه . . . فوعدني بمساعدتي في هذا الأمر! » .

صاح نبيل محتجاً :

« ولكن سنيوريتا فهمي لم تصل إلى روما إلا منذ يومين فقط سنيور جارديني!! » .

لم يلق الرجل بالاً إلى ما قاله نبيل ، ولقد أحست سامية لوهلة وَمَضَتْ في

إحساسها وذهنها معاً ، أن الرجل الذي يجلس أمامهما ليس سكراناً لكنه يحاول أن يتظاهر بالسكر . . . ذلك أنه عندما عاد إلى الحديث مرة أخرى ، برقت عيناه ببريق غريب ، قال :

« أنت تعرفين ما الذي يعانيه الشباب إذا ما فكروا في إنشاء مشروع جديد في أرض مليئة بالديناصورات . . . ان أدريان لا يملك الكثير من المال ، لكنه سوف يملكه قريباً ، فهو صحفي حتى أعماقه . . . وهو في حاجة لمن يغطي له هذه المنطقة الملتهبة من العالم . . . إن الصحف كما تعرفين تتلهف لمعرفة أخبار الشرق الأوسط هذه الأيام ، فهل تقبلين العمل معه؟! » .

قالت سامية وكل خلجة في وجهها تشي بفرحتها :

« ليس قبل أن ألتقي به وأعرف بالضبط كيف يريد التعامل! » .

« ما رأيك في أن نلتقي به غداً؟! » .

أحست سامية بالارتباك فالتفتت نحو نبيل مستنجدة ، لكنه لم يجبها بأكثر من ابتسامة ارتسمت على شفتيه بلا معنى . . عادت بنظراتها إلى الرجل الذي هتف :

« ما رأيك . . . غداً . . . هه؟! » .

« نبيل! » .

هكذا هتفت ، فقال نبيل محدثاً جارديني :

« هل تعرف مقهى بالبو؟! » .

« ومن لا يعرف هذا المقهى في روما؟! » .

« إذن فليكن موعدنا في الثانية عشرة والنصف ظهراً هناك! » .

كان نبيل يتحدث إلى الرجل في ثقة صاحب القرار ، لذلك . . . فلقد نهض جارديني وهو ينحني أمام سامية في أدب استخفت به في أعماقها ، وكان يقول :

« أؤكد لك يا آنستي أنك لن تندمي على التعاون مع ادريان . . . إنه صحفي ممتاز!! » .

ألقى عليها التحية وانصرف . . . مالت سامية نحو نبيل متسائلة :

« إيه الحكاية يا نبيل؟! » .

« الحكاية هي اللي قالها لك كده بالضبط! » .

« وما قلتليش ليه؟! » .

ضحك نبيل ضحكة خفيفة وكأنه يعلن عن حرج وقع فيه دون قصد ، أجاب :

« بصراحة أنا كنت فاكر المسألة كلام سُكْر!! » .

« على كلٍّ إحنا فيها يا سامية! » .

« مش ده المهم يا نبيل! » .

في استنكار صاح نبيل :

« ليه بقى . . . إذا كان فيه رزق ربنا باعتهولك ، ليه ترفضيه؟! » .

« أنا ما رفضتش! » .

« طب انتي عاوزة إيه دلوقت؟! » .

نظرت في عينيه فهرب بهما منها ، مالت عليه متسائلة :

« انت مش عاوزني أشتغل معاه؟! » .

« أنا؟! » .

هكذا هتف ، فعاجلته :

« أنا عاوزة أعرف رأيك في الموضوع! » .

« رأيي إن دي فرصة تبقي عبيطة لو سبتيها تفلت من إيدك! » .

بدا على وجهها الارتياح ، وتمتم نبيل محذراً :

« بس ما تخليهوش يضحك عليكي! » .

« قصدك إيه؟! » .

« الناس دي بتدفع كويس ، ولازم يدفعولك كويس ، بأسعار هنا مش بأسعار مصر! » .

« أنا زعلانة منك! » .

« ليه تاني؟! » .

« لأنك سبت الراجل ده يتصرف معايا بالشكل الهمجي اللي اتصرف بيه من غير ما توقفه عند حده! » .

« همجي؟! » . انت

« طبعاً همجي ، انت ما شفتش كان شارب إزاي ويتصرف إزاي؟! » .

« الراجل ما عملش حاجة غلط! » .

« ده كان حايقع علي وهو واقف! » .

« لاحظي إن الشرب هنا مش عيب ، كل الناس هنا بتشرب! » .

« أنا ماليش دعوة بهم ، يشرب زي ما هو عاوز . . . إنما . . . . » .

قاطعها نبيل متأففاً :

« سامية . . . لاحظي إنك مش في مصر! » .

كشرت عن أنيابها :

« مالها مصر يا نبيل؟! » . . .

مد ذراعيه أمامه كمن يدفع عن نفسه هجمة شرسة ، وهو يقول ضاحكاً ملطفاً من حدة الموقف :

« ولا حاجة ، غلطة لسان ، مش قصدي . . . حقك عليّ! » .

وكان الساقي ، قد بدأ يجهز المائدة ، للعشاء المنتظر !! .

* * *

الفَصل السَادس وَالعُشرُون

أدريان تومسون !

لا بد لنا من الاعتراف بأن أبا سليم قد خطط لاصطياد سامية فهمي وإيقاعها في براثنة بصبر وأناة وذكاء لا سبيل إلى إنكاره . . . وأن محاولات جادة كانت قد بذلت لتحليل شخصية تلك الفتاة ـ سواء من خلال كتاباتها في المجلة ، أو خطاباتها إلى نبيل ـ لمعرفة خباياها ونقاط ضعفها على وجه التحديد . . . ذلك أن سامية ، منذ أن وطئت قدماها مدخل تلك البناية الشاهقة في قلب روما ، واحتوتها تلك الضخامة ، راحت تتداخل في أعماقها وتتضاءل وهي تتلفت حولها في ذهول دون أن تملك نفسها من المقارنة بين مباني القاهرة وعماراتها ، وبين تلك البنايات الحديثة التي كانت وكأنها تنبىء عن عصر جديد وعالم آخر غير هذا الذي تنتمي إليه !!

لم تملك سامية فهمي نفسها من المقارنة بين كل شيء هنا وهناك ، قارنت بين جمالها وجمال مارشيللا ، بين ملابسها وملابس مارشيللا ، بين حدتها في الحديث ورقة تلك الفتاة الإيطالية الممشوقة القوام ذات الخطوات الإيقاعية وكأنها تسير راقصة . . . كما قارنت سامية فهمي بين مكتب أحمد مختار ، رئيس التحرير ، ومكتب نبيل الفاخر هذا الذي كان يطل من الدور الثالث والعشرين على العاصمة الإيطالية !

حتى إذا ما اقتحم البرتو اجنازيو الغرفة كالأعصار ، ورحب بها ذلك الترحيب الذي اختلطت فيه الرقة بالغزل ، ثم انحنى كي يلثم أطراف أناملها . . . أصابها الدوار بالفعل ، وراحت تردد النظرات فيما بين البرتو ونبيل

وكأنها تستغيث بحبيبها كي ينتشلها مما هي فيه . . . غير أن الشابين كانا قد انهمكا في حديث مرح بالإيطالية فلم تفهم مما كانا يقولانه شيئاً . . . اجتذبتها تلك الدوامة من الأحاسيس والمشاعر اجتذاباً لا رحمة فيه ، فإذا هي تقارن ـ أيضاً ـ بين نبيل سالم ، هذا الذي تراه أمامها ذروة في الأناقة والثبات والثقة بالنفس ، وبين نبيلها المتواضع الذي أحبته في القاهرة !! . . . وإذا بها تتساءل والدهشة تملؤها : ما الذي يجبر شاباً مثل نبيل على حبها والارتباط بها ، وأمامه عشرات ، بل مئات ، وربما ألوف الفتيات مثل مارشيللا ؟!!

وبقدر ما كان التساؤل يبدو منطقياً ، فقد كان جارحاً . . . فلم تملك ، أمام هذا الضعف الذي أخذ يسري في أوصالها كالسم ، إلا أن تقاوم . . . لم يكن أمامها طريق آخر سوى المقاومة ، فراحت تستجمع ذاتها كي تدفع عنها كل ما كان يحيط بها ، لا في الخارج فقط ، ولكن في الداخل أيضاً . . . حيث كانت الضربات تهوي عليها في كل خطوة بلا رحمة !

وفي حقيقة الأمر ، فإن الاستسلام لتلك الضغوط التي كانت تبدو في الظاهر بريئة كل البراءة ، طبيعية تماماً ، لم يكن وارداً في ذهنها ولا حتى في خيالها . . . ولقد قال لي عادل مكي وهو يحلل تلك اللحظات الشديدة الخطر في حياة سامية فهمي ، إن هذه النقطة بالذات ، كانت أضعف ما في التخطيط الذي وضعه أبو سليم للإيقاع بسامية ، فإن هذا الرجل لم يضع في حسبانه وهو يخطط للسيطرة عليها ، أنها سوف تقاوم حتى الموت ، وأن مقاومتها كانت أكبر من كل المغريات التي أحاطها بها ، وأن تلك المقاومة سوف تدفعها إلى بر الأمان حتى ولو كان الطريق مليئاً بالأشواك والعقبات !!

في تلك الجلسة في مكتب نبيل سالم كانت سامية حاضرة نعم . . . وكانت تسمع أيضاً !

لكنها كانت حاضرة بجسدها غائبة بعقلها ، وكانت تسمع بأذنيها كلاماً لم تفهم منه حرفاً !

وإذا بها تدرك ، وإن لم تكن قد فهمت معنى الكلمات ، **أن الحديث بين** نبيل وصديقه هذا كان يدور حولها ، فاستشاطت غضباً ، وكان الغضب بالذات ، هو طوق نجاتها !

وهي ، حتى تلك اللحظة ، لم تكن تعرف من هو هذا الشاب الجذاب الأنيق الخفيف الظل الشديد الوسامة الذي أسعدته زيارتها إلى هذا الحد ، والذي كان يتناقش مع نبيل مناقشة الصديق للصديق والند للند . . . وإذا بها تصيح قاطعة عليهما حبل مناقشتهما :

« مهلاً أيها السيدين!! » .

توقفا عن الحوار والتفتا نحوها ، فاستطردت بالإنجليزية :

« ألا تعلمان أني لا أتحدث الإيطالية ولا أفهم منها كلمة؟! » .

بدا الحرج عليهما لثوان غير أن البرتو سرعان ما انحنى في رشاقة وهو يتحدث معها مداعباً :

« أرجو أن تعذريني سنيوريتا . . . فإن صديقك المصري هذا فتى مراوغ! » .

صاح نبيل محذراً وكأنه يقدم البرتو لسامية :

« البرتو اجنازيو . . . هل نسيت أنك مدير هذه الوكالة ، وأنك تملك الجزء الأكبر من أسهمها ؟! » .

« هذا حقيقي . . . لكنه لا يمنع من أن تعطيها سيارتك كما اتفقنا!! » .

بدا على نبيل الحرج وهو يردد البصر فيما بين البرتو وسامية وراح يخطو من خلف مكتبه مغاضباً :

« أنت تعلم أننا لم نتفق على شيء ، كما تعلم أني لا أملك هذه السيارة إلا بقدر بقائي في روما! » .

همّ البرتو بالحديث فأردف نبيل :

« أم أنك تريد أن تظهر كرمك أمام سامية! » .

ضحك البرتو وكأن الحرج الذي أوقع فيه نبيل قد انتقل إليه ، قال :

« إذن . . . فأنا على استعداد لأن أبيعها إياها! » .

جاءت الكلمات وكأنها ضربة هوت فوق رأس سامية جعلتها تفيق تماماً مما كانت فيه ، اكتشفت أن الحديث كان يدور حول تلك السيارة الأنيقة الغالية الثمن التي يستعملها نبيل ، والتي لم تفكر ، بل لم تحلم بأن تمتلك مثلها في يوم من الأيام . . . ولقد اضطربت سامية ، ومع اضطرابها أحست بشكل غامض أن ثمة فخاً ينصب لها ، هو إحساس غامض لا دليل عليه وليس هناك ما يشير إليه فلقد كانَ الحديث كله مرحاً بسيطاً . . . وما أن قال البرتو ما قال حتى التفت نبيل نحوها متسائلاً :

« إيه رأيك يا سامية؟! » .

هتفت وهي تبذل جهداً عظيماً كي تسترد لياقتها العقلية :

« نبيل . . أنت تعلم أن إمكاناتي المالية لا تحتمل شراء مثل هذه السيارة! » .

ضحك البرتو وهو يضع عينيه في عينيها :

« ولم كان الأصدقاء إذن ؟! » .

« للصداقة سنيور اجنازيو وليس لبيع السيارات التي تفوق قدرة الآخرين على الشراء!! » .

« إن هناك شيئاً اسمه التقسيط ، ألم تسمعي عنه؟! » .

هتفت في عناد :

« ولا بالتقسيط! » .

همّ البرتو بالحديث لكنها هاجمته في إصرار :

« لا تحاول أيها السيد فأنا أدرى الناس بما أملك ، وبما أستطيع أن أدفع! » .

التفت البرتو نحو نبيل وكأنه يستنجد به :

« نبيل . . . ألا تخبرها أني أملك ستين في المائة من أسهم هذه الوكالة؟! » .

« وما الذي يعنيه أن تكون مالكاً للأسهم كلها؟! » .

هكذا تساءلت سامية وقد أحست أن عليها أن تخوض معركة كرامتها بضراوة . . . وكان نبيل يقترب منها وهو يضع ذراعه حول كتفها قائلاً في فخر :

« هذه فتاتي يا البرتو . . . ولقد أخبرتك أنها فتاة من نوع خاص! » .

أثلج صدرها تصرف نبيل فاستكانت إلى ذراعه وقد استمدت من كلماته قوة :

« لن أشتري سوى السيارة التي أستطيع أن أدفع ثمنها! » .

« وهل ترفضين أيضاً دعوة على العشاء؟! » .

كانت لهجة البرتو الآن تختلف ، وكان صوته مغموساً في رقة لا تخطئها أذن ، وراحت عيناه تلتمعان بذلك البريق الذي يخلب لب الأنثى إذا ما رأته يصرخ بالإعجاب في عيني رجل . . . ولا تدري سامية كيف حدث هذا الذي حدث ولا كيف قالت هذا الذي قالته . . . كل ما في الأمر أنها زجرت نفسها ذات لحظة لإحساسها ذاك بالتضاؤل أمام البنايات والشوارع والملابس والمظاهر ، فأمشقت حسام كرامتها وراحت تذود عن نفسها . . . لذلك ، فلقد كانت تكمل الطريق وهي ترد على دعوة البرتو إلى العشاء بقولها :

« هذا يعود إلى نبيل ، فالشرقيات لا يقبلن دعوة على العشاء بدون رجالهن! » .

أطلق البرتو من بين شفتيه صفير إعجاب استطال بعض الشيء تمتم بعده في نغمة موحية :

« ولكن كليوباترة كانت وحدها عندما تناولت العشاء مع أنطونيو ليلة لقائهما الأول! » .

« لأن كليوباترة في ذلك الوقت لم يكن لها رجل! » .

هم بالرد فألجمته :

« ولا تنس أن كليوباترة لم تكن مصرية بالأصل ، ولكن بالانتساب! » .

رفع البرتو اجنازيو ذراعيه مسلماً وهو يتراجع خطوة إلى الوراء .

« رباه . . لو كان جيش عبد الناصر من هذا النوع من النساء لما هُزم؟!! » .

احتقن وجه سامية فجأة . انتفضت كمن لدغتها عقرب ، قالت في حدة :

« لكن جيش عبد الناصر لم يهزم ، لأنه لم يحارب أصلاً !! » .

هتف نبيل محذراً :

« حذار يا البرتو ، إنك تخطو إلى منطقة مليئة بالألغام! » .

قال البرتو متجهاً نحو الباب :

« ولم الدخول أصلاً . . . إني أنسحب راضياً! » .

وعندما وضع يده على مقبض الباب ، استدار نحو نبيل قائلاً :

« لا تنس موعدنا على العشاء! » .

قالها بلهجة بدت لسامية غريبة ، لم تكن دعوة ، بل كانت ـ بكل المعاني ـ أمراً واجب الطاعة !

إختفى البرتو فالتفتت سامية نحو نبيل وقد همت بالاحتجاج ، لكن هذا كان ينتفض متحركاً :

« يالله بينا يا سامية أحسن ميعاد سنيور جارديني قرب! » .

وهكذا ابتلعت سامية احتجاجها ، بينما صدرها يغلي بالتساؤلات !!

* * *

في الطريق إلى مقهى « بالبو » وهو مقهى ذو طابع خاص ، يؤمه بعض الفنانين والصحفيين وذوو المهن الغامضة . . . حاولت سامية أن تناقش مع نبيل ذلك الذي حدث قبل دقائق في مكتبه ، لكنها وجدته مشغولاً بما هو مقدم

عليه . . . ومنذ أن غادرا البناية في طريقهما إلى السيارة ، وهو لا يكف عن الحديث عما يجب عليها أن تفعله مع جارديني أو صديقه هذا الذي يملك وكالة جديدة للأنباء . . . ولقد أحست سامية أن نبيلاً كان يريد أن يهرب من الحديث معها عن البرتو اجنازيو . . . كانت تعرفه جيداً ، كما كان يعرفها جيداً ، لذلك . . . فلقد آثرت ألاّ تضعه في حرج هو في غنى عنه ، فراحت تستمع إليه وهو يشرح لها في حماس أسلوب التعامل في الدول الأوروبية ، وكيف أن اتفاقها مع جارديني أو سواه يجب أن يكون واضحاً وحاسماً منذ البداية ، وأنها يجب ألا تترك شيئاً للظروف ، وألا تترك تساؤلاً دون أن تطرحه بلا تردد أو خجل . . . كان نبيل يبدو حريصاً عليها حرصاً لا شك فيه ، وكأنه كرّس كل تفكيره في تلك اللحظات من أجلها ومن أجل مصالحها ، حتى لقد صاحت فيه مقاطعة :

« انت خايف عليَّ يا نبيل؟! » .

« أنا خايف حد يضحك عليكي! » .

« طب ما انت حاتكون معايا! » .

« فين؟! » .

هكذا سألها وكان سؤاله مفاجئاً فقالت :

« لما أقابل الراجل! » .

« طب إزاي؟! » .

« إلا إزاي . . مش انت اللي مدي له ميعاد؟! » .

« أنا اللي مدي له الميعاد صحيح ، بس انت اللي حاتتفقي! » .

« مش فاهمة! » .

قال وهو يميل بالسيارة إلى مكان وجده خالياً بجوار الرصيف

« إنتي نسيتي إن فترة الغدا بتعتي حا تخلص بعد. . . . . . »

قاطعته :

« يعني انت حاتسيبني لوحدي معاه؟! » .

« لأن وجود شخص ثالث وقت الاتفاق بيعتبر هنا عيب! » .

« بس أنا ما اعرفش جارديني ده! » .

« وأنا ما أعرفش صاحبه اللي أنتي حاتشتغلي معاه! » .

همت بالرد لكنه كان يغادر السيارة فغادرتها هي الأخرى . . . لم يكن أمامها سوى الاستسلام ، لم تكن تملك أن ترفض أو تتراجع ، ففي الطريق إلى المقهى القائم في أحد شوارع روما الجانبية ، قال نبيل وهو يوسع خطاه :

« إنتي لو عملتي إتفاق كويس مع الراجل ده ممكن تشتري العربية اللي أنا راكبها بسهولة!! » .

كانا قد وصلا إلى باب مغلق علقت عليه لافتة تنبىء بوجود ناد أو مطعم أو مقهى . . . فوق الباب كانت ثمة مظلة ذات لون رقيق وجذاب ، أما الباب نفسه فكان ذا طابع معماري خاص . . . وفيما عدا هذا لم يكن هناك ما ينبىء عن وجود مقهى أو محل . . . كانت سامية قد توقفت وهي تمعن النظر إليه مفكرة فيما قاله ، ولا بد أن نبيل قد أدرك ما كان يجول بخاطرها فاستدار نحوها قائلاً :

« لولا أني خايف منك كنت قلت لك على حاجات كثير! » .

« طب ما تقول! » .

« من غير زعل؟! » .

« من غير زعل!! » .

« لما تخلصي مع الراجل اللي مستنيكي جوة ده ، إبقي إنزلي البلد واشتري لك كام فستان يكونوا . . . . . . » .

أطلقت عيناها تلك النظرة الغاضبة فتوقف نبيل عن الحديث زافراً :

« مش قلت لك! » .

« ومالها هدومي يا نبيل! » .

« المسألة مش مسألة مالها يا سامية ، المسألة مسألة مظهر ، والمظهر هنا مهم جداً ، ثم . . . ثم إنك معزومة الليلة على العشا . . . فاهمة ده معناه إيه؟! » .

« نلغي العشا يا أخي! » .
« وليه نلغيه يا سامية إذا كنا حانلاقي فايدة من وراه! » .
« لأن فلوسي. . . . . . . » .
قاطعها :
« يا ستي أنا تحت أمرك!! » .
« تاني يا نبيل؟! » .
« خلاص . . . أنا آسف . . . يالله بينا! » .
فجأة أمسكت بيده فتوقف . استدار نحوها ، قالت :
« طب ما تيجي انت تنقي لي الفساتين اللي أنت عاوزها! » .
أشرق وجه نبيل وهو يهتف :

« بعد ما تخلصي إبقي كلميني في التليفون ، لو قدرت أسيب المكتب ، حابقى آجي لك » .

قال نبيل هذا وهو يفتح الباب موسعاً الطريق لسامية كي تدلف إلى مقهى بالبو . . كان الآن سعيداً سعادة لا شك فيها ، فلقد استطاع أن ينفذ واحدة من تعليمات أبي سليم الهامة !!

كان أبو سليم قد طلب من نبيل سالم ـ بنفس الأسلوب الذي يطلب به دائماً تصرفات تتسم بنوع من الخطورة أو النذالة ـ . . . أن يدفع سامية دفعاً لأن تنفق أغلب ما معها من مال ، حتى تلجأ إليه إذا ما أرادت شراء سيارة !!.

* * *

كان مستر « ادريان تومسون » صاحب وكالة « إيه . تي . ان » للأنباء ، نموذجاً مختلفاً تماماً عن كل من التقت بهم سامية فهمي ، منذ أن هبطت مطار روما ، وحتى تلك اللحظة التي التقت فيها به وهو يتقدم من المائدة التي همت بالجلوس إليها في انتظار السنيور جارديني . . . كانت سامية ـ عندما دلفت إلى ذلك المقهى ـ تتلفت حولها في دهشة لم تحاول أن تخفيها وقد جذب اهتمامها ذلك المكان الغريب الذي بدا لها وكأنه نوع من المنتديات الخاصة . . . كان

من الممكن أن تطلق على المكان اسم مقهى ، وكان من الممكن أن يكون نادياً من نوع خاص ، كما كان يمكن أن يكون باراً لا تباع فيه سوى الخمور ، أو مطعماً يقدم أنواعاً معينة من الأطعمة !!

وجدت سامية نفسها في مكان فريد في نوعه مليء بالأعمدة والحيطان المتقاطعة والممرات وكأنه أنشيء لأغراض معينة قد تخفى على من كان مثلها . . . وعندما دلفت قبل نبيل ، راحت تجول ببصرها في المكان بحثاً عن سنيور جارديني دون جدوى . . . انتقى نبيل إحدى الموائد التي تبدو منزوية في ركن من المكان ، وما كادا يستقران حولها ، حتى تقدم منهما شاب إنجليزي متوسط الطول متوسط العمر أحمر الشعر خشن الجلد ، أكثر ما يميزه حاجبان كثيفان يصنع شعرهما فوق العينين مظلتين هائشتين . . . كان ادريان تومسون يبدو وكأنه جاء لتوه من إحدى غابات إسكتلندا في الشمال البارد لبريطانيا العظمى ، أو ، ربما ، من أحد الحقول الجرداء في أرض إيرلندا المحيرة !!

« سنيور جيزي؟! » .

« أنا هو! » .

مد الشاب يده نحو نبيل :

« أدريان تومسون! » .

صافحه نبيل في الوقت الذي كان أدريان يلتفت فيه نحو سامية :

« لا بد أنك مس فهمي! » .

« أنا هي! » .

« هل يمكنني أن أشارككما المائدة! » .

هتف نبيل :

« لقد جئنا إلى هنا خصيصاً كي نلتقي بك! » .

جلس ادريان فوق أحد المقاعد وهو يقول كمن لا يريد للوقت أن يمضي عبثاً :

« لقد اضطر جارديني للاعتذار عن الموعد لعمل طارىء . . . ولقد تحدث

إليّ تليفونيا وقال إنه يعتمد على ذكائي في التعرف عليكما!! » .

ما كاد المقام يستقر بهم حتى نظر نبيل في ساعة يده مغمغماً :

« كم كان يسعدني أن أشارككما الحديث ، لولا ارتباطي بمجموعة من المواعيد من الصعب إلغاؤها! » .

أخذت سامية وهي تلتفت نحوه في تساؤل ودهشة ، فاستطرد نبيل بالعربية :

« أنا آسف يا سامية ، لكن انتي عارفة أنا ورايا شغل قد إيه؟! » .

قال هذا دون أن يعطيها فرصة للرد . . . نهض ، وأحنى رأسه في تحية مقتضبة . . . ثم هرول مغادراً المكان !

. . .   .

. . .   .

ولقد احتاجت سامية فهمي إلى دقائق عديدة حتى استطاعت أن تعيد التوازن إلى رأسها . . . كانت تعلم ، منذ أن كانت مع نبيل في السيارة ، أنه لن يبقى معها ، لكنها لم تتصور أنه سوف ينصرف بمثل هذه السرعة . . . بدا لها كل شيء ، كل شيء منذ أن دخلت إلى تلك البناية الشاهقة وحتى لحظتها تلك ، وكأنه من صنع شيطان ماكر . . . وها هي تجد نفسها مع رجل لا تعرف عنه شيئاً ، ولا يعرف عنها شيئاً . . . وكان المفروض أن يتحدثا في عمل لا تعرف أبعاده أو مداه بعد !!

« حسن . . . لندخل في الموضوع مس فهمي حتى لا أضيع وقتك! » .

« وأنا على استعداد لسماعك! » .

هكذا بدأ أدريان تومسون الحديث مع سامية فهمي .

« قال لي عادل مكي ، وكانت سنوات طويلة قد انقضت على ذلك اللقاء الأول في مقهى بالبو . . . إن ادريان تومسون هذا ، لم يكن سوى واحد من ضباط الموساد المدربين والمشهود لهم بالكفاءة ، وأنه أولاً ليس إنجليزياً كما ادعى ، لكنه يهودي من إحدى دول وسط أوروبا التي اشتهر شعبها ، قبل قيام دولة إسرائيل ، بكراهيته

الشديدة لليهود . . . وإنه كان في ذلك اليوم ، مسلحاً بمعلومات كافية عن سامية فهمي ، مما جعل تأثيره عليها أقوى بكثير من تأثير كل هؤلاء الذين ما كان لقاؤهم بسامية ، سوى تمهيد لتلك الجلسة الشديدة الأهمية في تلك المرحلة من مراحل تجندها لحساب المخابرات الإسرائيلية!! » .

وبالفعل كان ادريان تومسون بالنسبة لسامية مختلفاً ، كان يبدو بهيئته تلك الغريبة وشعره الأحمر وكلماته البسيطة الهادئة ، وكأنه يعرف ما الذي يريده بالضبط !

بدأ ادريان حديثه بقوله :

« لست أدري ما الذي قاله سنيور جارديني عني . . . ولكن الذي أدريه عن يقين ، ان أهل البحر المتوسط والذين يعيشون حول شواطئه ، قوم تغلب عليهم عواطفهم . . . ولذلك ، فإني أخشى أن يكون قد بالغ في تقديره لشخصي أو إمكاناتي! » .

أدهش سامية أسلوب الرجل فقالت :

« ألا تدخل في الموضوع مباشرة مستر تومسون؟! » .

« إذا كان مقدراً لنا أن نتعاون معاً ، فإني أفضل أن تناديني باسمي الأول! » .

قال هذا وهو يبتسم ، وبدت ابتسامته لسامية ساحرة ـ كان هذا هو تعبيرها بالضبط والذي أصرت عليه وحتى الآن !! ـ ذلك أنها كانت ابتسامة رجل مهذب يتحسس مواطىء كلماته مع محدثه بكثير جداً من الاحترام . . . لذلك ، فلقد بادرت سامية برد المجاملة قائلة :

« إني أوافق على أن تفعل نفس الشيء معي! » .

وكأن ادريان قد تذكر شيئاً ، فلقد بدا عليه الارتباك وهو يتلفت حوله مغمغماً :

« ألا ترين أنه قد حان الوقت كي نشرب نخب ذلك اللقاء؟! » .

« لست أرى أي مانع! » .

« فماذا تشربين إذن؟! » .

« إن فنجاناً من الكابوتشينو يكون ملائماً تماماً! » .

« وهل تسمحين لي باحتساء كأس من النبيذ؟! » .

ذاب الجليد في دقائق قليلة . . . وانطلق ادريان يقص عليها قصة طويلة حول وكالته الحديثة ومكتبه المتواضع في روما . . . قال إنه فقير ، وهو لا يملك مالاً كثيراً لكنه يعد بألا يغمطها حقها ، وأن يكون كريماً معها بقدر ما تسمح به إمكاناته . . . إن وكالته للأنباء ليست سوى شقة متواضعة تساعده فيها زميلة جاءت معه من لندن ، واثنان من الموظفين . . . و . . . ولا شيء سوى هذا ! !

« إستمعي إلي جيداً يا سامية ، فأنا لن أخفي عنك شيئاً على الإطلاق ، فأنا أحب لمن يتعامل معي أن يعرف الحقائق بلا زيف ولا تزويق! » .

جاءه صوت سامية من خلال ابتسامة انبهار لم تخف على عينيه ، قالت :

« بلا مقدمات ، هات ما عندك!! » .

راح يحدثها عن حيتان الصحافة الذين يسيطرون على العالم سيطرة تجعلهم يخفون ما يريدون إخفاءه عن الناس ، ويقدمون ما يريدون تقديمه ، ويصوغون الأنباء صياغة تتلاءم مع مصالح هائلة تسيطر كالاخطبوط على مقدرات الأنباء رأذهان الناس وتشكل عقولهم في جميع أنحاء المعمورة !

كانت سامية تستمع إليه وقلبها يخفق بالسعادة والحماس معاً . . . ولقد ازداد حماسها وهي تستمع إليه وهو يقول ، إنه قد آن الأوان للخروج من كنف تلك السيطرة الفولاذية لوكالات الأنباء العملاقة تلك ، وهو يرى أن مجموعة من الشباب ، من جنسيات مختلفة ، تملك طموحاً لوضع أساس جيد لعمل كبير ، سوف تكون قادرة دون شك على الوقوف في وجوه العمالقة ، وأن ذلك لن يتحقق إلا بضربات صحفية ، تجعل النجاح أمراً مؤكداً ، والاستمرار أمراً محتملاً !!

ساد الصمت بينهما لثوان كانت سامية تنتفض فيها بالحماس حقاً ، ولقد

خفق قلبها وهو يستطرد :

« ولذلك يا سامية ، فلقد كان اهتمامي بالشرق الأوسط ، ومصر بالذات ، أهم من أية منطقة أخرى من العالم . . . إن بؤرة الصراع العالمي ، تتركز في الشرق الأوسط ، فإذا استطعنا أن نغطي تلك المنطقة ، فإننا نكون قد تغلبنا على ستين في المائة من مشاكلنا الفعلية!!» .

« وما نوع الأخبار التي تريدها مني بالضبط؟! » .

ابتسم ادريان في خجل بدا لسامية طبيعياً تماماً وهو يقول :

« لعلك لا تريدين أن تقللي من شأن ذكائي؟! » .

« لست أفهم ماذا تقصد على وجه التحديد! » .

« أقصد أنني أعرف أنك صحفية ممتازة . . . وعندما أخبرني جارديني باسمك ، كان عليّ أن أعرف عنك كل ما أستطيع معرفته ، ولم يكن صعباً أن أحصل على بعض أعداد من مجلة « الفجر » المصرية ، وأن أعثر على صديق يتقن العربية ، يترجم لي بعض ما كتبت » .

« ألا تفصح عن غرضك أكثر؟! » .

« ليس لي غرض سوى أن أذكرك بأني أعرف أنك صحفية محترفة ، وأنك لا بد تعرفين بالضبط ما الذي يمكننا أن نحتاج إليه من أنباء! » .

كان الحوار ممتعاً بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، كما وجد الاطراء طريقه إلى نفس سامية ، ولذلك ، فلقد استمر لأكثر من ساعتين ، دعاها ادريان فيهما على الغداء في نفس المكان ، وكان الغداء متواضعاً حقاً ، فلقد طلب الرجل فطيرة واحدة من « البيتسا » الإيطالية اقتسماها معاً !

كانت سامية سعيدة !

هذه حقيقة اعترفت بها لعادل مكي كما اعترفت بها وهي تتحدث إليّ عن ذلك اللقاء الأول مع من أطلق على نفسه اسم « ادريان تومسون » . . . الذي حملها على أجنحة من التحدي حلقت بها في آفاق العالم كله . . . راحا

يناقشان المشروع وكأنهما ينشئانه معاً ، كانت هناك عقبات حقاً ، فلم يكن للوكالة في القاهرة مكتب ولا تليفون ، وكان الجهد المطلوب مضنياً بكل ما تحمل الكلمات من معنى . . . جهداً ذكرها بتلك الخطوات الأولى لها في عالم الصحافة ، مما دفعها إلى التخلي عن التحفظ الذي لازمها منذ وصولها إلى العاصمة الإيطالية . . . حتى إذا حان وقت الرحيل ، وكانت ساعات ثلاث قد انقضت منذ أن التقيا ، سألته :

« ولكن . . كيف يمكنني أن أرسل لك بالأخبار؟! » .

« ألا تريدين أن تفكري في الأمر ملياً! » .

قالت مؤكدة :

« لسوف أفكر في الأمر حتماً! » .

« وعليك أن تفكري أيضاً ، أني لن أستطيع أن أدفع لك مرتباً مجزياً! » .

تذكرت على الفور حديث نبيل معها وتحذيره لها ، لكنها وجدت نفسها تقول :

« لا عليك من هذا الأمر! » .

« ولكني أريد ، قبل مناقشة أي شيء ، أن أعرف كم تريدين مني؟! » .

ارتبكت سامية ، لم يكن ممكناً بعد حديث مثل هذا أن تضع رقماً . . . ولقد ترددت ، ولحظ ادريان ترددها ، فقال كمن يحسم الأمر :

« لسوف أعفيك من الحرج . . . ولقد سألت عن قيمة الجنيه المصري سواء بالإسترليني أو بالدولار أو الليرة الإيطالية ، ووجدت أني لن أستطيع ـ في البداية ـ أن أدفع لك أكثر مما يعادل مائتي جنيه في كل شهر!! » .

خفق قلب سامية بعنف ، وكان لا بد أن يخفق ، دار رأسها لثوان خاطفة ، وكان لا بد أن يدور . . . فلقد كان الرقم المعروض عليها يكاد يعادل مرتب رئيس التحرير ، كان كل ما تتقاضاه من المجلة خمسة وثلاثين جنيهاً ، بينما كان مرتب أحمد مختار لا يزيد على مائتين وخمسين جنيهاً . . . ولقد ظلت صامتة

وهي ترقب ادريان الذي بدا عليه الخجل وهو يغمغم :

« إني أعلم أن المبلغ صغير ، ولذلك ، فأنا أعدك بمكافأة مجزية لكل خبر يستحق المكافأة!! » .

أرادت سامية أن تخفي عنه اضطرابها وفرحتها فقالت :

« مرة أخرى ، أنا أسألك عن نوعية الأخبار التي تريدها مني! » .

« ولكنك لم تخبريني بعد إن كنت قد وافقت على العمل معي أم لا! » .

« أعتقد أن الأمر جدير بالتفكير فيه! » .

« إذن ، فلتأخذي فرصتك في التفكير ، على أن نتفق قبل رحيلك على كافة التفاصيل!! » .

وهكذا افترقا بعد أن تبادلا أرقام التليفونات ، على أن يحددا موعداً آخر ، بعد يومين أو ثلاثة !! .

* * *

صاح نبيل مستنكراً :

« بقى ده معقول يا بو سليم؟! » .

« اللي باقول لك عليه تعمله بالضبط! » .

صاح نبيل محتجاً مستنكراً في نفس الوقت :

« بقى معقول إبقى سايبها مع الراجل لوحدها . . . ولما أقابلها ، ما أسألهاش حتى أنتي عملتي إيه معاه؟! » .

« سيبها هي اللي تقول لك! » .

« وإذا ما قالتش؟! » .

« مستحيل!! » .

« إفرض يا بو سليم! » .

« انت مش بتقول إن سامية عمرها ما تعرف تخبي عنك حاجة؟! » .

« أيوه بس. . . . . . . » .

قاطعه الرجل وكأنه ينهي الأمر تماماً :

« ولما تحكي لك ، عاوزك تفتح ودانـك كويس ، لأني عـاوز أعرف هي حاتقول لك إيه بالضبط! » .

ولم يكن أمام نبيل ، سوى الطاعة ! .

* * *

الفصل السابع والعشرون

المأزق!

انتشر في أوروبا ـ إبّان العقد السادس من هذا القرن ، خاصة بعد حرب ١٩٦٧ ـ ما أطلق عليه رجال المخابرات المصريون ، اسمَ « بيوت الملذات » . . . ولم تكن هذه البيوت سوى مصيدة للشباب العرب الباحثين عن الملذات ، أقامتها المخابرات الإسرائيلية في العديد من الدول الأوروبية ، خاصة تلك التي كان العرب يكثرون من التردد عليها في رحلات سياحية كانت تطول في بعض الأحيان ، وتتكرر في غالب الأحيان . . . كان الشباب العرب ـ في أحضان الحسناوات المدربات تدريباً عالياً ، مع كؤوس الخمر والدخان الأزرق ـ يبوحون بما يجب ألا يبوحوا به . . . ولقد استطاعت المخابرات المصرية ، في وقت مبكر ، أن تكتشف هذه البيوت ، وأن تخترق معظمها . . . ويحكى ـ ولست أملك الدليل على هذا !! ـ أن بعض هذه البيوت كان مرتعاً لكثيرين من الشباب العربي الذي تطوع بإبلاغ المخابرات المصرية عما حدث ، ثم تطوع بالاستمرار في التظاهر في البحث عن ليال حمراء ، كي يبوحوا بمعلومات مغلوطة كانت بالقطع تنقل إلى المخابرات الإسرائيلية التي كثيراً ما أوقعت قيادتها السياسية في تلك السنوات ، في مآزق تكاد تكون مضحكة ، نتيجة لتلك المعلومات الخاطئة والمغلوطة التي كانوا يلتقطونها من ضحاياهم الموهومين . . . كما استطاع رجال المخابرات المصرية ، في نفس الوقت ، أن يوقعوا بهؤلاء الذين أفاقوا مما انزلقوا إليه ، كي يجدوا أنفسهم قد تورطوا حتى آذانهم في الخيانة !!

وفي نفس الوقت ـ وليست هذه معلومة جديدة ـ كانت هناك مقاه مثل مقهى « بالبو » في روما الذي كان يستعمل في بعض نشاطات الموساد المختلفة ، سواء بعلم صاحب المقهى أو بدون علمه . . . وكان هذا النوع من المقاهي المريبة ، يستعمل كستار من الممكن أن يلتقي فيه رجال الموساد ، مع من يريدون اللقاء بهم بعيداً عن عيون المتطفلين . . . تماماً ، مثلما فعل من أطلق على نفسه اسم « ادريان تومسون » مع سامية فهمي ! !

ولقد قال لي عادل مكي ، إنه عرف بالموعد الذي ضربه نبيل سالم للسنيور جارديني في مقهى بالبو عن طريق ذلك الكونت الإيطالي المفلس ، وصديقته المزيفة . . . لكنه ، وقد كان أحد رجاله هناك ، لم يعرف طبيعة الحوار الذي دار بين ادريان تومسون وسامية فهمي لأسباب عديدة ، أبسطها ، أن المائدة التي وقع عليها اختيار نبيل سالم ـ ولم يكن الأمر في حقيقته اختياراً ، بل كان توجيهاً من أبي سليم ـ كي يجلس عليها مع سامية وادريان ، تقع في ركن من العسير الاقتراب منه ، أو الاستماع إلى ما يدور فيه . . . وحتى تلك الوسائل التكنولوجية ـ مثل الميكروفونات وما إلى ذلك ـ لم يكن من السهل استعمالها في ذلك اليوم . . . لهذا ، فلقد عرف كل شيء عن اللقاء ، دون أن يعرف ما الذي دار بين سامية وادريان على وجه التحديد . . . ومع أنه كان قد استطاع أن يخمن وأن يكون تخمينه قريباً من الحقيقة ، إلا أن معرفة تفاصيل ما دار بينهما ، كان على أكبر قدر من الأهمية ، خاصة ، بعد عودة سامية إلى القاهرة ! !

وعلى كل . . . فلم يكن أمام عادل مكي ، بعد هذا اللقاء الذي تأكد منه ـ بما لا يدع مجالاً لشك أو تأويل ـ أن هناك محاولات مستميتة لتجنيد سامية فهمي لحساب المخابرات الإسرائيلية ، فلقد كان المدعو أدريان تومسون ، معروفاً تماماً لرجال المخابرات المصرية . . . فلم يكن أمام عادل سوى تكثيف الرقابة حول سامية ونبيل في روما ، لعله قبل عودتها إلى القاهرة ، يستطيع أن يمسك بطرف خيط يوصله إلى الحقيقة سافرة ودون تخمين ! !

في ذلك اليوم غادرت سامية فهمي مقهى بالبو وهي تشعر وكأن باباً في السماء قد فتح لها ، ففوق إحساسها ذاك بالتحدي والرغبة في مساعدة شاب مثل ادريان تومسون يريد أن يكسر احتكار تلك الإمبراطوريات العظمى للأنباء ، والتي تسيطر على سوق الأخبار في الكرة الأرضية ، وتوجه خلال سيطرتها ، الرأي العام العالمي لصالح القوى العظمى . . . كان هناك ذلك الحلم الذي ينتاب كل شاب ، بأن يحقق في مهنته انتصاراً وطموحاً يصبو إليهما !!

ولقد غادرت سامية فهمي مقهى بالبو وحدها تاركة ذلك الشاب الأحمر الشعر . . . آثرت أن تسير على قدميها حتى تستمتع بمشاهدة معالم المدينة ، وحتى تعطي لنفسها الفرصة كي تفكر في ذلك العرض الذي عرضه عليها شاب إنجليزي طموح بالاشتراك في بناء مشروع ، إذا قدر له النجاح ، فلسوف يكون ـ بكل المقاييس ـ شيئاً عظيماً !!

غير أن إمعان التفكير ، مع وقع خطواتها من شارع إلى آخر ، جعل الأفكار في رأسها تصبح أكثر انتظاماً ، وأكثر وضوحاً !!

كانت ، بداية ، قد اتخذت قراراً بشراء فستان جديد كي تحضر به تلك الدعوة على العشاء التي وجهت إليها من ذلك الشاب الفاتن البرتو اجنازيو . . . وبالرغم من أنها كانت تعلم ، أن ثمن أي فستان متوسط ، سوف يكلفها ما لا تطيق ، وقد يؤثر على مشروعها في شراء سيارة ، إلا أنها أحست ، عندما طلب منها نبيل ذلك ، بإهانة من نوع غامض ومثير . . . أحست باستفزاز جعلها تصمم ، بعصبية لا مداراة فيها، على أن تشتري الفستان. . . وربما كان السبب في هذا الشعور بالاستفزاز ، هو ذلك التأثير الغامض بالغيرة ، الذي تركته في نفسها تلك الفتاة الإيطالية الحسناء مارشيللا !!

راحت سامية تتسكع في الشوارع وهي تنتقل من ڤاترينة إلى أخرى ، كي تشاهد وتنتقي ما يناسب قدرتها على الشراء . . . ولكن ذهنها أخذ يعمل بعنف أفسد عليها متعة المشاهدة ، ومتعة الإحساس بأنها في روما ، وحتى متعة الأنثى

التي ترغب في شراء فستان تبدو فيه فاتنة !!

كان أكثر ما ازعجها هو أن نبيل وقد تركها مع ادريان تومسون بدا لها فجاً لا ذوق فيه ، وغامضاً لا منطق له . . . فلم يكن منطقياً أن يتركهما نبيل بمثل تلك السرعة وقد كان يعلم منذ الأمس بالموعد . . . وحتى لـو كان مشغـولاً ، فلقد كان يستطيع أن يؤجل ، أو يرتب مواعيده حتى يكون إلى جـوارها ولـو لدقـائق تتعرف فيها على هذا الغريب الذي جاء ـ عن طريقه ـ كي يعرض عليها عملاً !!

مرة أخرى تثور في صدرها الشكوك عاصفة . . . توقفت عند مفترق طريقين وراحت تـرقب بعين تائهـة حركـة المرور والحيـاة في شـوارع تلك العـاصمـة الصاخبة . . . أحست أنها متعبة ، لا ممـا يحدث لهـا ، ولكن من نفسها ومن شكوكها التي كانت تروح وتجيء كالموج الصـاخب . . . فما الـذي حدث أو يحدث ؟! . . . وما الـذي يمنعها من الاستمتـاع بالحيـاة ؟! . . . وهل أفسـد العمـل السياسي وجـدانها ؟! . . . هـل صنع حب مصـر حـاجـزاً بينهـا وبين السعادة ؟!

لغـو . . . كل هـذا لغو . . . هي تعلم عن يقين أن الحب قـوة قـاهـرة لا تغلب ، وأن العمـل السياسي نضـال من أجل مستقبـل أفضل وأبنـاء تتمنى أن تتـركهم للوطن كي يـواصلوا المسيـرة ، وأن هــذا وذاك يبعثـان إلى النفس بـالسعادة ، فَلِمَ كـل هذا الـذي يصطرع في صـدرها ويحـرمها حتى من متعـة مشاهدة ما حولها . . . وهي ، إذا كانت ترى في كل ما حدث أموراً طبيعية ولا غبار عليها ، فلم تكن تستطيع أن تغفل تلك الأحاسيس المصطرعة في صدرها بلا توقف . . . مرة أخرى يداهمها ذلك الإحساس الغامر بالأسى وبأن زيـارتها لإحـدى دول أوروبا ، التي كـانت حلمـاً انـدفعت نحـوه بقلب مفتـوح ، قـد أصبحت كابوساً . . . ولم يعد أمامها الآن سوى طريق من اثنين : إمـا أن تشد الـرحال وتعـود إلى القاهـرة وتعفي نفسهـا من كـل شيء . . . وإمـا أن تـطرح شكوكها جانباً ، وتعيش أيامها تلك في روما بعقل متفتح ووجدان قابل للحياة ، ثم . . . ثم لتعـطي شكوكهـا وأفكارهـا فرصـة أن ترتـع وتحلل وتشـك كيفمـا

شاءت ، متى عادت إلى القاهرة !!

وهكـذا . . . وللمرة الثـانية ، ومـع أنبعاث الأحـلام التي فجرهـا ادريـان تومسون في صدرها قررت أن تطرح شكوكها جانباً ، وأن تعيش أيامها في روما كما يجب أن تعيش ، وكما تحب أن تعيش . . . وما دامت مدعوة على العشاء الليلة من شاب فاتن مثل ألبرتو اجنازيو . والذي ـ لا بـد ـ سوف يصحب معـه صاروخاً نسائياً قد تكون صديقة له أو زوجة فلم لا تذهب إلى « الكوافير » أيضاً وتصفف شعرها ، وتستعد لهذا العشاء وهي على « صنجة عشرة » !!

لم لا تبـدو جميلة في عيـون النـاس ، تـدخـل حلبـة المنـافسـة مـع « مارشيللا » ، تلك الإيطالية الرائعة الجمال ، والتي تعمل كسكرتيـرة لرجلهـا وحبيبها وحلم عمرها ؟!

وعادت سامية فهمي تفتح صدرها لهواء روما المنعش . . . توقفت للحظة فلمحت على الضفة الأخرى من الشارع الذي كانت تسير فيه ، فاترينة ، هائلة لـواحد من تلك المحـلات التي تشبـه المـدن الصغيـرة . . . رأت على البعـد مجموعة هائلة من الفساتين التي تخلب لب أية فتاة في الـدنيا ، انـدفعت تعبر الطريق في حماس ومرح وإذا بصيحات تحذير تمـلأ الدنيـا من حولهـا ، وإذا عجلات سيارة تصرخ محتكة بالأرض والسيارة تندفع نحوها في سرعة لولا أنها قفزت في لحظة بدت كمعجزة كي تنجو من موت محقق ، وإذا المارة يتوقفون والسيارة تتوقـف ، وسائقها يهبط منها مندفعاً نحوها رادحاً بالإيطالية في غضب ، وإذا الناس يتجمعون ، والشـرطي يقتحم الجمع نحوها ، وإذا هي لا تجـد ما تقوله سوى الاعتذار ، راحت تعتذر وتعتذر حتى قبل الشرطي والسائق اعتذارها فانطلقت تخترق الجمع الذي أطبق عليها من كل ناحية وكأنها تولي الفرار . . . نسيت أمـر الفستان وراحت تضـرب في الشوارع على غيـر هـدى . . . مضت دقائق حتى استردت أنفاسها ونفسها فراحت ترقب الفاترينات من جديد ، وقفت أمام احداها وتشبثت عيناها بفستان مـا أن تخيلت نفسها فيـه حتى خفق قلبها. . . دون تفكير دخلت المحل وطلبت الفستان وصحبت البائعـة إلى ما خلف ستار

كي تقيس الفستان فكأنه فصل خصيصاً من أجلها . . . كان الثمن مناسباً فطلبت أن تشتريه ، توجهت نحو الخزينة كي تدفع الثمن ، فتحت حقيبتها ومدت يدها كي تخرج حافظة نقودها . . . لكن الحافظة لم تكن هناك !!

تلك كانت لحظات لا تنسى في حياة سامية فهمي ، لحظات مادت بها الأرض فيها واسودت الدنيا في عينيها وخفق قلبها في عنف أوجعها فكأنه يوشك على التوقف . . . في لهفة راحت يدها تجوس خلال الحقيبة بحثاً عن الحافظة دون جدوى ، قلبت الحقيبة فوق السطح الزجاجي وتناثرت محتوياتها جميعاً أمام عينيها ولم تكن الحافظة هناك . . . في الحافظة كل نقودها وبطاقة هويتها وبطاقتها الصحفية وتذكرة الطائرة وبعض الأوراق الخاصة ، تحولت نظرات البائعة من الترحيب إلى الدهشة إلى الامتعاض وتوقفت يداها عن طي الفستان وتجهيزه لها . . . رفعت سامية عينيها وكانتا دامعتين نحو البائعة التي تساءلت :

« **ماذا حدث سنيوريتا ؟!** » .

« **حافظة نقودي ؟!** » .

« **هل فقدت منك ؟!** » .

« **لقد سرقت ؟!** » .

« **كان لا بد أن يحدث هذا !** » .

« **لماذا بالله عليك ؟!** » .

« **لقد شاهدتك وأنت تدلفين إلى المحل ، وكيف كنت تعلقين حقيبة يدك فوق كتفك في إهمال لا يصح في مدينة مثل روما !!** » .

« **ماذا تقصدين ؟!** » .

« **إن النشالين هنا لا يتورعون عن شيء !** » .

تقدمت منهما سيدة في الأربعين ممشوقة القوام هادئة الجمال متزنة الخطى فكأنها جندي يخطو بمقدار . . . أدركت سامية أنها رئيسة البائعات أو مديرة المحل :

« **ماذا هناك سنيوريتا ؟!** » .

« لقد سرقت حافظة نقودي ! » .
« أين كنت قبل أن تدخلي إلى هنا ! » .

حكت لها سامية قصة عبورها للطريق والسيارة التي كادت تدهمها والناس الذين تجمعوا من حولها فتبادلت السيدة مع الفتاة بضع كلمات بالإيطالية لكن لهجتهما أوحت لها بالحقيقة سافرة . . . التفتت السيدة نحوها وهي تقول :

« انها لم تكن حادثة حقيقة سنيوريتا ! » .
« ماذا تعنين ؟! » .
« لقد كان الأمر مدبراً من أوله وحتى آخره ! » .

قالت السيدة هذا ثم استدارت نحو البائعة وأصدرت لها أمراً لملمت البائعة بعده الفستان وهي تتمتم :

« آسفة سنيوريتا . . . اني آسفة حقاً ! » .
« أين أجد أقرب قسم للشرطة ؟! » .

ابتسمت الفتاة ساخرة وهي تقول :

« إنه على مقربة من هنا ، ولكن لماذا ؟! » .
« أليس من حقي أن أطالبهم بالبحث عن حافظة نقودي ؟! » .

لوت الفتاة شفتيها امتعاضاً :

« لا تضيعي وقتك فيما لا يفيد !! » .

عادت سامية فهمي إلى الطريق وهي تحاول أن تمنع الدمع المنهمر من عينيها ، همت بالسؤال عن قسم الشرطة لكنها تراجعت وقد عادت كلمات الفتاة ترن في أذنيها ولم يكن أمامها سوى العودة إلى الفندق . . . كانت في شارع لا تعرفه وفي مكان لم تطأه قدماها من قبل ولم يكن أمامها إلا أن تستجمع كل ذاكرتها حتى تعود، دون جدوى. أدركت أنها في مأزق فهي لم تكن تملك قطعة معدنية تصلح لأن تتصل بنبيل تليفونياً ، استوقفت سيارة أجرة وألقت إلى السائق باسم

الفندق . . . مضت الدقائق مثل دهور حتى توقفت السيارة أمام الفندق فاستأذنت السائق لثوان واندفعت إلى البهو فلمحت مدير الفندق في ركن منه ، اقتربت منه في تردد ورجته أن يرسل من يدفع للسائق أجره . . . نظر الرجل إليها في دهشة وكانت عيناها لا تزالان مبللتين بالدموع .

« هل حدث لك مكروه سنيوريتا فهمي ؟! » .

همت بأن تذكر له الحقيقة لكنها تراجعت في آخر لحظة وأعادت رجاءها على الرجل مرة أخرى . . . هز الرجل رأسه موافقاً وهو يشير إلى أحد رجال الفندق أن يوافيه . . . توجهت نحو موظف الاستقبال وطلبت مفتاح الغرفة فأعطاها الرجل مع المفتاح ورقة مطوية :

« هذه رسالة وصلت إليك منذ دقائق قليلة ! » .

أحست بالراحة فلا بد أن الرسالة كانت من نبيل ، دلفت إلى المصعد دون أن تقرأ الرسالة فلقد أرادت أن تخلو إلى نفسها أولاً ، وأن تفكر كيف ستدبر أمرها . . . ما أن دلفت إلى الغرفة وأغلقت بابها حتى فضت الرسالة . . . جرت عيناها فوق السطور فكادت تصرخ فزعاً . . . كانت الرسالة من نبيل بالفعل ، وكان يعتذر فيها عن عشاء تلك الليلة لعمل اضطر من أجله أن يغادر روما !!

ما أن قرأت الرسالة ، حتى مادت بها الدنيا ، ألقت بنفسها فوق الفراش ، وانخرطت في البكاء !!

* * *

« قال لي عادل مكي إن « حكاية » النشل هذه لم تكن غريبة أو حتى جديدة على الموساد بالذات ، وأنهم يستعملونها في الوقت المناسب تماماً حتى تصبح الضحية في موقف الحاجة الماسة إليهم فيسهل عليهم إتمام الأمر . . . وقال : إن ما قالته تلك البائعة لسامية حقيقي تماماً . . . فلقد كانت حادثة السيارة مدبرة بالفعل ، وكانت سرقة حافظة نقودها نوعاً من الضغط البالغ العنف

عليها ، كي تلجأ في النهاية إلى نبيل سالم ، أو . . . **تضطر لموافقة ادريان** تومسون على كل ما يريد !!! » .

أفاقت سامية مما كانت بعد دقائق لم تطل كثيراً ، كان لا بد لها من أن تجد مخرجاً من المأزق الذي وجدت نفسها فيه ، أحست بشكل غامض أن ثمة قوى عاتية تتعمد إيذاءها وإفساد رحلتها . . . هبت واقفة واتجهت إلى الحمام وغسلت وجهها وعادت إلى الغرفة وعقلها يعمل بسرعة ، وإذا كانت رسالة نبيل قد وصلت ـ كما أخبرها موظف الاستقبال ـ منذ دقائق ، فمن الممكن أن تلحق به قبل أن يغادر المكتب ، اندفعت إلى التليفون وطلبت الرقم ، بعد ثوان جاءها صوت مارشيللا فهتفت في لهفة :

« **سنيور جيزي من فضلك سنيوريتا مارشيللا !** » .

هتفت مارشيللا مرحبة :

« **بوناسيرا سنيوريتا فهمي !** » .

« **هل نبيل موجود ؟!** » .

« **أخشى ألا يكون موجوداً ، فلقد رحل منذ دقائق !** » .

« **هل سافر إلى نابولي ؟!** » .

« **لا اعتقد ، ربما صعد شمالاً إلى ميلانو فلقد استمعت إلى حوار بينه وبين سنيور اجنازيو حول صفقة لا بد أن تتم في الصباح الباكر !** » .

« **هل تعرفين اسم الفندق الذي ينزل فيه ؟!** » .

« **أخشى سنيوريتا فهمي ألا استطيع مساعدتك ، فهو لم يترك عنواناً أو رقم تليفون وكان في عجلة من أمره !** » .

« **كم يوماً سوف يغيب ؟!** » .

« **لست أدري وإن كان سنيور اجنازيو بالقطع يعرف أكثر مما أعرف !** » .

« **هل أستطيع أن آخذ رقم تليفونه ؟!** » .

« **سوف أرى إن كان موجوداً !** » .

قالت مارشيللا هذا وانقطع الحديث وساد الصمت ، ظلت سامية ممسكة

بـالسماعـة في توتـر وقلق ، حتى إذا جاءهـا صوت ألبـرتو على الـطرف الآخر مرحاً ، وجدت نفسها تنتفض فزعاً !!

« هـا أنا قـد تخلصت من وغدك المصـري . . . وسأنفـرد بك الليلة فمـا قولك ؟! » .

حـاولت ساميـة أن ترد فلم تستـطع ، أحست وكأنهـا تسيـر نحـو مصيـدة غامضة ، عاد الصوت مرة أخرى :

« سامية . . . هل أنت هناك ؟! » .

« نعم سنيور ألبرتو ، ولكني أخشى ألا أستطيع تلبية دعوتك الليلة ! » .

« لماذا ؟! » .

« أعتقد أني لست على ما يرام !! » .

« هل حدث شيء ؟! » .

« ليس شيئاً ذا بال ! » .

« هل أستطيع مساعدتك ؟! » .

« لا شكراً . . . ولكن . . . . » .

قالت هذا وعادت تمسك عن الحديث . .

« سامية . . . ماذا حدث ! » .

« متى يعود نبيل ؟! » .

« ليس أكثر من يومين أو ثلاثة ! » .

« هل أستطيع الاتصال به ؟! » .

« بالتأكيد . . . فلقد وعد أن يتصل بي فور وصوله ! » .

« شكراً لك سنيور اجنازيو ! » .

« هل أنت واثقة أني لا أستطيع تقديم أي مساعدة ! » .

مضت لحظات صمت كانت سامية تنتقي فيها الكلمات بعناية لكنها قالت :

« شكراً على دعوتك سنيور اجنازيو ، وأرجو أن أستطيع أن ألبيها بعد عودة نبيل !! » .

* * *

قال نبيل سالم فيما بعد ، إنه في ذلك اليوم لم يكن يدري ماذا حدث لسامية . . . قال إن لقاءه بأبي سليم - قبل أن يصحب سامية إلى ادريان تومسون - كان مشوباً بالتوتر ، خاصة بعد أن طلب إليه أن يترك سامية مع ادريان تومسون . . . لقد جعله هذا الطلب بالذات ، يستشعر الخطر عليها !!

وربما كان نبيل صادقاً فيما قال ، لكن الحقيقة المؤكدة ، أنه مهما شعر أو أحس فهو لم يكن يستطيع سوى الطاعة العمياء وتنفيذ ما يؤمر به . . . وعلى كل فلقد كان عليه أن يعود إلى مكتبه بعد مغادرته لمقهى « بالبو » لإنجاز بعض الأعمال . . . غير أنه ما أن وصل إلى المكتب ، حتى وجد رسالة من أبي سليم يطلب إليه أن يلتقي به على الفور . . . ولذلك ؛ فلقد طلب إلى مارشيللا أن تبلغ سنيور ألبرتو اجنازيو ، أنه سوف يتصل به لتحديد موعد اللقاء ومكان العشاء . . . لكنه عندما التقى بأبي سليم كان هذا يحمل إليه مفاجأة . . . فلقد طلب إليه أن يسافر إلى نابولي .

« إمتى ؟! » .
« دلوقت !! » .

هم نبيل بالاحتجاج عندما نظر الرجل في ساعته مغمغماً :

« فاضل على ميعاد القطر ساعة وربع ! » .

في تخاذل جاء صوته :

« بقى ده معقول يا أبو سليم ؟! » .
« انت نسيت ان وراك شغل هناك ؟! » .
« مانسيتش بس . . . . » .

« وإن اسكالكو بدأ يتضايق من قعادك في روما ؟! » .

« طب وسامية ؟! » .

« سامية معزومة على العشاء ! » .

« طب ما أنا معزوم معاها ! » .

« اعتذر لها ! » .

« وأسيبها تسهر مع ألبرتو لوحدها ؟! » .

« انت بتغير عليها يا نبيل ؟! » .

كانت نظرات الرجل تخترق عينيه اختراقاً جعل من محاولة المقاومة عبثاً ، لا طائل من ورائه . . . تحرك أبو سليم خطوة نحو الباب كما هي عادته عندما ينتهي من جولة مع نبيل قائلاً :

« انت حتطلب سامية دلوقت وتعتذر لها ! » .

« ما اعتقدش اني حالاقيها رجعت دلوقت ! » .

« خلاص . . . سيب لها رسالة ! » .

« وأقول لها أنا حارجع إمتى ؟! » .

« ما تقولش حاجة ! » .

صمت أبو سليم لثوان ثم أردف :

« ولا تقولهاش انت مسافر فين ! » .

انقبض قلب نبيل ـ هكذا قال بالحرف الواحد ـ أحس بوطأة الذنب تكاد تكتم أنفاسه ، أحس أن سامية سوف تدخل اليوم ذلك الجحيم الذي خطا إليه من قبل ، جاءه صوت الرجل قبل انصرافه :

« ولا ترجعش من نابولي إلا لما أقول لك ! » .

* * *

ظلت سامية لساعات ضائعة النفس مبددة الخواطر مشتتة الفكر ، لم تكن تدري ماذا تفعل ، وكيف تكون خطوتها الأولى ، ألقت نظرة سريعة على رسالة

نبيل ـ ربما للمرة العاشرة ـ وعادت شكوكها تجتاحها اجتياحاً ، فكرت في اللجوء إلى الشرطة لكنها عدلت عن الخاطر فلقد بدا لها حديث البائعة منطقياً ، مرت الساعات فإذا كل الطرق قد سدت في وجهها . . . لم يكن أمامها سوى ادريان تومسون . . . همت إلى حقيبة يدها بحثاً عن رقم تليفونه لكنها في لحظة جمدت في مكانها وقد استبد بها اليأس ، فلقد تذكرت أنها وضعت رقم التليفون في حافظة نقودها زيادة في الحرص . . . هبت في الخارج ريح اهتز لها زجاج النافذة فأحست بجسدها كله يرتجف . . . كانت الآن عارية من كل حماية ، كانت مفلسة ، وفي دولة غريبة ، ونبيل قد اختفى ، ولا سبيل أمامها سوى الانتظار ، فإلى متى ؟!

* * *

وانتظرت سامية لثلاثة أيام كاملة . . . وهي ، عندما تتذكر تلك الأيام الثلاثة ، وحتى اليوم يشحب وجهها شحوباً عظيماً ، دون أن تستطيع مرة أن تحكي كيف كانت وكيف أحست وكيف عاشت . . . كانت تنتظر مكالمة من ادريان تومسون في كل يوم دون جدوى ، كما كانت تنتظر ـ بجنون ـ مكالمة من نبيل سالم . . . ولقد فكرت في لحظات يأس مميت ، أن تتصل بألبرتو اجنازيو وأن تطلب عونه . . . لكنها دائماً ما كانت تتذكر جملته تلك المرحة الظاهرة البراءة بكثير من الوجل والشك ، عندما قال : « ها أنا قد تخلصت من وغدك المصري وسأنفرد بك الليلة ! » . . . اجتاحها ذلك الرعب الذي عزته في البداية ألى تربيتها الشرقية لكنها ، كلما أمعنت التفكير في الجملة كان الشك ينشب مخالبه في صدرها . . . وكان آخر ما توصلت إليه هو الاتصال بالسفارة المصرية في روما ، ولكن ، ليس قبل أن تعطي لنبيل الفرصة كاملة . . . ولقد قالت لي سامية فهمي أنها كانت موقنة من شيء واحد ، فلو أنها اتصلت بالسمارة ، فلسوف تكون تلك الخطوة هي آخر المطاف مع نبيل . . . ولم يكن هذا الأمر سهلاً !

حتى كان اليوم الثالث ، تناولت طعام الإفطار في غرفة الطعام الصغيرة

الأنيقة ، وكانت قد قررت مغادرة الفندق في جولة تروح بها عن نفسها بعد ليلة لم يزر فيها النوم عينيها إلا لماماً . . . تقدمت من موظفة الاستقبال كي تسلمها المفتاح عندما اعترض طريقها مدير الفندق . . . وفي أدب شديد حياها الرجل :

« بونجورنو سنيوريتا فهمي ! » .

« بونجورنو سنيور ! » .

« إن لك الآن سبعة أيام في الفندق ، ألا تفكرين في أن تدفعي شيئاً تحت الحساب ! » .

بدا السؤال بريئاً ومنطقياً في نفس الوقت ، لكن الأرض مادت تحت قدميها حتى لقد ترنحت وكادت تسقط لولا أن لحقتها يد الرجل بسرعة :

« ماذا بك سنيوريتا فهمي ؟! » .

بذلت أقصى ما كانت تملك من جهد كي تتماسك وتتمالك نفسها حتى تواجه الرجل في ثبات :

« سنيور . . . هل أستطيع التحدث إليك لدقائق ؟! » .

« بكل تأكيد . . . ولكن . . . . » .

قاطعته في حدة :

« إنني بخير ، كل ما أرجوه أن تستمع إلي لدقيقة أو دقيقتين ! » .

وعندما جلست على المقعد المواجه لمكتبه قالت وقد استعادت بعضاً من قوتها :

« منذ يومين سرقت حافظة نقودي ! » .

« آه . . . » .

قالها الرجل في ابتسامة ساخرة وهو يضطجع في مقعده شأن من استمع إلى

مثل هذا الكلام كثيراً ويعرف كيف يعالج الأمر . . . صعقت ابتسامته سامية فانتبهت كل حواسها واعتدلت في جلستها وهي تواجهه في حدة :

« **إن لي صديقاً هو في الواقع خطيبي ، غادر روما لبضعة أيام ولسوف يعود اليوم أو غداً !** » .

« **آه !** » .

مرة أخرى يطلق الرجل تلك الصيحة الساخرة وهو يتأرجح بمقعده ذات اليمين وذات اليسار فانفجرت رافضة أسلوبه :

« **إذا لم يأت حتى مساء اليوم ، فلسوف اتصل بالسفارة المصرية في صباح الغد كي أدبر الأمر !** » .

قالت هذا وهي تخرج جواز سفرها وتلقيه أمامه بينما كان يعتدل في جلسته فاغر الفم وكأنه أخذ على حين غرة ، واستطردت سامية .

« **وها هو جواز سفري تستطيع أن تحتفظ به حتى تطمئن !** » .

نهض محاولاً الحديث لكنها أردفت :

« **هذا مع العلم بأني لن أغادر الفندق حتى اتصل بالسفير ويأتي من يحل المشكلة !** » .

اندفعت نحو الباب لكن الرجل كان أسبق إليه منها وكأن مساً كهربياً قد أصابه :

« **سنيوريتا فهمي . . . أنا لم أقصد إلى . . . .** » .

« **حتى ولو كنت تقصد ، فهذا حقك !** » .

في لحظة تحول الرجل من النقيض إلى النقيض وهو يقول وكأنه يستعطف :

« **أقسم لك بأني لم أقصد إلى ازعاجك وليس هناك ما يدعو إلى الاتصال**

بالسفارة ، كما أنه ليس هناك ما يدعو إلى ترك جواز سفرك ولك أن تغادري الفندق وقتما شئت حتى يعود خطيبك من رحلته ! » .

اجتاحت الدهشة سامية وهي تنظر إلى الرجل الذي كان يتوسل بالفعل ، لزمت الصمت فبدا لها وكأنه يرتجف، انتابها إحساس رهيب بأن كل شيء في حياتها أصبح عبثاً فما هذا الذي تراه . . . ازداد توتر الرجل مع صمتها فإذا به يضع يده في جيبه كي يخرج حافظة نقوده :

« وإذا كنت في حاجة إلى بعض المال فأنا على استعداد لإمدادك بما تريدين ! » .

مع الدهشة البالغة ، سرت الراحة إلى نفس سامية ، مع شكوكها المتنامية اكتشفت أن الرجل لم يخطىء تمتمت وكأنها تعتذر عن حدتها :

« آسفة . . . ربما كنت عصبية بعض الشيء بعد هذا الذي حدث ! » .

« هل أستطيع لك شيئاً ؟! » .

« أشكرك ! » .

« أرجو ألا تقلقي بخصوص الفندق ! » .

« دعنا ننتظر حتى مساء اليوم ولسوف نرى ! » .

قالت جملتها الأخيرة وكأنها تحدث نفسها ، همت بمغادرة الغرفة عندما قفز الرجل نحو مكتبه كي يخطف جواز سفرها ويعود به إليها :

« سنيوريتا فهمي . . . جواز سفرك ! » .

... ...

... ...

صعدت سامية إلى غرفتها وقد اتخذت قراراً بألا تغادر الفندق حتى صباح اليوم التالي . . . فإذا لم يتصل بها نبيل ، أو ادريان تومسون ، فلسوف تذهب إلى السفارة وتطلب مقابلة السفير ، وتضع الأمر بين يديه !!

في تمام الواحدة والنصف ظهراً ، دق جرس التليفون في غرفة سامية فهمي ، كانت مستلقية فوق الفراش فيما بين اليقظة والنوم ، انتفضت جالسة وهي تختطف السماعة :

« آلو » .

جاءها صوت ادريان تومسون من الطرف الآخر :

« لقد انتظرت لثلاثة أيام دون جدوى ، ويبدو أنك صرفت النظر عن الأمر كله ! » .

تساءلت في لهفة وكأنها لا تصدق أذنها :

« مستر تومسون ! » .
« أنا هو ! » .
« أنا لم أصرف النظر عن الأمر . . . كل ما هنالك أني وقعت في مأزق ! » .
« رباه . . . أي مأزق هذا ! » .

همت بأن تذكر له ما حدث ، لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة خوفاً من أن ينتابه الظن بأنها تبحث عمن يقرضها مالاً ، ضحكت ضحكة خفيفة وهي تقول :

« لقد ضاع مني رقم تليفونك ! » .
« وهل أستطيع أن أراك ؟! » .
« أرجوك ! » .
« أذن فلنلتق في . . . . » .

قاطعته .

« لا . . . أرجو أن تمر علي في الفندق ! » .

« أوكي . . . متى تريدين أن أمر عليك ؟! » .

« الآن إذا أحببت ! » .

« سأكون عندك بعد نصف ساعة ! » .

أعادت سامية سماعة التليفون وهي تتنفس الصعداء ، لكن دموعها كانت أسرع حتى من أنفاسها !!

* * *

الفصل الثامن والعشرون

لو عرفت كم أحبك ؟!

قال لي عادل مكي : إن كل ما حدث لسامية في روما ، كان بالطبع موضوعاً ومصنوعاً ومرتباً ترتيباً شديد الدقة . . . وأن أبا سليم كان هدفه الأول هو أن تفقد سامية نقودها حتى تحتاج إلى نبيل ، وتصبح حاجتها تلك هي بداية الطريق الذي أراد أن يقودها فيه . . . غير أن موقف سامية الصارم ـ حتى مع نبيل ـ فيما يختص بالمال كان بلا شك عقبة في سبيل تحقيق تلك الخطوة الهامة . . . لذلك ، فلم يكن كافياً ـ من وجهة نظره ـ أن تفقد سامية نقودها فقط ، بل كان لا بد من إضعافها وتحطيم مقاومتها !

لكنه ، وهو يحكي عن تلك المرحلة ، ضحك فجأة ضحكة بدت لي غريبة . . . وعندما سألته عن سبب ضحكته تلك ، قال وعيناه تسبحان إلى بعيد وكأنه يلتقط المعاني بنظراته من مكان مجهول :

« الغريبة إن الرجل اللي سمى نفسه أبو سليم ده ، رجل مخابرات ممتاز ، ومدرب تدريب على مستوى عالي جداً ، وفوق كل ده له تجربته الغنية . . . ورغم كده ، وقع في غلطة صغيرة قلبت له كل حساباته ! » .

صمت عادل ريثما أشعل سيجارة راح ينفث دخانها في الهواء على مهل ، ثم التفت نحوي وقال :

« ولما انتبه للغلطة اللي غلطها ، ولقي نفسه قدام واقع جديد ما عملش حسابه ، ارتبك ، واتصرف تصرفات ما تصدرش عن مبتديء . . . وخلى بذور

الشك في نفس سامية تنمو وتكبر ويبقى لها في الوقت المناسب ، تأثيرها الواضح !! » .

ففي نفس اليوم الذي ركب فيه نبيل القطار المتجه إلى نابولي ، كان أبو سليم يطير إلى إسرائيل على متن طائرة شركة العال . . . ولم يكن منطقياً أن تكون سامية فهمي بالتحديد هي سبب سفره إلى إسرائيل ، ولا بد من أن تكون هناك أمور أخرى استلزمت سفره ، غير أن المؤكد ، أن سامية فهمي كانت واحداً من الموضوعات التي أراد أن يناقشها مع قيادته في تل أبيب !

وفي حقيقة الأمر ، فإن قليلاً من التفكير سوف يقودنا إلى الحقيقة دونما قدر كبير من الجهد . . . فإن سفر أبي سليم في ذلك الوقت بالذات ، كان يعني ثقته المطلقة في أن كل ما أمر به أو خطط له سوف يسير بدقة نحو الهدف . . . كان مثلاً قد اطمأن على خطة نشل حافظة سامية فهمي ، ولم يكن صعباً عليه أن يستأجر نشالاً ، وأن يضع له الخطة ، كي ينفذها بدقة ، حتى ولو كان النشال في غير حاجة إلى هذه الخطة . . . ولقد كان سفر أبي سليم ، يعني أيضاً أنه قرر أن يطيل المدة التي ستعاني فيها سامية فهمي من قلة المال ، وأن يضغط ـ في نفس الوقت ـ على أعصابها ضغطاً متصلاً حتى تصبح أكثر ما تكون ضعفاً . . . ويصبح تدخله ـ بواسطة ادريان تومسون ـ مضمون النجاح !

ولولا ما تفوهت به سامية ، أمام واحد من عملائه ، وهو مدير الفندق ، من اعتزامها الاتصال بالسفارة المصرية في روما ، ومقابلة السفير حتى تحل الاشكال ، لطالت مدة غيابه أكثر . . . فلقد كان هذا الذي تفوهت به بالضبط ، بمثابة قنبلة ستنفجر في كل ما بناه طوال شهور مضت ، وكان هذا بطبيعة الحال آخر ما يريدونه أو يتصورونه . . . ولقد أدهش سامية ذلك الارتباك الذي حدث لمدير الفندق لمجرد ذكر السفارة ، أدهشها هذا كما لفت نظرها انقلاب موقف الرجل من النقيض إلى النقيض لغير سبب واضح أو مقنع . . . فهي نزيلة عادية من نزلاء الفندق ، وهي منذ أن وصلت ، لم يبد على المدير أو الموظفين أنهم يولونها رعاية من نوع خاص ، أو أن أحدهم ـ على الأقل ـ يعرف نبيلاً !!

فما الذي بدّل موقف المدير ، فبعد أن كان متنمراً ساخراً مما قالته عن سرقة حافظة نقودها ، تحول إلى إنسان يكاد يتوسل حتى تقبل منه قرضاً . . . ما الذي غيرّ موقفه بهذه السرعة ؟!

وبالتأكيد ، فلقد كانت سامية فهمي على حق في ظنونها . . . فإن اتصالها بالسفارة أو السفير ، كان يعني إنهيار العملية برمتها ، أو ، على الأقل ، تأجيلها إلى فترة طويلة حتى يُنْسَى الأمر تماماً !

وعلى كل فإن سامية لم تجد تفسيراً لما حدث ، ولم يكن أمامها سوى أن تطرحه جانباً دون أن تنساه ، كان يكفيها أنها خرجت من المأزق . . . لذلك ، فعندما جاءتها مكالمة ادريان تومسون ، كانت بمثابة القشة التي ستنقذها من غرق محقق ، فتشبثت بها !!

* * *

بدا ادريان تومسون لسامية فهمي نموذجاً مثالياً للشاب المتحضر المثقف في نفس الوقت ، ولقد وصل إلى الفندق بعد نصف ساعة بالضبط . . . وما أن دلفت إلى جواره في السيارة ، حتى التفت نحوها متسائلاً :

« ماذا هناك يا سامية . . . يبدو أنك لست على ما يرام ! »

لم تدهش سامية لسؤال ادريان ، كان أمراً طبيعياً أن يبدو على وجهها آثار إرهاق أيام ثلاثة مضت عليها في قلق متصل . . . ولقد همت أن تذكر له ما حدث لها بعد مغادرتها إياه في مقهى بالبو مباشرة ، لكنها أمسكت عن ذكر ما حدث حتى لا يظن بها ظناً قد يضعها في موقف ضعف أو حرج . . . ولذلك ، وعندما غمغمت بكلمات تعني أنها أصيبت بصداع مفاجىء ، بدا على ادريان أنه لا يصدق ما تزعمه ، لكنه التزم الصمت ولم يعلق . . . بل راح يقود السيارة في شوارع روما المزدحمة ، حتى وصل إلى شارع يقع في وسط المدينة ، لكنه شارع ضيق يبدو وكأنه شق بين الجدران . . . في هذا الشارع كان ثمة مطعم صغير ذو باب من طراز معماري قديم . . . دلفا إليه فإذا المكان شبه خال من

الرواد ، تنساب في أرجائه موسيقى « مانتوفاني » الخفيفة فكأنها تعطر الهواء بعطر خفي . . . ما أن اتخذا مكانيهما حول إحدى الموائد المنزوية ، حتى دخل ادريان في الموضوع مباشرة .

« هل فكرت فيما تحدثنا فيه ؟! » .

« الحقيقة إنني فكرت كثيراً » .

« وماذا كان قرارك ؟! » .

نظرت إليه سامية طويلاً ، بدا لها وجهه وكأنه اكتسى بقناع خفي لا ملامح له ، كان عليها أن تجيب ، وكانت تريد أن تجيب . . . لكن شيئاً ما كان يمنعها من الإجابة فراحت تتلاعب ببعض الأشياء الموضوعة فوق المائدة . . . حتى إذا طال انتظار ادريان . . . عاد يسألها :

« هل أنت متأكدة من أن كل شيء على ما يرام ؟! » .

أرادت سامية أن تهرب من سؤاله فقالت :

« إني فقط أريد أن أعرف نوعية الأخبار التي تريدها ! » .

هم بالنطق لكنها رفعت يدها كمن تطلب منه الانتظار حتى تفرغ من حديثها ، لزم الصمت فأردفت :

« إن الذي فهمته منك ، أنه ليس للوكالة مكتب في القاهرة ، وبالتالي ، فليست هناك وسائل اتصال مباشرة . . . وقد أستطيع الحصول على أخبار لا تحتمل الانتظار ، فكيف أرسلها إليك قبل أن تعرفها أو تقع عليها وكالات الأنباء الأخرى التي تملك من الوسائل ما تعرفه أنت خيراً مني ؟! » .

قال ادريان وكأنه كان في انتظار ما قالته تماماً :

« ان معك الحق في كل ما ذهبت إليه يا عزيزتي سامية . . . ولكن السؤال يبقى معلقاً بلا إجابة ! » .

« ما الذي تعنيه بالله عليك ؟! » .

« هل تقبلين العمل معنا ؟! » .

« نعم . . . وإلا لما كنت هنا الآن ! » .

ابتسم ادريان وهو يشير إلى إحدى فتيات المطعم قائلاً :

« أذن ، فلنحتفل أولاً ، ونشرب نخب الاتفاق ! » .

« ليكن . . . فأنا في حاجة إلى كأس من العصير ! » .

« وهل يضايقك أن أطلب لنفسي بعضاً من النبيذ ؟! » .

« اطلاقاً ! » .

وهكذا . . . راح ادريان يتحدث إلى سامية في هدوء وتؤدة من يختار مواقع كلماته ومعانيها بدقة . . . قال إنه عندما فكر في إنشاء هذه الوكالة مع مجموعة من أصدقائه ، لم يدر بخلدهم أنهم سوف يستطيعون ـ من البداية ـ منافسة وكالات الأنباء العظمى ، لذلك . . . فإن خطتهم تعتمد على ذلك النوع من الأخبار الذي لا تنشره الصحف عادة ، لا لأنه غير مهم ، ولكن لأن أهميته تجعل من العسير الحصول عليه !

« هل لك أن توضح أكثر ؟! » .

قال ادريان إنه سوف يعطيها مثلاً بسيطاً وحياً في نفس الوقت . . . فلقد نما إلى علمه أن ثمة خلافاً قد وقع بين المهندسين السوفييت والمهندسين المصريين حول بعض التفاصيل الخاصة بالسد العالي في مرحلته الأخيرة التي كان العمل يجري فيها على قدم وساق . . . ورغم أن مصدر هذا الخبر لا يرقى إليه الشك، فإنه لم ينشر بطبيعة الحال في الصحف المصرية، ولم تهتم به أو لم تحصل عليه بعد وكالات الأنباء العالمية. . . وأن خبراً مثل هذا إذا ما وُضع في مكانه الصحيح من مجموعة الأخبار التي تعرف عن السد العالي . . . فمما لا شك فيه أن قيمة الخبر ، في الوقت المناسب ، سوف تصبح ذات فعالية لا شك فيها ، كما أنها ـ بالتأكيد ـ سوف تتبنى وجهة النظر المصرية . . . لأنها ـ كمصرية ـ ستعرف بالضبط ما الذي حدث . . . وبدلاً من التشويش الذي

تتعمده بعض وكالات الأنباء حول التجربة المصرية التي يرى أنها مثيرة بكل المعاني ، فإن تقريراً يصدر عن وكالتهم ، سوف تتلهف الصحف لنشره ، كما أنه سيضع الأمور في نصابها الصحيح !!

جاء النبيذ كما جاء عصير الفاكهة الذي طلبته سامية ، واستطرد ادريان يشرح كيف تم الاتصال بينه وبين شركائه في لندن ، وأن الاتفاق قد تم بينهم فيما يختص بها ، على كل التفاصيل . . . وأن أية أخبار اقتصادية كانت أو سياسية أم صناعية أو حتى حربية ، سوف تلقى اهتماماً شديداً من الوكالة التي قررت أن تتعاقد معها على أن تكون تحت الاختبار لمدة ثلاثة أشهر بمرتب يعادل مائتي جنيه مصري . . . على أن يزيد المرتب بعد ذلك حسب تقييم نشاطها في هذه الشهور الثلاثة ، مع وعد يلتزم به أمامها ، بمكافأت مجزية عند الحصول على أخبار تستحق المكافأة !

ما أن انتهى ادريان من حديثه ، حتى أحست سامية بأن رأسها يدور ، وأن الأرض تميد تحت قدميها . . . كان الشاب الجالس أمامها يتحدث في ثقة وبساطة من سوف يصدق في كل كلمة يقولها ، ومرة أخرى راحت تبذل جهداً حقيقاً كي تتماسك أمامه حتى لا يبدو عليها أثر ذلك الانفعال أو بالأصح تلك الفرحة التي تفجرت في رأسها . . . فسألته :

« ولكنك لم تخبرني عن كيفية الاتصال بك أو إرسال الأخبار إليك في حينها !! » .

« هناك وسائل عديدة ، فكلما تجمعت لديك مجموعة من الأخبار ، يكفي أن ترسلي لي خطاباً على مكتبنا في لندن تقولين فيه إن لديك أخباراً سارة . . . وإذا ما كان . . . . » .

قاطعته هاتفة :

« مهلاً عزيزي ادريان ، ما معنى كلمة أخبار سارة هذه ؟! » .

« هل تفكرين أن لديكم رقابة على البريد في مصر ؟! » .

« قد يكون الأمر كذلك ولكن . . . . . . » .

قاطعها في حسم :

« ليس هناك محل لكلمة « ولكن » هذه يا صديقتي . . . فأنت لا تعرفين ما الذي يمكن أن يحدث لو أن إحدى الوكالات العملاقة عرفت تلك الأخبار ، إن معنى هذا هو تحطيم المشروع تماماً ، إنهم يسحقون كل من يقف في طريقهم أو يحاول منافستهم دون رحمة . . . لذلك ، فالسرية هنا مطلوبة حتى نستطيع مواجهة أسماك القرش المفترسة تلك التي تسيطر على أنباء العالم ، ولا تسمح ، ولن تسمح ، للأسماك الصغيرة بأن تعبث من حولها . . . أو . . . أو أن تسبقه بخبر ! » .

كان حديثه مليئاً بالحرارة ، كما كان ـ بالنسبة إليها ـ منطقياً ولا غبار عليه ، فسألته :

« وماذا بعد أن أرسل الخطاب ؟! » .

« بعدها تأتي مسؤوليتي . . . فإما أن أطير إلى القاهرة ، أو أرسل إليك من يتسلم منك ما جمعت من أخبار . . . أو ، إذا استطعت ، أن تطيري أنت إلى لندن أو روما ! » .

عاد الصمت يلفهما من جديد ، استغرقت سامية في التفكير . . . لم يبد لها فيما قاله ادريان تومسون شيء يتناقض مع ما تعرفه . . . انتبهت من أفكارها فإذا هو يقول :

« وليس لنا سوى شرط واحد أعتقد أنك ـ بعد هذا الذي ناقشناه معاً ـ سوف تفهمينه جيداً ! » .

« وما هذا الشرط ؟! » .

« السرية !! » .

رفعت حاجبيها دهشة فأردف :

« إن للوكالات الكبرى عندكم في القاهرة مندوبين معتمدين من

الحكومة ، ومعروفين لكم جميعاً ، أليس كذلك ؟! » .

« هذا طبيعي ! » .

« لكن غير الطبيعي والذي ربما لا تعرفينه ، أن لكل وكالة من تلك الوكالات جيشاً جراراً من المندوبين الذين يتسقطون الأخبار من كل مكان دون أن يعرفهم أحد ! » .

غمغمت سامية :

« لعلي سمعت شيئاً عن هذا ؟! » .

« ولذلك فالسرية مطلوبة حتى لأقرب الناس إليك ! » .

« ما الذي تعنيه يالله عليك ؟ » .

« إن كلامي واضح ! » .

« فماذا عن مستر جيزي وهو الذي عرفني بك وجاء بي إليك ! » .

« إن مستر جيزي يعلم أننا التقينا لكنه لا يعرف كيف سنعمل ! » .

« وماذا عن أمي مثلاً ؟! » .

« من الأفضل ألا تعرف حتى تستقر الأمور ! » .

« وكيف أفسر لها حصولي على المال ؟ » .

« إنك ـ في البداية على الأقل ـ لن تحتاجي إلى هذا ! » .

« أعترف لك أني لم أفهم مقصدك ! » .

« أعتقد أن الأمر في البداية لن يكون في حاجة إلى تفسير ، أما فيما بعد . . . فإن الحصول على عقد مع إحدى المجلات أو الصحف الإيطالية ، من الممكن أن يكون مبرراً كافياً ! » .

« هل معنى هذا أني سأراسل إحدى الصحف أو المجلات الإيطالية أيضاً ! » .

« هذا يتوقف على مدى كفاءتك ! » .

« ولكن . . . لم كل هذا التعقيد والأمر كما يبدو لي بسيط ؟! » .

« لأن الواقع المحيط بنا مُعَقّد بالفعل ! » .

أطرقت سامية قليلاً بينما كان ادريـان يرقبهـا بعينين يقظتين ، حتى إذا مـا رفعت رأسها إليه قالت :

« أوكي . . . ليكن لك ما تريد ! » .

تنفس ادريان الصعداء وهو يتمتم :

« إننا نسبح في بحر مليء بالحيتان يا سامية ! » .

انتابها حماس مفاجىء فهتفت :

« ولكننا قادرون على إثبات وجودنا ! » .

أشرق وجهه بابتسامة واسعة وهو يقول :

« كل ما أرجوه ألا تخذليني أمام شركائي ، وألا تخذلي الوكالة وهي تخطو خطواتها الأولى في الشرق الأوسط ! » .

أثرت جملته فيها تأثيراً قوياً فهتفت مرة أخرى :

« لا عليك ، لن أخذلك ولن أخذل الوكالة ! » .

« هل هذا وعد ؟! » .

مد يده نحوها فلم تتردد طويـلاً ، وجدت نفسهـا تمد يـدها نحـو يده كي يتصافحا عبر المائدة :

« إنه وعد يا ادريان ! » .

أخرج ادريان من جيبه ، على الفور ، مظروفاً قدمه إليها :

« في داخـل هذا الـظرف مرتب الأشهـر الثـلاثـة القـادمـة ، وهي أشهـر الاختبار ! » .

خفق قلب سامية خفقاناً شديداً ، أحست وكأن طاقة في السماء قد انفتحت لها . . . كان معنى هذا أن الظرف يحتوي على ما يوازي ستمائة جنيه مصري

بالليرة الإيطالية أو الدولار أو الاسترليني . . . تناولت منه الظرف وعيناها تبرقان ببريق امتنان لا حدود له ، ما أن وضعت الظرف في حقيبة يدهـا حتى تذكـرت نقودها التي نشلت فنقلت الحقيبة كي تضعها فوق ساقيها ، وكان ادريان يقول :

« لم يعـد بـاقيـاً كي نستكمـل الإجـراءات الشكليـة ، ألا أن تكتبي طلب إلتحاق بالوكالة ! » .

وصل طعام الغداء وبدأت فتاة المطعم في وضع الأطباق وملأت خياشيم سامية رائحة الشواء فجرى لعابها وتذكرت أنها ـ منذ ثلاثة أيام ـ لم تتناول وجبة كاملة . . . ساد الصمت بينهما حتى مضت فتاة المطعم فسألته وهي تقبل على الطعام بشهية :

« وماذا أكتب في هذا الطلب ! » .

كان هو الآخر مقبلاً على الطعام فقال بسرعة :

« كل شيء عنك ! » .

« ما معنى هذا ؟! » .

« اعلم أن ما سأقوله سيبدو لك غريباً بعض الشيء ، ولكنه النظام المتبع في أوروبا كلها ! » .

« لم أفهم بعد مقصدك ! » .

« عليـك أن تكتبي كل شيء عنـك ، عن والـدك ووالـدتـك وأقـربـائـك وأصـدقائـك ومعـارفـك ووظـائفهم وعـلاقـاتـك إلى آخـر كـل هـذه الأشيـاء الروتينية ! » .

بدت عليها الدهشة فأردف :

« إن مثـل هذه الأشيـاء تصبح ذات فـائدة عـظيمة في الـوقت المناسب ، ولسوف تدركين ـ إذا ما قدر لنا أن نستمر معـاً ـ أن الحصول على خبـر أصبح الآن علماً علينا أن ندرسه جيداً وأن نتقن فنونه ونتدرب عليه ! » .

« ولكنك لم تعطني ذلك العنوان الذي سأراسلك عليه ! » .

« سوف نلتقي قبل سفرك مرة ، كي تعطيني طلب الإلتحاق وأعطيك العنوان ! » .

« ألا ترى أن ما تطلبه مني غريب بعض الشيء ؟! » .

توقف ادريان عن الأكل ، سدد إليها نظرات بدت لها غريبة ومخيفة أيضاً ، سرت في جسدها رعشة خفيفة لكنها سرعان ما اختفت مع انسياب صوته العميق :

« إن قيمة الصحفي تتوقف إلى حد كبير على قيمة علاقاته بنوعيات مختلفة من الناس ومصادر متعددة للأخبار . . . وإذا فرضنا أني مقتنع بكفاءتك وقدرتك على إمدادنا بما سوف نحتاج إليه . . . فكيف يقتنع هؤلاء الذين يكونون مجموعة الإدارة في لندن ؟! » .

صمتت سامية ملياً ، أحست أنه دائماً ما يجد إجابة عن كل سؤال ، وسرعان ما ابتسمت وكأنها تعلن اقتناعها بما قال وهي تغمغم :

« إني أفكر في السفر بعد غد ! » .

« بمثل هذه السرعة ؟! » .

« لقد غبت طويلاً عن المجلة ، ولا بد من العودة ! » .

« ولكني فهمت منذ البداية أنك جئت لشراء سيارة ، فهل عثرت على ضالتك ؟! » .

قالت سامية وهي تزفر :

« لقد صرفت نظري عن شراء السيارة ، فليس معي ما يكفي من نقود ! »

« ولكن . . . . » .

قاطعته في حسم :

« لا عليك يا ادريان . . . إن الأمر يبدو خاصاً للغاية ! » .

طلبت سامية فهمي من ادريان تومسون ألا يوصلها إلى الفندق ، قالت له إنها في حاجة إلى أن تتجول في شوارع روما وحدها . . . ضرب لها موعداً في السابعة من مساء اليوم التالي في مقهى بالبو . . . غادرت المطعم وهي تحتضن حقيبة يدها في حرص ، في صدرها عشرات المشاعر وفي رأسها أمواج بلا نهاية من أفكار كانت تتلاطم دون أن تعثر لها على إجابة شافية . . . راحت تتساءل كيف عرف ادريان تومسون برغبتها في شراء سيارة فهي لم تتحدث إليه في الأمر كما أنها لا تذكر أن نبيلاً قد ذكره أمامها لسنيور جارديني . . . بدت الأمور مختلطة أشد ما يكون الاختلاط ، في حقيبة يدها مبلغ من المال لم تحلم يوماً بأن تمتلكه . . . كانت قادرة الآن على شراء سيارة من القاهرة بالجنيهات الستمائة التي حصلت عليها . . . اكتشفت وهي تسير في شوارع روما قابضة على حقيبة يدها أنها لا تريد أن تفكر في نبيل ، وأنه كلما خطر ببالها هربت بأفكارها منه . . . اكتشفت أن شكوكها لا بد من أن تكون ذات صله بما حدث ويحدث . . . وليس منطقياً أن يكون هناك دخان بلا نار موقدة ، نار وضعها نبيل سالم فيها بتصرفات قد تبدو عادية تماماً ، لكنها صنعت بها وهي غريبة في بلد غريب ما لم يخطر لها على بال . . . انتابها إحساس غامر بأنها ستذهب إلى الفندق كي تجد رسالة من نبيل ، ألح عليها هذا الخاطر إلحاحاً لم تجد له مبرراً . . . اتخذت قراراً بأن تستميت في العمل مع ادريان حتى تبرهن لنبيل أنها تستطيع ـ وهي في القاهرة ـ أن تحقق ما حققه هو في الخارج . . . عندما كلت قدماها من السير أوقفت سيارة أجرة ، وأعطت السائق اسم الفندق وعنوانه ، وكانت قد انتوت ، فور وصولها ، أن تدفع الحساب استعداداً للعودة !!

* * *

« هل لك أن تخبرني بكم أنا مدينة لكم ؟! » .

هكذا قالت لموظف الفندق الذي نظر إليها في دهشة :

« هل ستغادريننا بمثل هذه السرعة سنيوريتا فهمي ؟! » .

« لقد انتويت العودة إلى القاهرة بعد غد ! » .

« وهل تريدين أن أحجز لك مكاناً على الطائرة ؟! » .

« نعم . . . المصرية من فضلك ! » .

« حسن سنيوريتا . . . وحتى أجهز لك كشف الحساب ، هناك من ينتظرك منذ ساعة ! » .

قال الموظف هذا وهو يومىء نحو الصالون الملحق ببهو الفندق ، التفتت سامية إلى حيث أشار وإذا نبيل يجلس هناك مستغرقاً في قراءة مجلة إيطالية !

... ...

... ...

« إزيك يا نبيل ؟! » .

فاجأته بالسؤال ولم يكن قد انتبه لوصولها ، انتفض واقفاً ، كان شاحباً ، زائغ العينين قلقاً .

« إيه اللي حصل يا سامية ؟! » .

« خيراً ! » .

« الراجل مدير اللوكاندة قال لي إن . . . . » .

قاطعته :

« وده يهمك ؟! » .

« سامية ! » .

« أرجوك يا نبيل . . . أنا مش عاوزة أزعل معاك قبل ما أسافر ! » .

« تسافري ؟! » .

« بعد بكرة إن شاء الله ! » .

« والعربية ؟! » .

« مش عاوزه عربيات . . . خلاص ! » .

« إذا كانت فلوسك اتنشلت ما يهمكيش يا سامية ، فداكي ، وأنا تحت أمرك ! » .

كان نبيل الآن يرتجف حقاً ، كان بادي القلق . . . في توسل قال :

« أنا اضطريت أسافر غصب عني ! » .

« ضروري !! » .

« إنتي ليه بتعامليني بالشكل ده ؟! » .

« نبيل . . . أنا تعبانة . . . ممكن مانتكلمش في الموضوع ده النهار ده ؟! » .

« لا مش ممكن ! » .

« نبيل !! » .

« ومش ممكن تسافري وإنتي زعلانة ! » .

« أنا مش . . . . » .

« ومش حاتسافري من غير عربية كمان ! » .

« لاحظ إن الناس بتتفرج علينا ؟! » .

كان صوت نبيل يعلو لحظة بعد أخرى .

« أنا ما يهمنيش الناس ، ولعلمك كمان ، الناس هنا مابيهتموش بمشاكل غيرهم ! » .

« سامية . . . » .

« نبيل . . . أرجوك !! » .

« أنا اللي بارجوكي ما تظلمنيش ، بارجوكي تسمعيني . . . أنا من ساعة ما وصلت وعرفت اللي حصل لك من مدير اللوكاندة وأنا حا اتجنن ! » .

كان نبيل بالفعل في حالة ارتباك وقلق وخوف ، ولم يكن في حاجة إلى أن يؤكد هذا لسامية ، فلقد كان ارتباكه وقلقه وخوفه تعربد جميعاً فوق ملامحه وحركته . . . ولقد قال نبيل فيما بعد إنه كان خائفاً بالفعل ، مرتبكاً حقاً . . . ليس لأن سامية فقدت نقودها ، ولكن لأنه أدرك أن أبا سليم قد قذف بها إلى عجلته الجهنمية التي عانى منها كثيراً من قبل . . . وإنه فكر في أن يحذرها ،

لكنه تراجع فماذا يمكنٍ أن يقول لها ، وماذا يمكن أن تفعل هي ؟! . . . قال إنه كاد يبكي أمامها متوسلاً أن تغفر له ، ولقد تصاعدت الدموع بالفعل إلى عينيه وقد أدرك أن ثمة حاجزاً هائلاً قد هبط فيما بينهما ، وأنه لن يصل إلى سامية فهمي بعد الآن !

« سامية ! » .

« ممكن أروح أدفع الحساب وبعدين نتكلم ! » .

« الحساب ؟! » .

« طبعاً ! » .

« أمال إيه حكاية الفلوس اللي . . . . » .

« أنا اتنشلت صحيح إنما . . . . » .

صمتت ، وكان عليها أن تنتقي الكلمات ، هتف :

« إنما إيه ؟! » .

« أصلي قدرت أتصرف ! » .

« إزاي ؟! » .

رمته بنظرة عتاب صارخ .

« انت نسيت إنك قدمتني لادريان تومسون ؟! » .

« واتفقتوا ؟! » .

« ودفع لي مقدم ثلاثة شهور ! » .

سرت إلى ملامح نبيل ابتسامة واهنة أدهشت سامية ، لكنه قال :

« طب مش دي حاجة تستحق إننا نحتفل بيها ؟! » .

رفعت إليه عينيها فإذا نظرته ترقرق فيهما تلك النظرة الفاقدة الحيلة التي تعودتها منه في القاهرة . . . خفق قلبها بالحنان وهي تغمغم مازحة :

« أنا مش عارفة أنا لسه باحبك لحد دلوقت إزاي ؟! » .

عندما عادت إلى موظف الفندق كي تدفع الحساب ، كان نبيل قد غادرها كي يبدل ملابسه ويسعد للاحتفال باتفاقها مع ادريان تومسون . . . دفعت الحساب وصعدت إلى غرفتها وقد صفا ذهنها قليلاً . . . اجتاحها الحنين اجتياحاً نحو نبيل فأدركت ، وقلبها مليء بالأسى ، كم هي في حاجة إليه . . . فكرت في لحظة تفاؤل أن تناقشه في أمر عودته إلى مصر . . . عادت الأفكار تتجاذبها من جديد . . . ألقت بنفسها فوق الفراش وراحت تحملق في السقف . . . وكانت الآن تحلم بمستقبل تصبح فيه واحدة من الصحفيات اللواتي تتردد أسماؤهن على كل لسان ! !

كان الطريق يبدو لها معبداً ، ممتداً إلى مستقبل غارق في الألوان الطبيعية ! !

* * *

في مساء ذلك اليوم تناولت سامية العشاء مع نبيل سالم . . . كان يبدو مثل طفل ارتكب ذنباً يود لو أنها غفرته له . . . لانت عواطفها تماماً فلقد كانت عواطفه جياشة . . . طال بينهما الصمت فانتظرت منه أن يسألها عما بينها وبين ادريان تومسون ، لكنه لم يفعل . . . كان ضوء المطعم الخافت يحيل المكان إلى واحة تنساب فيها موسيقى فرقة مكونة من أربعة عازفين كانت أنغام عزفهم تسري في أوصالها .

« بتبص لي كده ليه ؟! » .

هكذا سبح صوتها إليه عبر المائدة ، فهمس :

« مش مصدق إنك هنا ! » .

« أمال حاتعمل إيه لما اسافر ؟! » .

« حافضل إستني لحد ما أشوفك تاني ! » .

ضغطت العواطف على أعصابها ضغطاً أفزعها ، أحست أن حبها لذلك الفتى يفوق كل ما تصورته ، فهي ، بالرغم من كل شيء ، لا تستطيع إلا أن

تحبه . . . أرادت الهرب مما كانت فيه فقالت :

« يعني ما سألتنيش عملت إيه مع ادريان تومسون ؟! » .
« مستني إنك تقولي لي ! » .

وهكذا راحت تحكي له ما حدث ، فبدا مستغرقاً ، في الاستماع إليها بانتباه شديد ، قصت عليه ما دار بينها وبين ادريان لكنها أغفلت مسألة العنوان وطلب التوظيف . . . ماجت الدنيا من حولهما بالأنغام فمد لها يده عبر المائدة ولم تستطع سوى الاستجابة ، نهض فنهضت ، أوسع لها الطريق فسارت إلى حلبة الرقص . . . وقف كل منهما تجاه الآخر لثوان لكنها سرعان ما أسلمته يديها ، وراحت تسبح به وسط الناس ، فكأنها فوق السحاب .

. . . .

. . . .

ظلا يرقصان طويلاً حتى خالت أن الزمن قد توقف أخيراً عند لحظات سعادة طالما حلمت بها . . . لزم نبيل الصمت ولم يفه بحرف . . . عندما رفعت إليه عينيها كانت عيناه تائهتين :

« ما لك يا نبيل ؟! » .
« مش عارف ! » .
« إيه هو اللي انت مش عارفه ! » .
« أنا مش عاوزك ترجعي مصر ! » .

ضحكت !!

« وأقعد هنا أعمل إيه ؟! » .
« ما هو ده اللي أنا مش عارفه ! » .
« طب ما ترجع انت مصر ! » .
« طب لو رجعت ، حاشتغل إيه هناك ؟! » .

هتفت :

« اللي انت بتشتغله هنا ، اشتغل في العربيات ! » .

أطبق شفتيه ولم يرد . . . عادت تسأله في إلحاح :

« ما لك يا نبيل ؟! » .

« كل ما أحس انها هانت ، واننا حانتجوز ، كل ما ألاقي السكة قدامي طويلة ! » .

في لمح البصر تصاعد الدمع إلى عينيها :

« تو ما افتكرت يا نبيل ؟! » .

توقف عن الرقص فتوقفت !

« أنا ما نسيتش علشان أفتكر ! » .

« طب انت عاوز إيه دلوقت ؟! » .

« أولاً تسامحيني إذا كنت قصرت في حقك ! » .

« وثانياً ؟! » .

« نلبس الدبل ! » .

« إمتى ؟! » .

« بكره . . . قبل ما تسافري ! » .

انحدر الدمع من عينيها وكأنه كان في انتظار الإذن بإعلان مدى سعادتها ، اتسعت ابتسامتها حتى ملأت وجهها . . . همس نبيل وهو يرفع يدها إلى شفتيه كي يقبلها :

« سامية ! » .

من خلال الدمع المتدفق ، قالت :

« لو تعرف قد إيه أنا باحبك . . . لو بس تعرف ؟! » .

* * *

الفَصل التاسِعَ وَالعُشرُون

الفَزع !

قضت سامية فهمي مع نبيل سالم ، ليلة من أجمل ليالي عمرهـا ، إن لم تكن أجملها على الإطلاق . . . هكذا قالت ، وهكـذا كان تعبيـرها . . . كـان نبيل في تلك الليلة عطوفاً حنوناً محباً إلى الحد الذي بدد فيه شكوكها وجعلها تستعيد ـ كالحلم ـ حبها الضائع بين أمواج حيرة عربدت في صدرها طويلاً . . . وعندما ودعها عند باب الفندق ، كـانا على مـوعد في صبـاح اليوم التـالي كي يشتريا دبلتين . . . وفي الموعد تماماً كان هناك ، وكان أنيقاً سعيداً محتفلاً بكل ما تحمل الكلمـة من معنى . . . لكنه ـ عنـدما دلفـا إلى محل الجـواهرجي ـ فاجأها بأن طلب من الرجل خاتماً ذا فص من الماس !!

دق قلبها بعنف واجتاحتها الدهشة والسعادة ابتهـاجاً والـرجل يقـدم لهما قاعدة من المخمل الأسود رصعت بعدد من الخواتم المـرصعة بـالماس ، راح يعرضها عليها في أسلوب رفيع وكأن أصابعه ـ وهي تعرض الخواتم ـ تعزف لحناً موسيقياً . . . وقع اختيار نبيل على أحدها ، وعندما وضع الخاتم في أصبعها ، لم تملك نفسها من البكاء . . . غـادرا المحل والخـاتم يزين أصبعهـا ، وعلى لسانها ألف سؤال وسؤال . . . ولكن الإجابة جاءتها كالبشرى المضيئة في ليلة حالكة الظلام ، فلقد قال لها نبيل : إنه ظل يفكر طوال الليل في أمر الدبلتين ، وأنه فضل ألا يتم هـذا بعيداً عن القـاهرة ، والمبـاركة من الأهـل جميعاً . . . وعندما همت بالحديث وضع أصبعه فوق شفتيها هامساً :

« أنا عارف إنك خايفة من موقف والدتك . . . سيبي الحكاية دي على الله وعليَّ ! » .

أرادت أن تنبهه إلى حقيقة موقف أمها ، لكنه أردف :

« تأكدي إني حاقنعها . . . لازم حاقنعها ! » .

حتى كلماته تغيرت . حتى أسلوبه ارتفع إلى مستوى المسؤولية ، حتى عيناه كانتا مغلفتين بطبقة ندية من دمع جعل لها بريقاً أخّاذاً . . . كان كل شيء يتغير فجأة لتدير لها الدنيا وجهها الباسم بعد طول عبوس . . . ولم تكن سامية تريد ، بل لم تكن تحلم بأكثر مما كانت فيه . . . فألقت بنفسها في أحضان الساعات البقية لها في روما ، وراحت تغمر الروح بفيض من سعادة لا تأتي ولا في الأحلام .

ولقد قضيا يومهما الأخير في روما محلقين في سماء طال الشوق إليها . . . حتى إذا حان موعدها مع أدريان تومسون ، أوصلها بالسيارة حتى ناصية الشارع الذي يقع فيه مقهى بالبو . . . كانت الساعة تقترب من السابعة عندما أوقف السيارة على جانب من الطريق التفتت إليه دهشة وهي تسأله إن كان سيأتي معها ، فقال :

« في البلاد اللي زي دي يا سامية ، يبقى عيب جداً إن حد غريب يحضر اتفاق على شغل ! » .

أطلت من عينيها نظرة تساؤل . . . فاعتدل في جلسته ملتفتاً نحوها بكليته وهو يقول :

« الشغل هنا يا سامية غير الشغل في مصر ، لأن الشركات هنا كبيرة . . . كبيرة قوي ! » .

مضت لحظات صمت قال بعدها :

« الشركات هنا إمبراطوريات مهونة ، لهـا مصالـح في كل بلد وكـل دولة

وكل مكان على وجه الأرض . . . وعلشان كده الشركات دي بتحارب بعضها وعاوزة تعرف أسرار بعضها زي الدول بالضبط ، ويمكن أكثر ! » .

« أمر طبيعي مع المنافسة في السوق العالمية ! » .

« تعرفي إن فيه شركات هنا ميزانياتها أكبر من ميزانيات دول بحالها ؟! » .

« أكيد ! » .

« علشان كده كل شركة، مهما كانت صغيرة، بيبقى لها أسرارها اللي مش لازم حد غريب يعرفها ولو كان أقرب الناس ليكي ! » .

« انت بتخوفني ليه يا نبيل ؟! » .

« أنا مش باخوفك . . . أنا بانبهك يا حبيبتي ! » .

كانت مستكينة تماماً لصوته المتدفق في دفء السيارة المغلقة ، راحت تنظر إليه فإذا هو نبيل الذي طالما حلمت به ، كان هادئاً حكيماً واثقاً من نفسه . . . كانت قد قصت عليه ملخصاً لما دار بينها وبين أدريان تومسون في اليوم السابق ، أحست وكأنه يطلب منها ـ بطريق غير مباشر ـ ألا تحكي له شيئاً وألا تقص عليه شيئاً . . . استطرد ، وكأنه يؤكد ما دار في ذهنها :

« إنتي من يوم ما جيتي إيطاليا ، سمعت مني حاجة عن شغلي ؟! » .

ابتسمت في خجل وهي تتمتم :

« تعرف إن ده مزعلني منك ؟! » .

« ملكيش حق تزعلي . . . لأن هنا حاجة ، وفي مصر حاجة تانية ! » .

لم تغضبها المقارنة هذه المرة فهتفت في وجل :

« للدرجة دي ؟! » .

« عارفة معنى إن سر من أسرار أي شركة مهما كانت صغيرة ، ومهما كان السر نفسه صغير ويبان وكأن مالوش قيمة ، يوصل لشركة ثانية ، معناه إيه ؟! » .

« طبعاً مش كويس ! » .

« لا مش كـده يا سـامية . . . معنـاه خسارة مـلايـين ، اللي زيك واللي زيـي مش قدها ! » .

الآن ، نظرت إليه في امتنان ، تمنت لو أنها استطاعت أن تقبله لولا حياء تربت عليه ، غمغمت وهي تتلاعب بخاتمها الماسي الثمين .

« تعرف إن أدريان إمبارح قال لي الكلام ده ؟! » .

« أكيد ! » .

نظرت في ساعة يدها وكان أمامها بضع دقائق لا تـزال باقيـة ، فهتفت في مرح :

« اتعلمت الحاجات دي فين يا فتى ؟! » .

« اتعلمتها بعد ما جعت واتلطمت وشفت النار وحرقتني كمان ! » .

« تعبت يا نبيل ؟ » .

« قوي يا سامية . . . وعلشان كده مش عـاوزك تتعبي زيي ، ومش عاوز الفرصة تروح من إيدك ! » .

انتبهت إلى شيء كان يقلقها ، لكن السعادة أنْسَتها إياه فوضعت يدها فوق يده متسائلة :

« حاتقف جنبي ؟! » .

« أمال أنا باعمل إيه دلوقت ؟! » .

« فيه حاجة عاوزة آخذ رأيك فيها ! » .

« إيه هي ؟! » .

« أدريـان طلب مني إني أكتب طلب إلتحـاق بـالـوكـالـة . . . وقـال لي . . . . » .

قاطعها ضاحكاً :

« وقال لك تكتبي فيه اسم والدك ووالدتك ووظايفهم وأشغالهم ومعارفك

وأصحابك وقرايبك وأشغالهم ومراكزهم و . . . . » .

« استنى أيها الفتى ... عرفت منين الحاجات دي ؟! » .

« هو أنا عرفتها بس . . . أنا كنت باكتب الطلب من كذا نسخة علشان ما اكتبوش في كل مرة أتقدم فيها لوظيفة من الوظايف ! » .

« طب ليه كل المعلومات دي ؟! » .

« نفس السؤال اللي أنا سألته ! » .

« طب فهمني . . . » .

« لما كنت بأقول لك إن هنا غير مصر ، كنتي بتزعلي مني ! » .

« عاوزة أفهم من غير ما تتمنظر عليّ ! » .

« إنتي لما تجمعي معلومات عن إنسان ما ، أي إنسان في الدنيا ، وتعرفي أصحابه وقرايبه وأهله ومعارفه وعلاقاته وجيرانه ، باختصار . . . لما تعرفي المحيط اللي اتولد واتربى وعاش وبيعيش فيه دلوقت . . . مش كده بيديكي فكرة كاملة عن الإنسان ده ، عن إمكانياته وقدراته وطبيعته ؟! » .

« طبعاً ! » .

« أديكي قلتيها ، عاوزة إيه بقى ؟! » .

« أصل الحكاية دي كانت قلقاني حبتين ! » .

« لازم تعرفي إن رأس المال ابن كلب . . . بيديكي قرش علشان يأخذ منك قرشين . . . وكل مليم بتقبضيه منه لازم تشتغلي بيه . . . وإلا مع السلامة ! » .

« أمر طبيعي ! » .

« بس على الوجه الآخر ، كل ما كانت همتك أكبر ، كل ما اداكي أكتر ! » .

كان صوته عميقاً متزناً ثابتاً . . . كان صوتاً ناضجاً فاهماً واعياً . . . امتلأت نفسها بالثقة كما امتلأت براحة مشوبة بذلك القلق الغامض الذي لم يبارحها أبداً . . . زفرت زفرة حارة وهي تمد يدها نحو مقبض باب السيارة وقد أزف موعدها مع أدريان متسائلة :

« حاتعدي علي الساعة كام ؟! » .

« الليلة مش حاقدر أشوفك ! » .

همت بالاحتجاج فأردف :

« لاحظي إن بقى لي أربعة وعشرين ساعة متفرغ لك . . . وإذا كان البرتو اجنازيو صاحبي ، فهو صاحبي بره الشغل ، إنما في الشغل ما يعرفش أبوه ! » .

« يعني مش حاشوفك تاني ! » .

« حضري شنطتك قبل ما تنامي ، وبكره الصبح حاعدي عليكي علشان أوديكي المطار ! » .

عندما غادرت السيارة ، كانت المسافة إلى مقهى بالبو لا تزيد على بضع مئات من الأمتار ، وكانت تفكر مع كل خطوة تخطوها ، في ذلك الإحساس الغامر الذي سيطر على مشاعرها ، إحساس كان ينبئها بأنها تخطو الآن نحو عالم آخر ، عالم غريب ومثير . . . كانت سعيدة حقاً ، لكنها سعادة تشوبها شوائب غامضة ، كانت موقنة من أنها ستنجح مع أدريان فهي أدرى الناس بكفاءتها وبما يمكن أن تحققه ، لكنها لم تكن راغبة في هذا النجاح !

توقفت أمام باب المقهى وهي تملأ صدرها بالهواء ، وعندما مدت يدها كي تدفع الباب المغلق ، كانت ـ للمرة الأولى ـ قد اتخذت قرارها بأن تطرح شكوكها جانباً ، وأن تعطي للدنيا حقها ، وأن تأخذ هي من الدنيا ، ما تستحقه !!!

* * *

قال نبيل سالم فيما بعد ، إنه عندما استدعي من نابولي إلى روما بعد ثلاثة أيام ، بدا له الأمر غريباً لكنه لم يكن يستطيع إلا أن يلبي ، كما لم يكن يستطيع ـ أو يجرؤ ـ أن يلتقي بسامية قبل أن يلتقي بأبي سليم الذي كان ظاهر الاهتمام بشكل لافت للنظر ، كما كان حريصاً كل الحرص على تلقينه كل كلمة وكل

إيماءة فيما يختص بتعامله مع سامية . . . أخبره أبو سليم بأنه سمع أن سامية وقعت في مأزق سخيف ، ويبدو أن نشالي روما قد سرقوا نقودها .

وعندما بدا الجزع على وجه نبيل ، حذره هذا من الإفصاح عن معرفته بالأمر إلا إذا أخبره أحد موظفي الفندق . . . ذلك أن سامية قضت أياماً عصيبة وأن عليه أن يزيل كل أثر لتلك الأيام بكل ما يستطيع من جهد . . . طلب منه ألا يسألها عما تم بينها وبين ادريان تومسون إلا إذا قصت هي عليه ما دار بينهما . . . فإذا ما فعلت ، فإن عليه أن يفتح أذنيه جيداً لكل كلمة حتى لا ينسى حرفاً مما ستقول . . . ليس هذا فقط ، بل كان عليه أن يتعرف على أحاسيسها ومشاعرها وأفكارها دون أن يوجهها إلى شيء أو يوجه إليها سؤالاً . . . قال أبو سليم هذا ثم استطرد :

« وبالتأكيد يا نبيل سامية حاتبقى عاوزة تفهم حاجات كثير عن طبيعة الشغل هنا ! » .

« زي إيه يا بو سليم ؟! » .

« زي مسألة السرية مثلاً . . . أصل المصريين فاكرين إن الشركات في أوروبا زي الشركات عندهم . . . سامية لازم تعرف يعني إيه شركة هنا ، ويعني إيه ملايين الدولارات أو الليرات ، وإن دي إمبراطوريات ميزانية الشركة فيها قد ميزانية مصر كذا مرة . . . ولازم تعرف يعني إيه أسرار ، وأديك شفت بنفسك !! » .

قال نبيل ـ فيما بعد ـ إنه لم يدهش لهذا الحرص الذي بدا من أبي سليم ، فلقد كان مدركاً أن العجلة قد دارت ، وأن سامية سوف تجد نفسها ـ أرادت أو لم ترد ، وأراد هو أو لم يرد ـ داخل نفس الدوامة التي أخذته ذات يوم أخذ عزيز مقتدر . . . ولقد ظل الرجل جالساً معه لخمس ساعات كاملة لم يترك فيها كبيرة ولا صغيرة إلا وتحدث فيها حتى سأله نبيل وقد فاض به :

« إيه الحكاية يا بو سليم ؟ . . . هي سامية . . . . » .

لكنه أمسك عن الكلام عندما انبثقت من عيني الرجل تلك النظرة الملتهبة التي كانت تبعث بالرعب إلى قلبه فترتجف لها أوصاله . . . أدرك إنه أخطأ عندما فكر في السؤال ، أدرك للمرة المليون ، أن عليه فقط أن يطيع وأن ينفذ بدقة كل ما يطلب منه دون سؤال !

ولقد صمت نبيل طويلاً بعد حديثه هذا . . . كان ساهماً تتساقط قطرات العرق من فوق جبينه كأنها تأتي من نبع لا ينضب ، وكان واضحاً إنه يعاني من ذكرى ذلك اليوم إلى الحد الذي جعل الكلمات تتساقط من بين شفتيه كقطع الحجارة . . . غمغم وقد نكست عيناه والتصقت نظراته بالأرض ، أن فكرة الخطبة واختيار الخاتم بدل الدبلتين ، كانت فكرة أبي سليم الذي أعطاه ثمن الخاتم وحدد له المحل الذي يشتري منه . . . وإنه عندما صحب سامية إلى ذلك المحل ، قدم له البائع ذلك الخاتم بالذات وسط مجموعة الخواتم الأخرى ـ بشكل خاص لم تشعر به سامية ـ وعندما تظاهر بأن اختياره قد وقع على هذا الخاتم ، وجد أن ثمنه بالضبط ، هو الذي أعطاه له أبو سليم ! !

* * *

لم يطل لقاء سامية بأدريان تومسون في ذلك اللقاء . . . كانت في الليلة السابقة سعيدة كل السعادة حتى كادت تهمل كتابة ذلك الطلب الذي كان عليها أن تقدمه لوكالة الأنباء . . . لكنها كانت حريصة على أن تكتبه وأن تضع فيه كل ما طلبه أدريان . . . غير أنها ـ بعد أن كتبت الطلب ـ راحت تنظر إلى الأوراق في حذر ، فلقد كانت تحوي أسماء كثيرة ووظائف هامة ، وأن شكوكها عاودتها في تلك اللحظة ، لكن حديث نبيل معها في اليوم التالي ، وقبل أن تلتقي بأدريان مباشرة ، طمأنها بعض الشيء . . . لذلك فلقد قالت وهي تقدم الطلب لأدريان :

« **قد لا يرضيك طلب التوظيف هذا ، فاغفر لي غفلتي !** » .

ابتسم ادريان ابتسامة اهتزت لها سامية ، لكنه قال وهو يدس الطلب في جيبه :

« إن أي خطأ من الممكن تداركه في الوقت المناسب يا صديقتي ! » .

« أين العنوان الذي سأراسلك عليه ؟! » .

اعتدل أدريان في جلسته ، وضم ما بين حاجبيه شأن من يفكر في أمر يشغله ، ثم قال :

« أتعرفين يا سامية إن أمر العنوان شغلني كثيراً ! » .

« ولم ؟! » .

ابتسم معتذراً :

« هل أكون صريحاً معك بلا حساسيات ؟! » .

« بالتأكيد ! » .

« لو أنك أرسلت خطاباتك باسمي ، أو حتى على عنوان مُقَرّنا في لندن . . . ألن يلفت هذا أنظار الرقابة على الخطابات عندكم في مصر ؟! » .

همت سامية بالنطق لكنه رفع أصبعه في وجهها :

« لست أريد أن أجرح شعورك ، إني فقط أحاول أن أنبهك ! » .

« إذا كان ما تقوله صحيحاً . . . فكيف إذن سيكون اتصالنا ؟! » .

« هناك فكرة لو أنها راقت لك ، لكانت مخرجاً لا بأس به ! » .

« ما هي بالله عليك ؟! » .

« أن تراسلي مستر جيزي بانتظام . . . أليس كذلك ؟! » .

رفعت خاتمها الماسي أمام عينيه قائلة :

« إننا مخطوبان ! » .

« إن هذا يجعل الأمر منطقياً تمام ! » .

« أي أمر هذا ؟! » .

« ماذا لو أنك أرسلت خطاباتك لي باسمه هو ؟! » .

« ولكنك طلبت مني السرية ، ونبيلٌ لا يعرف شيئاً عن . . . . » .

قاطعها في رقة :

« أنا لم أطلب منك أن ترسلي الخطابات إلى مستر جيزي يا سامية ! » .

« لكنك . . . . » .

قالت هذا وتوقفت ممسكة عن الكلام . . . فلقد أضاءت الفكرة في رأسها وبدت لها عبقرية فابتسمت ، وهنا ، مال نحوها أدريان متسائلاً :

« كيف تراسلين نبيل ؟! » .

« أكتب له على عنوانه في نابولي . . . أنت تعرف أنه يعمل أساساً هناك ! » .

« إذن فلسوف أعطيك عنواناً في روما ! » .

ساد بينهما الصمت قليلاً ، كان الأمر يبدو لها غريباً ، لكن أدريان استطرد بعد ثوان وكأنه يرد على ما كان يدور في ذهنها :

« إن نبيل ، كما ترين ، يعمل في روما كما يعمل في نابولي . . . وانت ، والآخرون ، يعرفون عنوانه في نابولي فقط ، لكن أحداً لا يعرف عنوانه في روما ! » .

رغم أن ما قاله أدريان كان منطقياً ، فإن قلب سامية انقبض لسبب لا تدريه ، أحست أن هناك شيئاً غامضاً لا تستريح إليه ، لكنها في تلك اللحظات ، لم تكن تملك سوى الموافقة . . . قدم لها العنوان مكتوباً فوق إحدى صفحات نوتة صغيرة وطلب منها أن تنقله . . . لفت نظرها الأمر فماذا لو أنه كتب العنوان في ورقة وأعطاها إياها ؟ لكنها وسط دوامة الغموض ووطأة إحساسها بأنها تقاضت مرتباً لثلاثة أشهر قادمة ، لم تتوقف طويلاً أمام هذا الأمر ، نقلت العنوان فقال باسماً وكأنه يكشف سر اللعبة :

« هذا هو عنوان مكتبي . . . فإذا ما وصلني خطاب باسم مستر جيزي

وفلسوف أعرف على الفور أنه منك ! » .

« أليس هناك احتمال أن تقع السكرتيرة في خطأ وأن . . . . » .

قاطعها ساخراً :

« خطأ . . . ما معنى كلمة خطأ في معركة كالتي نخوضها ! » .

لزمت الصمت فاستطرد شارحاً لها الأمر ، في أناة وفي صوت واضح محدد الكلمات ، راح يقول لها كل ما يجب عليها أن تفعله ، وحتى تكتب خطابها الأول ، وما الخطوات التي يجب عليها اتباعها . . . ثم ، متى تكتب خطابها الثاني . . . و . . . و . . . و . . . وإذا ما انتهى من حديثه الذي كان واضحاً كل الوضوح ، سألها :

« والآن . . . هل تعرفين ماذا عليك أن تفعلي ؟! » .

ابتسمت لسؤاله لكنها قالت :

« بعد أسبوعين أو ثلاثة ، أرسل لك خطاباً عادياً أطمئنك فيه أن كل شيء على ما يرام » .

كالمدرس الذي يلقن تلميذاً الإجابة الصحيحة قال :

« على أن يكون الخطاب معنوناً في الخارج ، وموجهاً في الداخل إلى مستر جيزي بنفس الأسلوب الذي تعودت أن تكتبي له به ! » .

« فإذا ما تجمعت لدي مجموعة من الأخبار التي تستحق اللقاء ، فسأرسل لك خطاباً آخر أقول لك فيه ، إنني أصبحت على استعداد لشراء سيارة ! » .

« عظيم ! » .

« ولكنك لم تخبرني كيف سيكون ردك علي ؟! » .

ابتسم ابتسامة واثقة وهو يقول :

« إما أن تجديني في القاهرة ، وإما أن أطلب إليك الحضور إلى روما ! » .

« وبالقطع ، ستوقع على خطابك باسم نبيل ! » .

« ليست هذه مشكلة على ما أعتقد ! » .

« لكن المشكلة أنك لا تعرف العربية ؟! » .

لكن أدريان في استخفاف وهو يقول :

« إن لدينا محررين من جميع أنحاء العالم العربي ! » .

« آه . . . ولكن يبقى أمر آخر . . . فبأية حجة سوف أطير إلى روما إذا طلبت مني ذلك ؟! » .

« لشراء السيارة ! » .

« ولكن . . . . » .

« وإذا كان ما تحملينه من أخبار يستحق ، فلسوف تعودين ، وبالتأكيد ، بسيارة تغنيك عن مشقة المواصلات في القاهرة !! » .

همت بالحديث لكنه استطرد :

« لا تنسي أنك ستعودين إلى القاهرة هذه المرة دون سيارة ، ومعنى هذا إنك لم تنفقي ما معك من مال . . . وأن هذا المال ، سوف يزداد بالقطع خلال شهرين أو ثلاثة لو أنك اقتصدت قليلاً في مصروفاتك حتى تستطيعي شراء سيارة تليق بك ! » .

أرادت أن تعلق لكنها لم تجد شيئاً تقوله ، بدا لها حديثه وكأنه خطة محكمة ، وكان واضحاً أنه لم يترك شيئاً للظروف أو حتى التخمينات . . . مضت ثوان ساد فيها الصمت بينهما ، نهض بعدها أدريان وهو يقول :

« كنت أنتوي أن أدعوك إلى العشاء الليلة ، احتفالاً ووداعاً . . . لكني مضطر لحضور مؤتمر صحفي هام ، سوف يعقبه بالتأكيد عمل قد يستغرق جزءاً كبيراً من الليل ! » .

راحت تنظر إليه في إعجاب ، كانت لغته الإنجليزية وأسلوبه يصنعان جواً لم تعشه إلا في الكتب أو الأفلام السينمائية ، سرها هذا الخاطر فابتسمت ، مد يده نحوها مصافحاً :

« والآن . . . أتمنى لـك حظاً سعيـداً ، وأرجو ، مـرة أخـرى ، ألا تخذليني ! » .

انصرف أدريان ولم يكن قد انقضى على لقائهما أكثر من نصف ساعة . . . أحست سـامية ، دون سبب واضح ، أن جسدهـا أصبح ثقيـلاً ، وكأنـه امتلأ بـالرمـال . . . أحست أنها غيـر قادرة على مغـادرة مقعدهـا ، وأن شيئاً غـريبـاً ومسموماً أصبح يسري في دمائها . . . فتمنت الموت !!!

. . . .

. . . .

قالت سامية لعادل مكي وهي تجلس أمامه : إنهـا تمنت الموت فعـلاً في تلك اللحـظات الغريبـة . . . غادرهـا أدريان تـومسون وتـركها تتـردى فيما بين النقيض والنقيض ، راحت أحاسيسها تتقاذفها في عنف لوقت لا تدري إن كان قد طال أو قصر ، وأن كل ما تذكره ، أنها عندما غادرت مقهى بالبو ، عادت إلى الفندق فوراً ، وجهزت حقيبتها بسرعة بدت لها غريبة ، انتهت إلى ذلك وقفت في منتصف الغـرفة متسـائلة عما حـدث لها ، وعمـا اجتذبهـا من السعادة إلى اكتئاب وحزن غريبان وشديدان في آن . . . ولما لم تجد جواباً مقنعـاً ، قبعت في فـراشها مقتنعـة تمامـاً بـأنهـا « وش نكـد » ، وقضت ليلة من أسـوأ ليـالي عمرها !!

عندما انتهت سامية من الحديث عما وقع لها في روما ، كانت قد وصلت إلى حـالة من الإرهـاق والتعب والعصبية ، جعلت عـادل مكي يطلب منهـا أن تكتفي ، هـذا اليوم ، بـذلـك القـدر من الحـديث ، وأن تعـود إلى البيت كي تستريح ليوم أو يومين . . . كانت أربعة لقاءات قد تمت بينهما الآن ، شعر فيها عادل مكي أنها كـانت تجرف من ذاتهـا وذكريـاتها ونفسهـا بعنف ، ولأعمق ما تستطيع حتى تضع الحقيقة بين يديه كاملة ، لدرجة أنها كانت ، إذا ما اكتشفت ـ وهي مندمجة ، في السرد ـ أنها نسيت واقعة أو حادثة أو حتى كلمة، عادت إلى مجريات الواقعة أو الحادثة أو الكلمة كي ترويها في إطارها الصحيح . . .

بدت له سامية فهمي وكأنها تريد أن تتطهر من دنس غاصت فيه دون أن تدري . . . وعندما طلب منها الكف عن الحديث والاكتفاء ـ في ذلك اليوم ـ بما قالت سألته :

« إنت وراك شغل ؟ » .
« أنا دايماً ورايا شغل يا سامية . . . ! » .

نهضت في عصبية وهي تهتف :

« على العموم ، آهو ده كل اللي حصل ! » .
« إزاي بقى ؟! » .

التفتت نحوه في حدة وهي تصيح :

« لأن نبيل جاني تاني يوم ووصلني المطار ! » .
« وبعدين ؟! » .
« وبعدين إيه ؟ . . . ما خلاص ! » .

ابتسم عادل مكي وقد أدرك أن المعركة التي أراد تأجيلها ، قادمة كالإعصار لا محالة . . . كان مدركاً أنه الآن سيخوض بها في المنطقة الحرام التي لا تريد سامية الحديث عنها . . . وأنه لا مفر ، اليوم ، بل الآن ، وهي في تلك الحالة العصبية ، من مواجهة الأمر . . . لأنها ، وإن كانت تريد الهرب ، فهي ـ على الوجه الآخر ـ تريد مواجهة الواقع كي تصل فيه إلى قول فصل ، حتى تريح وتستريح . . . ساد الصمت بينهما قليلاً سألها بعده :

« وبعد ما رجعت مصر ؟! » .

أطلت من فوق شفتيها ابتسامة مجهدة متعبة وهي تقول :

« انت مفيش في قلبك رحمة ؟! » .

ضحك عادل ، ضحك حقاً من قلبه . . . فلقد أدرك أن هذه الفتاة الشجاعة

الممتلئة بحب الوطن إلى حد الموت ، لا تزال ، رغم كل ما مر بها ، **متيقظة** الحواس والعقل إلى حد يبعث حقاً على الإعجاب ، تشاغل عنها بإشعال سيجارة فهتفت فيه :

« انت مش ملاحظ انك بتدخن كتير قوي ؟! » .

رفع رأسه نحوها في مواجهة صريحة :

« وبعد ما رجعت مصر . . . حصل إيه ؟! » .
« اشتغلت !! » .
« جمعت الأخبار اللي طلبها منك أدريان ؟! » .
« ما هي المصيبة إنه ما طلبش مني أخبار معينة ! » .

ظلت عيناه مسددتين إلى عينيها فغمغمت :

« ممكن تديني سيجارة ؟! » .

مرة أخرى لم يملك عادل مكي نفسه من الضحك فضحكت معه وهي تعود إلى مكانها ، أشعلت السيجارة التي قدمها لها ، هدأت قليلاً وهي تنفث دخانها فكأنها تزفر روحها ، جاء صوتها الآن عميقاً عميقاً ، راحت تحكي كيف عادت إلى القاهرة تلتقي أول ما تلتقي بنظرات أمها المتسائلة المستريبة ، كانت تعلم علم اليقين أن في صدر أمها عشرات الأسئلة التي أجابت عنها ، في ثرثرة حكت عن نبيل ونجاحه ومركزه وعلاقاته وسيارته وسكرتيرته . . . قصت عليها كيف اتفقا على أن يشتريا دبلتين لكن نبيل أصر على إهدائها خاتمها الماسي مؤجلاً الخطبة إلى القاهرة حتى تباركهما . . . همت ذات لحظة بأن تذكر قصة نشل نقودها لكنها تراجعت فلقد تذكرت ما قاله لها أدريان . . . قالت لأمها إن أسعار السيارات ارتفعت نتيجة لإقبال المصريين على شراء السيارات المستعملة ، وأن نبيل عرض عليها أن يدفع لها الفرق في سيارة رائعة لكنها رفضت ، وقالت إنها سوف تعود يوم تجد معها ثمن السيارة بالكامل ، وجدت نفسها ـ دون أن تعي ـ تسد الثغرات في قصتها التي أخذت ترويها للأصدقاء والزملاء والصديقات

والزميلات ، ولكثرة ما قصت القصة كادت ذات يوم أن تصدقها وأن تنسى كل ما حدث لها . . . مضت الأيام فإذا هي تعود إلى حياتها وإذا كل شيء كما هو وإذا نفسها تهدأ وإذا هي ترى أن ليس في الأمر ما يدعو لكل هذا القلق وأن عملها مع أدريان باب رزق ليس من الصواب أن تغلقه بيدها خاصة أنها تقاضت مرتب شهور ثلاثة . . . وهكذا بدأت تعمل في حماس راحت تستجلبه استجلاباً . . . ذلك أنها كانت كلما ذهبت إلى اجتماع أو التقت بصديق أو مسؤول ، وجدت بيديها أخباراً ومعلومات كانت تدونها في نوتة خاصة . . . بعد أسبوعين أرسلت لأدريان خطاباً تقول فيه إن كل شيء على ما يرام ، ولأنها كانت ـ رغم قصر المدة قد جمعت كمّاً لا بأس به من الأخبار الاقتصادية والسياسية ، بل إنها دونت بعض الأخبار عن معدات عسكرية وصلت حديثاً . . . لذلك فلقد كتبت له أنها قد تستطيع ـ قريباً جداً ـ أن تشتري السيارة !

توقفت سامية عن الحديث ريثما تلملم نفسها ، ساد الصمت طويلاً لكنها عادت إلى الحديث من جديد :

« **لحد ما كان يوم !!** » .

كان ـ دون شك ـ يوماً مشهوداً في حياة سامية فهمي . . . فلقد عقد في هذا اليوم اجتماع هام لأعضاء التنظيم الطليعي في المجلة ، تم الاجتماع في مكان ما وسط حي من أحياء القاهرة الراقية . . . في هذا الاجتماع نوقشت أمور على جانب كبير من الأهمية ، وجدت نفسها منخرطة في مناقشات دامت لساعات طالت حول السياسة الإعلامية الواجب إتباعها في الفترة القادمة . . . كانت الآراء متعددة ، والمناقشات حادة ، والمعلومات تتناثر بين يديها بلا تحفظ . . . حضر الاجتماع ثلاثة من مستويات التنظيم العليا ، والذين كانوا ، في نفس الوقت ، يشغلون إلى جوار مواقفهم السياسية الهامة ، مراكز تنفيذية خطيرة . . . وجدت سامية فهمي نفسها تعرف أكثر مما ينبغي ، موثوقاً فيها إلى الحد الذي بعث الرعب إلى قلبها . . . كان كل ما يجري حولها وأمامها وما تشترك فيه ، يصلح لأن يكون ضربات مخيفة ومؤثرة في سياسة الشرق الأوسط

الذي كان في تلك الأيام بؤرة ملتهبة للصراع العالمي ! . .

في تلك الليلة لم تنم سامية فهمي ، لم تذق للنوم طعماً حتى طلع النهار . . . كان ما أفزعها حقاً ، أنها ـ قبل أن تأوي إلى فراشها ـ قد جلست إلى تلك النوتة الخاصة وراحت تدون فيها كل ما التقطته من أخبار وهي تتصور فرحة أدريان تومسون بما حصلت عليه ، وربما لا يمكن لصحفي في العالم أن يحلم بالحصول عليه . . . في ذلك الصباح كانت قد استعرضت كل ما دار في روما ، كل ما حدث ، كل كلمة قالها نبيل ، وكل حرف نطق به أدريان ، وكل حادثة وقعت . . . ولم يكن هناك مفر ، كان لا بد لها من التيقن ، كان لا بد لها من معرفة الحقيقة ، انغرست مخالب الشك في قلبها فأدمته ، ولم يكن أمامها من طريق . . . فلجأت إلى أحمد مختار !

« فاكرة إنتي كتبت إيه في الجواب اللي بعتيه لأدريان ؟! » .

هوى السؤال مثل لطمة جعلتها تنتفض ، بل تفيق . . . كانت قد غادرت منطقة الحديث عن هذا الخطاب وغاصت فيما عذبها بلا حدود . . . رفعت عينيها نحو عادل مكي في دهشة ، كانت مستفزة وهي تقول :

« مش فاهمة معنى السؤال !! » .

« إنتي مش قلت . . . . » .

قاطعته في ضيق لم تحاول أن تخفيه :

« أيوه أيوه قلت . . . لكن إحنا في إيه وإلا في إيه ؟! » .

« فاكرة اللي انت كتبتيه يا سامية ؟! » .

« مش فاكرة بالحرف طبعاً إنما . . . . . . » .

« لأ يا سامية ، لازم تفتكري بالضبط ! » .

« انت معاك حق ، إنما كل اللي أقدر أفتكره دلوقت . . . . » .

أمسكت عن الحديث عندما مد عادل مكي يده إلى جيب سترته الداخلي ، وأخرج منه ورقة مطوية قدمها لها :

« هو ده الجواب اللي إنت بعتيه ؟! » .

كان الفزع هو المعنى الوحيد والشيء الوحيد والعنصر الوحيد الذي اجتاح سامية فهمي في تلك اللحظات اجتياحاً . . . مدت إلى الورقة يداً مرتجفة ارتجافاً فشلت كل جهودها في السيطرة عليه ، عندما أمسكت بالورقة كانت شاحبة شحوب الموتى ، سقطت الورقة من بين أصابعها ، فانحنى عادل ، كي يلتقطها ويعيدها إليها من جديد ، فضت الورقة ، فإذا صورة من خطابها بين يديها !!

* * *

الفصل الثلاثون

الطريق إلى المجهول !

كانت سنوات طويلة قد انقضت عندما قال لي عادل مكي ، أن ذكرى ذلك اليوم الذي واجه فيه سامية فهمي بـأنه كـان يعرف كـل شيء منذ البـداية ، لم تمحها الأيام من ذاكرته أبداً . . . ليس على مستوى أنه ضابط مخابرات دُربت ذاكرته على ألا تفقد شيئاً ، وإنما على المستوى الإنساني الخالص ، فلقد كان الأمر بالنسبة إليه مأزقاً بكل ما تحمل الكلمة من معنى لأن سامية فهمي كـانت بالنسبة إليه نمطاً خاصاً ونموذجاً من النادر أن يتكرر . . . ولذلك ، فلقد حاول في ذلك اليوم أن يتجنب مواجهتها بالحقيقة ، كانت خمسة عشر يوماً قد انقضت منـذ أن التقيا لأول مرة ، وكان عـدد المـرات التي التقيـا فيهـا لا يـزيـد على الأربع . . . وهو ، في كل مرة من هـذه المرات الأربـع ، كان يصمم على أن تأخذ إجازة أو تستريح يومين أو ثلاثة أيام ، لأنه كان يعلم مقدار ما كانت تعانيه هـذه الفتـاة الصغيـرة السن ، الكبيـرة العقـل ، الشـديـدة الـذكـاء ، المتقـدة الموهبة . . . كان يعلم إنها من هذا النوع « المتطهر » من البشر ، الذي يشعر في وعيه ولا وعيه بأنه ارتكب إثماً لا يغتفر ، لمجرد أنه التقى بمن شـك ، ثم أيقن أنهم أعـداء الوطن . . . ولم تكن سـامية تـريـد التـطهـر فقط من إثمهـا المـزعوم ، وإنمـا أرادت أيضاً أن تعـاقب نفسها علي مـا اقترفتـه . . . كـانت الحقيقة تحاصرها طوال الأسبوعين اللذين انقضيا يوماً بعد يوم . . . حتى إذا ما وصلت إلى نهـاية المـطاف ، ولم يعد هنـاك مفر من مـواجهة الأمـور مواجهـة صـريحة وحـاسمة ، كـانت حالتهـا العصبية قـد وصلت إلى ذروة من الصعب

التكهن بنتائجها في لحظة معينة ، وفي مواجهة لواقع كان موقناً من أنه سيزلزلها تماماً . . . ولذلك ، ففي هذا اليوم بالذات ، كان هناك طبيب يجلس في انتظار أن يستدعيه عادل مكي في أيه لحظة !!

« طبيب ؟! » .

هكذا هتفت في دهشة ، فأكد لي عادل مكي أنه كان راغباً ، قبل أن يواجهها بتلك الصورة للخطاب الذي ارسلته إلى أدريان تومسون ، في الاستماع إليها حتى يعطيها الفرصة كي تستريح وتصبح في حالة تسمح لها بمواجهة هذه الحقيقة . . . غير أنه ـ بالطبيعة ـ لم يكن ليترك أمراً للمصادفة ، ولذلك ، فلقد وضع في اعتباره أنها ، مع تصاعد المشاعر والأحداث والاقتراب من الحقيقة ، قد تصمم على مواجهة كل شيء كي تنتهي من الأمر برمته . . وإنه كان موقناً من أن مواجهتها بأنه كان يعرف كل شيء ـ وكان هذا أمراً لا مفر منه ـ قد يصيبها بصدمة مروعة مما يجعل الإشفاق عليها أمراً واجب الاحتياط له !

وعلى كل . . . فلم تكن سامية فهمي ، أو حالتها العصبية ، هي السبب فقط ، كان هناك عامل آخر دفع هذا الضابط الشاب دفعاً إلى التعجيل بإنهاء الأمر . . . وهو أن نبيل سالم قد خلع برقع الحياء ، وسلم سامية إلى المخابرات الإسرائيلية ـ ولقد كانت دون شك تعني بالنسبة إليه الكثير ـ فلم يعد هناك ما هو ، أو من هو ، أغلى منها يحرص عليه . . . فإذا أضفنا إلى هذا ، إحساسه الكامل بالاطمئنان إلى أن أحداً لا يعرف عنه شيئاً ولم يكتشف أمره ، خاصة بعد زيارته للقاهرة ، كان لزاماً على عادل مكي أن يضع في اعتباره أن نبيل سالم ، بعد عودته إلى نابولي ، وتردده بينها وبين روما ، ولقائه بعدد لا بأس به من المصريين والشباب العرب من مختلف المجالات والمهن . . . قد أصبح يمثل خطراً حقيقاً على الوطن ، بما كان يقدمه للمخابرات الإسرائيلية من خدمات تتمثل في دفع أبناء الوطن ـ تحت ستار شراء سيارة أو أداء خدمات مهما كان شأنها ـ إلى أيدي رجال الموساد . . . وراحت التقارير تصل إليه من روما ومن نابولي على السواء ، تحمل نُذُرَ شر حقيقي نتيجة لنشاط نبيل . . . وكان لا بد

من حسم الأمر نهائياً ، كان لا بد من وضع حد لهذا الخطر الذي راح يستشري يوماً بعد يوم !!

هذا هو ما دفع عادل مكي لأن يواجه سامية بصورة من خطابها الذي ارسلته إلى أدريان . . ولقد أمسكت بالورقة أخيراً دون أن تكف يدها عن الارتجاف ، وشحبت شحوباً جعل قلب عادل مكي ينقبض . . . ساد الصمت بينهما لدقائق طالت ، كانت تحملق في وجهه وقد بدا عليها ذعر من اكتشف فجأة أنه كان يسير في الطريق العام عارياً دون أن يدري . . . ارتجفت شفتاها ارتجافاً شديداً وقد ابيضتا وكأنهما شفتا ميت ، حاولت أن تتحدث فاستعصت عليها الكلمات ، قدم لها عادل سيجارة في محاولة لخلق حوار معها لكنها رفضت ولم تعتذر ، بل ظلت جامدة وقد تحجرت عيناها وجفت مآقيها . . . ولم يكن أمام عادل سوى أن يبدأ الحديث قائلاً :

« **سامية . . . أنا عاوزك تفهمي** . . . . » .

قاطعته وكان صوتها خشناً أجوف كأنه يصدر من أعماق بئر :

« **يعني انت كنت عارف كل حاجة من الأول ؟!** » .

« **شوفي يا سامية** . . . . » .

قفزت واقفة وهي تصرخ في فحيح :

« **أنا مش عاوزة أشوف حاجة !** » .

« **لازم تفهمي** . . . . » .

« **ولا عاوزة أفهم !** » .

« **المسألة** . . . . » .

« **المسألة إنك إنسان معندكش رحمة ، ومفيش في قلبك ذرة من الإنسانية !** » .

لزم عادل مكي الصمت وهو يزفر في راحة شديدة . . . كان هذا بالضبط هو

صمام الأمان لكل ما كان يعتمل في نفسها من غضب . . . كان لا بد لها أن تترك حمم البركان الذي يغلي في صدرها تتناثر حتى ولو أصابه منها رذاذ . . . ولقد انفجرت سامية بالفعل ، راحت الكلمات تتدفق من بين شفتيها كتدفق الدموع من عينيها سواء بسواء . . . كانت تتحرك في الغرفة على غير هدى وفي غير إتجاه . . . كانت تسأل فيم كان كل هذا العذاب الذي تعذبته إذا كان يعرف منذ البداية كل شيء ، لماذا لم يخبرها ، لماذا لم يخبرها ، لماذا لم يوفر عليها كل تلك المعاناة التي ظلت تكويها لأكثر من شهر . . . هتفت ذات لحظة وقد بلغ الغضب مداه :

« يا أخي . . يا أخي ليه ما قلتليش حتى من الأول ، من قبل ما أسافر . . ليه ما حذرتنيش من الجحيم اللي أنا كنت رايحة له برجليه ؟! » .

« لأن فيه غيري حذرك ! » .

كانت هذه هي المرة الأولى التي ينطق فيها منذ أن تفجرت حمم غضبها ، همت بالاعتراض فقال في حسم .

« وفيه ناس قالوا لك بلاش سفر ! » .

كمن أصيبت بمس راحت تتحرك وقدماها مسمرتان في الأرض ، يداها مع ذراعيها مع رأسها وعينيها وجسدها كله . . كان وكأنه نطق كفراً ، فاستطرد :

« اتقال لك بوضوح يا سامية بلاش سفر . . . واتقال لك بوضوح أكتر ، اشتري العربية من هنا ! » .

همت بالحديث لكنها توقفت فاغرة الفم وقد عاد إليها جمودها القاتل ، فراحت تحملق فيه غير مصدقة . . . كان ما يقوله صحيحاً بكل المعاني ، كان هناك من حاولوا منعها من السفر . . . كانت هناك أمها ، وأحمد مختار رئيس التحرير ، وكان هناك زملاء في التنظيم الطليعي ، وآخرون في المجلة . . . فمن . . . من منهم بالضبط الذي حذرها بإيعاز منه ؟! .

« أقدر أعرف مين اللي . . . . » .

صاح فيها كمن فاض به وقد استفزه عنادها :

« أنا متأكد إن ظنونك تشَرّق وتغَرّب . . . لكن تأكدي من حاجة واحدة . . . هي أن أنا ما طلبتش من أي حد من اللي طلبوا منك عدم السفر ، إنه يقول لك ده ، لسبب بسيط جداً » .

« إيه هو ؟! » .

« إني ما كنتش في حاجة إني أطلب منهم الطلب ده ! » .

« بس فيهم ناس اشتروا عربيات من إيطاليا بالذات ، إيه المنطق اللي يخليهم يحَرّموا عليّ اللي حللوه لنفسهم ، واللي عملوه بنفسهم ؟! » .

في حدة ، وفي حسم ، وضع عادل النقاط فوق الحروف :

« مش فيه احتمال ان حد فيهم يكون وقع في اللي إنتي وقعتي فيه ، وجه بَلّغ زي إنتي ما جيتي وبلغتي . . . وإنه حب يوفر عليكي كل اللي حصل معاه ؟! » .

« رباه ! » .

كانت سامية ـ الآن ـ مجنونة تماماً . . اقتربت منه عائدة إلى مقعدها :

« معنى كلامك ده إن نبيل له دخل في الموضوع ؟! » .

« وهو نبيل هو اللي طلب منك معلومات عن بلدك ؟! » .

« يعني انت عارف مين الناس دول ؟! » .

« طبعاً عارف ! » .

« طب هم مين ؟! » .

« من غير لف ولا دوران ؟! » .

« ريحني ربنا يريحك ! » .

« المخابرات الإسرائيلية !! » .

ولا تعرف سامية فهمي ما الذي حدث في داخلها بالضبط في تلك اللحظات الرهيبة ، حتى عادل مكي بدت عليه الدهشة البالغة وهو يواجه هذا

التحول الغريب من النقيض إلى النقيض ، من ثورة عارمة ودموع كالشلال ووجه شاحب مربد الملامح ، إلى هدوء نفسي غريب ، وصفاء لون لا يتأتى إلا لمن استراح ضميره وتخلص من عبء هائل كان يثقل كاهله ، أحست سامية ـ لدهشتها البالغة ـ أنها تريد أن تبتسم دون أن تدري السبب في هذا الإحساس الذي بدا لها غريباً كل الغرابة . . . ثم أحست أنها تريد ، بل لا بد لها، أن تضحك ، أحست بالدمع كالخدر يزيل كل الآلام ، أحست بما لم تشعر به من قبل ، إحساس غريب ورهيب في نفس الوقت . . . وكان كل ما استطاعت أن تقوله ، هو :

« يا ولاد الكاااالب ! » .

وانفجر عادل مكي ضاحكاً وقد غطت عينيه طبقة شديدة الرقة من دمع تمنى لو أنه استطاع أن يطلق له العنان . . . كانت سامية ، من وجهة نظره ، قد اجتازت الأزمة بسلام !

* * *

لم يعد هناك وقت ، ولم تعد هناك حاجة إلى المزيد من الحديث . . . بسطت الأوراق وانكشف المستور ، وكان لا بد من استشراف المستقبل وما قد يحدث فيه . . . صمم عادل أن يدعوها إلى الغداء في ذلك اليوم ، بداية . . . طلب كأسين من عصير الليمون كي يرطب ذلك الجحيم المتأجج في صدرها . . . رفض الحديث في الأمر قبل أن يتناولا الطعام ، دقيقة بعد أخرى ، بل لحظة بعد لحظة ، كان ذهن سامية فهمي يصفو ، وتبدو الأمور جلية واضحة أشد ما يكون الوضوح. . . شرح لها عادل مكي ، وهما يرشفان من كأسي الليمون ، ثم من بعد الغداء الذي جاءهما شهياً مزيناً بالخضراوات ومشفوعاً بالفاكهة ـ خطورة أن ينبهها قبل السفر . . . قال إن الإسرائيليين يشعرون أنهم يتحركون في ملعب لا خصم لهم فيه ، وإن أية بادرة كانت ستجعلهم ينتبهون إلى أن أمرهم ـ أو أمر نشاطهم في إيطاليا ـ قد انكشف فيأخذون حذرهم ولا نستطيع الإيقاع بمن أوقعوا به ، ولسوف يتخذون بعد ذلك

أساليب أخرى قد تغمض عليه لفترة ، فتتاح لهم فرصة أن يخربوا ويخترقوا ويعرفوا عنا ما لا يخطر بالبال . . . قال وكأنه يشكو هماً لصديق عزيز : إن الأمر ليس بسيطاً كما تظنين ، وليس تسلطاً كما يعتقد البعض . . . بل هو مركب ومعقد إلى حد لا يخطر بالبال !

عندما انتهيا من الطعام كانت سامية ـ في حماس متأجج ـ على استعداد لأن تبدأ جولة جديدة من الحديث ، لكنه رفض ، رفض بشدة وإصرار . .

« ليه يا سيد عادل ؟! » .

« لأنك لازم تاخدي إجازة ! » .

« ليه برضه ؟! » .

« لأنك محتاجة للراحة أولاً ، ولأنك لازم تدي لنفسك فرصة للتفكير ثانياً ! » .

« تفكير ؟! . . تفكير في إيه ؟! . . ما خلاص ! » .

« هو إيه اللي خلاص ؟! » .

في دهشة قالت :

« خلاص ، مانا قلت لك على كل حاجة ! » .

« وده معناه إنه خلاص ؟! » .

« مش فاهمة ؟!! » .

ران الصمت لثوان قبل أن يقول عادل :

« أنا عاوزك تفكري يا سامية ، إذا كان عندك استعداد تتعاوني معانا ؟! » .

هتفت في اندفاع :

« حتى ولو مكانش عندي استعداد . . . في موقف زي ده لازم أتعاون معاك . . . بس . . . . » .

قالت هذا وأمسكت عن الكلام حتى سألها :

« بس إيه ؟! » .

« إيه موقف نبيل من ده كله ؟! » .

« لازم تحسمي أمرك . . . مصر والا نبيل ؟! » .

صرخت :

« تصور . . . هو ده نفس السؤال اللي كنت عمالة أسأله لنفسي طول المدة اللي فاتت . . . لو أن نبيل طلع له يد في الموضوع . . . مصر والا نبيل ؟! » .

« وكان إيه جوابك ؟! » .

« مصر طبعاً ومن غير تفكير . . . بس أنا عاوزة أعرف ! » .

زفر عادل زفرة حارة خالتها سامية تكاد تخرج من بين شفتيه كاللهب . . . سألته . . .

« إيه ما لك ؟! » .

قال وهو يعتدل في جلسته :

« أنا لحد دلوقت ما أقدرش أتهم نبيل بحاجة . . إنما . . . . » .

« يا أخي خلي عندك رحمة وريحني ! » .

« ما حنا حانرتاح سوا ! » .

« إمتى ؟! » .

« لما نعرف سوا !! » .

عندما غادرت سامية فهمي جهاز المخابرات العامة في ذلك اليوم ، فوجئت بعادل مكي يوصي لها بسيارة حملتها إلى باب خلفي غادرت منه الجهاز إلى المدينة . . . عندما وجدت السائق يتجه بها إلى طريق غير الذي تعودت أن تسلكه دخولاً وخروجاً ، سألته عن وجهته فقال لها : إنه يبدو أن بعض الشخصيات الهامة ، وربما كانوا ضيوفاً ، يزورون الجهاز . . . ولذلك ، فالساحة هناك ، عند الباب الرئيسي ، تبدو مزدحمة بالحراس ، وهناك بعض التنظيم الذي لن ينتهي قبل ساعة أو ساعتين !

قنعت بالإجابة وهي ترى السيارة تخترق بها طريقاً وسط حقول ممتدة إلى ما لا نهاية . . . دار السائق حول السور المحيط بالجهاز في طريق بدا غير معبد ، عبر بها من جوار السور الجنوبي للجهاز لتجد نفسها في ميدان القبة . . .

أرادت أن تغادر السيارة لكن السائق قال : إن السيد عادل طلب منه أن يوصلها إلى حيث تشاء ، قالت :

« ما هو أنا عاوزه أنزل هنا ! » .

تردد الرجل قليلاً ، لكنه أمام إصرارها أوقف السيارة ، فغادرتها شاكرة !!

. . . .

. . . .

كانت سامية فهمي تريد الانفراد بنفسها ، راحت تخترق الطريق المؤدي إلى شارع الخليفة المأمون حيث السير في هذا الشارع يعطيها الفرصة كي تطلق لعقلها العنان ، كان لا بدّ لها أن تفكر فيم اتفقت عليه مع عادل مكي ، وكانا قبل انصرافها قد توصلا إلى أن أنسب الأماكن لإجازة مثمرة ، هو الإسكندرية ، حيث تعيش خالتها الصغرى التي تقاربها في السن ، والشديدة القرب منها ، والصديقة البعيدة عنها . . . قالت بعد ذلك :

« بس تفضل حاجتين ! » .
« إيه همه ؟! » .
« ماما . . وشغلي ! » .
« ما أعتقدش ان ماما ممكن تتضايق لو أخذتي إجازة ! » .
« أصل أنا لسه جاية من إيطاليا ، وهي عارفاني كويس ، وعارفه إني مش ممكن آخذ أجازة دلوقت ! » .
« حتى ولو كنتي تعبانة ومحتاجة للراحة ؟! » .
« ما هو أنا لو كنت تعبانة دلوقت ، مفيش حاجة حاتتعبني إلا نبيل ! » .

« وهو المطلوب ! » .
« إزاي بقى ؟! » .
هم بالحديث فأردفت :

« أوعى تكون متأكد إن نبيل متورط ومش عاوز تقول لي ! » .
« أنا مش قلت لك اننا حانعرف سوا ؟! » .

في لوعة قالت :

« أصل أنا عندي أمل ان نبيل يطلع مالوش دعوة ! » .
« لكن فيه احتمال انه يكون متورط ! » .
قبل أن تتفوه بكلمة استطرد :

« علشان كده قلت وهو المطلوب ، لأن لو فرض وكان متورط ولو بنسبة واحد في المية . . . تبقى مهدتي لماما إن فيه خلاف بينكم ! » .

كان حديثه مقنعاً ، كان دائماً يجد مخرجاً ، فتساءلت :

« طب والمجلة ؟! » .
« شغلك في المجلة ممكن تعويضه بعدين ! » .
« لا . . . » .
« إيه هو اللي لا ؟! » .
« أنا لو رحت إسكندرية أسبوع من غير ما أغطي شغلي في المجلة الأسبوع ده ، حزب النميمة حايبدأ يشتغل ، وانت مش عاوز حد يتنبه لحاجة خالص ، ولا حد ياخد باله من شيء ! » .
ضحك عادل مكي لذكرها حزب النميمة ، لكنه ضحك إعجاباً أيضاً !

كان ردها من الوضوح بحيث يغني عن كل مناقشة . . . كانت ـ كما قال لي ـ قد دخلت في « الفورمة » ، وأصبحت بحسها المرهف ووطنيتها الشامخة ، تحجب ما يجب أن يحجب . . . كما كانت في نفس الوقت ،

تستعيد قوتها بما يكفي لأن يجعله يعتمد عليها بالفعل !!

« وإيه لزوم السفر يا سامية . . وإنتي لسه جاية من إجازة ؟! » .

هكذا قالت السيدة اقبال حسين لابنتها . . كانت هذه السيدة قد احتملت في صبر ما لا تحتمله أم من ابنتها ، ولولا ذهنها المتفتح ، وثقتها البالغة في سامية ، لكان للأمر ـ بالقطع ـ وجه آخر . . . غير أنها في ذلك المساء ، لم تملك إلا أن تغضب . . . ذلك أن سامية كانت تختفي ، طوال الأيام التي مضت ، دون أن تعرف أين تذهب ابنتها على وجه التحديد ، وفوق هذا وذاك ، فهي ، بمعرفتها بابنتها ، كانت موقنة من أنها عادت من إيطاليا وقد تحطم حلمها الجميل . . . وإذا كانت قد هيأت نفسها لأن تقف إلى جوار ابنتها في اللحظة التي يتطلب منها الأمر ذلك ، فإن تلك اللحظة لم تبد حتى الآن في الأفق . . . وإذا سامية ساردة فيما هي فيه ، غير ملقية بالاً إلى أم تنظر إليها في صمت ، وترقب في صبر ، وينفطر قلبها خوفاً وقلقاً وحزناً . . . أليس من حقها أن تستريح ؟!

« إنتي اللي تاعبة نفسك يا ماما ! » .

« إسمعي يا بنت إنتي ، أنا مش عاوزة تلاعب بالألفاظ ، وأنا مش تاعبة نفسي لأني عارفة كويس أنا بافكر إزاي . . . اللي تاعبة نفسها ، وتاعباني معاها ، هي إنتي . . . وده شيء لازم تعرفيه كويس ، علشان لو كان عندك أدنى قدر من الحب ، أو الاحترام ، أو حتى الحنان ناحية أمك ، كنتي لازم تفهمي إني ما استحقش منك كل ده ! » .

كان المنطق قوياً والحديث مرتباً والأفكار واضحة والصوت مرتجفاً ، والعينان دامعتين . . . أحست سامية بدبيب الهزيمة يقترب منها ، قاومته بابتسامة وهي تتقدم من أمها ، وجلست إلى جوارها غير بعيدة عنها ، قالت :

« برضه مش حاتضحكي علي بكلمتين ! » .

ما كادت سامية تفتح فمها حتى صاحت السيدة اقبال :

« يا بنت إنتي مش ملاحظة إني باتعامل مع ألف وميتين بنت زيك ، وإني عَلّمت وخَرّجت أكثر من عشرين ألف بنت . . . وإني أقدر أعرفك من مجرد النظر إليكي ؟! » .

ابتسمت سامية في حنان :

« طب إنتي شايفة إيه ؟! » .

« شايفة إنك تعبانة ولازم ترتاحي بقى من الهم اللي إنتي شايلاه على دماغك علشان تتفرغي لشغلك ومستقبلك ! » .

« عشرة على عشرة ! » .

« وإنتي طول ما إنتي بتهربي مش حاترتاحي ! » .

« سفري إسكندرية مش هرب يا ماما ! » .

قبل أن ترد السيدة اقبال ، نهضت سامية زافرة :

« أنا هناك حارتاح . . . لازم . . . لازم ارتاح ! » .

« ما لك يا سامية ؟! » .

كان السؤال مباغتاً فارتدت سامية إلى الخلف ، اختنق صوت الأم وهي تسأل :

« إيه اللي بيكي يا بنتي ؟! » .

راودت سامية نفسها أن تقص على أمها كل شيء وهي موقنة أنها سوف تحفظ السر ، لكن وعدها الذي قطعته على نفسها أمام عادل كان حاجزاً يسد عليها الطريق ، فإذا هي تقول :

« أنا بالفعل تعبانة يا ماما ، ويمكن عمري ما تعبت في حياتي قد مانا تعبانة اليومين دول ! » .

« طب ما تكلميني ! » .

« ما اقدرش . . . بس أرجوكي . . . خلي ثقتك فيّ زي ما هي ! » .

تململت الأم في تذمر فأردفت سامية في رجاء :

« أنا محتاجة للثقة دي أكتر من أي شيء في الدنيا دلوقت ! » .

« وحا تقولي لهم إيه في المجلة ؟! » .

« حاسلم لهم موضوع بكره الصبح قبل ما اسافر . . . وحاقول للأستاذ مختار إني رايحة أعمل تحقيق في ميناء إسكندرية حوالين العربيات اللي بتوصل وثمنها وإيه اللي بيدخل منها وقد إيه . . . وبيتهيألي إن الوقت ده مناسب ! » .

لانت ملامح الأم وتفجر الحنان من عينيها كسيل منهمر ، اختنق صوت سامية متوسلة :

« بلاش تبصي لي بالشكل ده . . . أنا النهار ده مش حاقدر استحمل حنانك وإلا حاتحصل كارثة . . . صدقيني يا ماما كارثة !! » .

ابتلعت الأم نظراتها وابتسمت ناهضة :

« تحبي أسيب لك العشا في المطبخ ، والا عاوزه تتعشي دلوقتي ؟! » .

« لا ده ولا ده . . . سيبيني أعشي نفسي علشان إحساسي بالذنب ناحيتك ما يبقاش زي البلونة اللي حاتنفجر !! » .

راحت كل منهما تنظر إلى الأخرى في صمت ، كانتا وكأنهما تتغذيان على تلك النظرات ، همت سامية بالاندفاع نحو أمها ، لكن السيدة اقبال لم تكن لتحتمل مثل هذا الموقف ، لذا فلقد هربت إلى الداخل وهي تقول :

« تصبحي على خير ! » .

. . .   .

. . .   .

جلست سامية إلى مكتبها في غرفتها المتواضعة كي تكتب موضوعاً للمجلة

قبل أن تسافر . . . لم يكن في ذهنها شيء ، حتى تلك الأوراق التي كتبتها في روما لم تكن تصلح لأن تخرج منها موضوعاً يتناسب مع ما كان يعتمل في نفسها . . . غير أنها فجأة ، وجدت نفسها تكتب عنواناً لموضوع يقول : « يوليوس قيصر يدعوني لزيارته ! » .

وعندما ظهر الموضوع في الأسبوع التالي ، أثار كثيراً من اللغط . . . كانت فكرته الخيالية تقوم على أساس أنها تلقت دعوة من يوليوس قيصر لزيارة روما الجديدة . . . وهي ، عندما ذهبت إلى هناك ، كان ما أدهشها ، رغم التغير الذي وجدته في الملابس والشوارع والبنايات ، أن روما كانت هي هي روما يوليوس قيصر . . . حتى تلك الرياضة الوحشية التي اشتهر بها قياصرة روما وأغنياؤها ، عندما كانوا يطلقون الأسود على العبيد كي تصارعهم ، وجدتها تماماً ، فقط استبدل القياصرة بالحيوانات المفترسة ، حيوانات أكثر وحشية ، حيوانات من حديد تدور في مصانع وتستعبد الإنسان في إنتج السلع ، ثم يبيعون هذه السلع لنفس هذا الإنسان . . .

قالت : إن زيارتها لروما كانت رائعة . . . عرض عليها يوليوس قيصر في نهايتها ، أن يبيعها سيارة مستعملة نظير قطرات من عرق تساقطت من جبهتها وهي تعمل ، لكن قطرات العرق لم تكن كافية لأن تشتري منه سقط المتاع ، سيارة مستعملة ، فعادت صفر اليدين !!

* * *

قضت سامية فهمي سبعة أيام في الإسكندرية ، قضتها بالكامل رغم رغبتها ، ربما منذ يوم وصولها، في العودة إلى القاهرة ، ولقاء عادل مكي ، ووضع نفسها تحت أمره . . . يوماً بعد يوم كانت الرؤية تزداد في عقلها وضوحاً . . . كان أكثر ما ساعدها وأدهشها في تلك الأيام السبعة إنها ، عندما أعادت ترتيب الأحداث كما وقعت ، وجدت أن إحساسها هذا الذي غلب عليها بأن في الأمر شيئاً غير طبيعي ، كان صادقاً . . . وأن ترددها هناك وعذابها لم يذهبا هباء أو سدى . . . غير أنه فيما تلا هذا من أيام أدركت وبشكل يكاد يكون

قاطعاً أن نبيل سالم لا بد من أن يكون على علاقة بكل هذه الأطراف . . . لا بد من أن يكون على علاقة بالسنيور جارديني الذي كان يظهر ويختفي في توقيتات محددة كي يوصل إليها ، أو إلى نبيل بمعنى أصح ، رسالة ذات معنى غمض عليها . . . وإنه لم يحدث أن التقت بجارديني بعد ذلك ، لا في مقهى بالبو ، ولا في أي مكان آخر. انتبهت مثلاً ، إلى أن حادثة النشل وقعت بعد مغادرتها ادريان تومسون مباشرة ، وبعدها ، اكتشفت رحيل نبيل المفاجىء . . . وهي قد اكتشفت كل هذا ، وقادها إليه ، ذلك الإحساس الذي طالما غمرها بالمهانة كلما تذكرت أنها قبلت مرتب ثلاثة أشهر من ادريان رغم شكوكها التي ثارت ، فلقد كانت في وضع من لا يستطيع أن يفعل شيئاً آخر .

وعلى كل ، فلقد كانت صحبة خالتها فاطمة ، المتزوجة من ضابط بحري في رحلة من تلك الرحلات التي يتغيب فيها لأسابيع ، خير معين لها على مواصلة التفكير في هدوء ، كانت فاطمة صديقة حقيقة تعرف متى تسأل ومتى تصمت ومتى تترك لها العنان كي تستغرق وتفكر ، كانت تتركها كي تفعل ما تشاء ، حتى إذا عادت إليها ، كان حديثهما الحميم خير معين لها على النوم العميق ، ذلك النوم الذي اشتاقت إليه ، والذي أضناها وأهلك جسدها غيابه الطويل عنها ! !

. . .   .

. . .   .

عندما عادت من الإسكندرية ، كانت بالطبع أحسن حالاً . . . في صبيحة اليوم التالي تحدثت إلى عادل مكي بالتليفون كي تطلب منه موعداً ، فحدد لها الموعد في اليوم التالي ، وعندما همت بإعادة السماعة إلى مكانها وجدته يصيح :

« حاتيجي إزاي يا سامية ؟! » .

دهشت لسؤاله لكنها أجابت :

« إلا إزاي ، في تاكسي زي كل مرة ! » .

« عظيم ، فيه واحد صاحبي عنده تاكسي شغل عليه ولد سواق إنما مؤدب جداً ! » .

« مش فاهمة ! » .

« التاكسي ده نمرته ٢٥٣٤ جيزة . . . حاتلقيه الساعة عشرة واقف لك على الباب ! » .

« برضه مش فاهمة ! » .

« ودي عاوزه فهم . . كل ما في الأمر إني عاوز أنفّع صاحبي في مشروعه الصغير ده . . . عندك مانع ؟! » .

عندما أعادت السماعة إلى مكانها استبدت بها الدهشة والقلق ، وهي لا تدري لم خطرت ببالها تلك السيارة التي حملتها آخر مرة من الباب الخلفي لجهاز المخابرات المصري ، واخترقت بها الحقول كي توصلها إلى ميدان القبة . . ولم يدهشها أنها وجدت التاكسي في الموعد تماماً أمام الباب ، ولم يدهشها أيضاً أن التاكسي سلك بها نفس الطريق الغريب الذي سلكته السيارة عند مغادرتها الجهاز لأخر مرة !

* * *

« فكرتي يا سامية ؟! » .

« قبل أي كلمة . . . إيه حكاية التاكسي دي ؟! » .

« مانا قلت لك في التليفون ! » .

« عادل بيه . . . » .

« ردي على سؤالي يا سامية وبطلي تهتمي بحاجات هايفة . . . فكرتي ؟! » .

« طبعاً . . . فكرت في كل حاجة ، من ساعة ما نزلت روما لحد ما رجعت مصر ! » .

« ده مش جواب على سؤالي ! » .

« قصدك إيه ؟! » .

« عندك استعداد تتعاوني معانا ؟! » .

في حزن حقيقي قالت :

« وهي دي مسألة عاوزة تفكير يا سيد عادل ؟! » .
« على خيرة اللّه ! » .
« بس فيه حاجة عاوزه أسألك عليها ! » .
« إتفضلي ! » .
« فيه حاجات من اللي أنا كنت عاوزه أبعتها لادريان توسون ، هايفة قوي ! » .

هنا . . وجدت عادل مكي إنساناً آخر ، كان رجلاً شديد الصراحة :

« مفيش حاجة اسمها هايفة يا سامية ، لأنك مش بتتعاملي مع فرد ، إنتي بتتعاملي مع جهاز . . . جهاز عنده مندوبين في كل حتة . . . حاجة هايفة من هنا ، وحاجة من هنا ، وتتجمع عنده كل الهيافات ، وبشوية علم يقدر يرتبها ، وبشوية تحليل ، يقدر يطلع بنتائج غير عادية ، ولا تخطرش على بالك ! » .
« فيه سؤال تاني إذا مكانش ده حايزعلك ! » .
« أنا مش زعلان ، ومش حازعل ! » .
« انت لما قلت لي ان الناس دي من المخابرات الإسرائيلية ، الموساد يعني ، كان ده استنتاج والا حقيقة ؟! » .
« الاستنتاج يا سامية ممكن يصيب وممكن يخطىء ، واللي زينا معندهمش استعداد يتعاملوا مع حاجات تحتمل أي نوع من أنواع الخطأ ، إحنا مش ممكن نتعامل مع استنتاجات ، تعاملنا كله لازم يكون مع الحقائق المجردة مهما كانت بشعة أو مخيفة ! » .
« طب إيه الحقيقة بالنسبة لنبيل ؟! » .
« تاني . . ؟! » .
« وتالت وعاشر . . . أنا عاوزه أطمن ! » .

« وأنا عاوزك في الوقت ده ـ تنسي نبيل خالص ، ولا تفكريش في حد غير مصر ! » .

كانت جملته لا تقبل جدلاً أو مناقشة ، صمتت لثوان قالت بعدها :

« طب انت عاوزني أعمل إيه دلوقت ؟! » .

« إنتي جمعتي شوية معلومات علشان تبعتيها لادريان ؟! » .

« مش شوية ، دول كثير وأنا قلت لك عليهم ! » .

« عظيم . . . اكتبي بقى جواب لادريان قولي فيه ده ! » .

صاحت في هلع :

« أقول له إيه ؟! » .

« قولي له ـ حسب اتفاقه معاكي ـ إنك حوشتي ثمن العربية وزيادة ! » .

« إيه اللي انت بتقوله ده يا سيد عادل ؟! » .

« ما لك ؟! » .

« انت عاوزني أبعت الكلام ده لادريان ؟! » .

« ما هو . . . . » .

لم تدعه يكمل ، كان الذعر قد سيطر عليها تماماً ، قاطعته في توسل :

« عادل بيه . . . انت موديني على فين ؟! » . .

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

المعرفة على قدر الحاجة !

« شوفي يا سامية . . إنتي وعدتي بأنك تتعاوني معانا ، أبـديتي استعدادك بشكل لا يحتمل تردد أو ضياع دقيقة واحدة من الوقت ، ولازم تفهمي كويس قـوي ، إن أنا إذا كنت بـاحترم الأزمـة اللي إنتي بتمري بيهـا ، وباحتـرم أكثر شجـاعتك ووطنيتـك . . . إلا إني قبـل كـل شيء ، قبـل منـك ، وحتى قبـل أولادي ، فيه بلد إحنا بندافع عنه بضوافرنا قدام عدو شرس ، بنحاول نحميها من قطيع من الذئاب متربص بيها من كل ناحية وفي كل مجال . . . وإذا كنتي على مستـوى المسؤوليـة وقـادرة تقفي على رجليكي من غيـر لـوثـة الفنـانين والصحفيين اللي فيكي دي ، لازم تكـوني جـاهـزة بـأسـرع مـا يمكن . . . والا . . . والا . . . ! » .

كان هذا الواقف أمامها الآن شخصاً آخر بكل المقاييس ، كان رجلاً غاضباً تنطلق من عينيه نظرات كالحمم ، لم يكن يرتجف ، ولم يكن منفعلاً بأي معنى من المعاني . . . بل كان ثابتاً كالطود لا يهتز ، كان يقول ما يقول وكأنه اتخـذ قرارات لا عودة فيها . . . لكنه مالبث دون أن يشعل سيجارة هذه المـرة ، أن استطرد :

« الوقت اللي أنا قعـدته معـاكي كان كـافي جداً لأنـك تفهمي وتدركي ان المسـألة مش محتـاجة لكـل اللي إنتي فيه ده ، ولـو كنتي عاوزه تعـرفي قيمـة البـلاوي اللي إنتي جمعتيهـا علشـان تبعتيهـا لادريـان ، وإيـه مـدى الأضـرار والمصـايب اللي ممكن تحل بـالبلد لو إنـك بعتيها بـالفعل ، حـاقـول لـك ،

حاقولك دلوقت ، حالاً . . . بس بعدها ، أنا اللي حاعتذر عن التعاون معاكي . وقبل ما اعتذر لازم حاشكرك لأنك قمتي بواجبك نحو وطنك ، إذا كنتي محتاجة لشكر على واجب !! » .

على استحياء جاءته كلماتها :

« أصل فيه حاجات محيراني جداً يا عادل بيه ! » .

« زي إيه ؟! » .

« زي حكاية التاكسي دي ! » .

« ولو جاوبتك ، تبطلي تسألي ؟! » .

« أوعدك ! » .

« إنتي أبديتي استعدادك انك تتعاوني معانا ، مش كده ؟! » .

« ولازلت ، وحافضل ! » .

وراح عادل مكي يشرح لها أن مسألة السيارة الأجرة والباب الخلفي الذي أصبحت تدخل منه إلى الجهاز وتخرج منه في نفس الوقت ، ليست من باب العبث . . . فهي وقد اتخذت قرارها بأن تتعاون معه ، فإن معنى هذا أنهما قد يضطران لأن يرى كل منهما الآخر ، ولفترة قادمة ، بشكل شبه منتظم . . . وفي هذه الحالة لا بد من إبعاد الشبهة عنها . . . وليس معنى هذا أن للإسرائيليين عيوناً في مصر تستطيع أن ترصد تحركاتها أينما ذهبت ، ولكن معناه أن أية مصادفة ـ مجرد مصادفة ـ قد تحمل أي إنسان ، مهما كان قريباً أو زميلاً أو صديقاً ، يراها وهي تدخل الجهاز ، كفيلة لأن تجعله لا يشك في أمرها فقط ، بل كفيلة بأن تنشر الخبر . . . ومهما كان حيّز الانتشار ضيقاً ، فلا بد من أن تتناثر كلمة هنا أو كلمة هناك . . . حتى ولو بغير قصد ولمن لا يفتح آذانه كي يسمع ويتسمع . . . كان لا بد إذن من الاحتياط حتى لا نترك شيئاً لمصادفة خرقاء قد تهدم كل ما بني ، وكل ما يبنى للايقاع بتلك الشبكة الجهنمية التي تعمل خارج مصر !

« معنى كده ان المرحلة اللي جاية . . . . . » .

قاطعها مؤكداً :

« مهمة جداً ، وخطيرة ، وخطيرة جداً ، ومحتاجة لصبر أيوب ولثبات أعصاب وعنين مفتحة . . . ولازم تفهمي أن حياتك عندنا مهمة وأماتك أمانة في رقبتنا ! » .

ساد الصمت بينهما لثوان ، ابتسمت سامية بعدها وقد استشعرت راحة تتسلل إليها ، وغمغمت :

« على العموم أنا آسفة ! » .
« أنا مش محتاج لاعتذارك ، ما بقاش فيه وقت حتى للاعتذار ، والأيام بتجري وهم عمالين يخربوا وكأنهم في الملعب لوحدهم ! » .
« طب انت عاوز إيه دلوقت ؟! » .
« عاوز أعرف ، وللمرة الأخيرة ، إذا كان . . . » .

قاطعته سامية :

« عندي استعداد ، مش كده . . . أقسم لك ان عندي استعداد حتى ولو كلفني الأمر حياتي ! » .
« يبقى نشتغل ! » .

همت بالرد فأردف مشيراً إلى المكتب :

« فوراً !! » .

* * *

أحست سامية فهمي ، لدهشتها الشديدة ، أن الأمور قد عادت إلى توازنها من جديد . . . كانت ـ منذ أن التقت بهذا الشاب الذي بدا لها غريباً كل الغرابة ، متميزاً كل التميز ـ تشعر وكأنه مثل الأم الرؤوم . . . وجدته ، منذ لحظة اللقاء الأولى ، متفهماً ومدركاً لأبعاد كل شيء ارادت أن تتحدث فيه ، أو

تحدثت فيه بالفعل . . . ولقد أدهشها هذا طوال الأسابيع الثلاثة التي مرت ، وفي كل مرة التقت فيها به ، لا تستطيع أن تمنع نفسها من المقارنة بين ما كانت تسمعه من قصص تفوق الخيال عن رجال المخابرات ، وما كانت تلقاه من معاملة حنون . . . فكانت تشعر دائماً وكلما جلست إليه أو فكرت فيما كان يدور بينهما ، أن ثمة شيئاً ناقصاً على السطح ، جهامة وقدرة رهيبة على حسم الأمور والسيطرة على المواقف . . . كانت مقتنعة كل الاقتناع بكل كلمة قالها ، وكانت مدركة بشكل غامض ، إنه صادق في كل حرف فاه به ، لذلك . . . فلقد طرحت فجأة كل شيء من فوق كتفيها وهي تهتف :

« حاجة غريبة قوي ! » .

« إيه هو اللي غريب ! » .

« التردد اللي أنا فيه ده ! » .

« تردد ؟! » .

« أيوه . . . بصراحة كده أنا خايفة من كتابة الجواب ده لادريان ! » .

« أمر طبيعي انك تخافي ! » .

« مش وانت جنبي يا عادل ! » .

قالت جملتها تلك في ثقة أنكرتها على نفسها ، جاءت كلماتها عفوية حاسمة قاطعة أشاعت في الغرفة جواً من الاطمئنان والثقة . . . وكانت هذه هي المرة الأولى التي تناديه فيه باسمه مجرداً . . . كان يناديها منذ البداية باسمها دون ألقاب ، ولقد حاولت أن تصنع مثله كما اتفقا لكنها لم تستطع ، وهاهي تنطق الاسم مجرداً في لحظة بدت لها باهرة معبرة عن مكنون نفسها . . . ابتسم كلاهما وعادا مرة أخرى إلى مجرى الحديث :

« ودلوقت . . . إنتي فهمتي إيه اللي أنا طلبته منك ؟! » .

« أيوه . . . وبكره حاتلاقي الجواب جاهز أربعة وعشرين قيراط ! » .

« صفر على عشرة ! » .

« ليه ؟! » .
« لأنك حاتكتبي الجواب هنا قدامي ! » .
« طب ونوتة الجوابات اللي أنا اشتريتها ! » .
« ما لها ؟! » .
« المفروض إني كتبت الجواب الأولاني منها أو على الأقل ، إني باستعمل النوع ده من الورق في كتابة الجوابات . . . ولو كتبت على ورق تاني ، ممكن ده يلفت نظره ، أو يثير الشك عنده ! » .

رماها عادل بنظرة إعجاب لم تخف عليها ، ابتسم قائلاً :

« طب ما إنتي بتفكري كويس آهه ! » .
« أنا مستعدة أروح أجيب النوتة من البيت ! » .
« وليه ؟! » .

قال هذا وهو ينهض إلى المكتب كي يفتح أحد أدراجه ، ويخرج منه نوتة للخطابات هي صورة طبق الأصل من تلك التي اشترتها سامية وهو يردف :

« النوتة دي أختها بالضبط . . . من نفس الورق ونفس المصنع ونفس الكمية اللي انطرحت في السوق ! » .
« يا خبر أسود . . . انت حتى . . . . . . » .

هكذا هتفت بإعجاب فضحك عادل وهو يتساءل :

« إيه . . ما لك ؟! » .
« وعرفت نوع النوتة والمصنع والكمية كمان ؟! » .
« يا سامية شغلي مخك شوية . . . هي دي عاوزه عبقرية . . . الجواب اللي بعتيه مكتوب على ورق شائع جداً في مصر ، تفتكري صعب قوي إن أي واحد ينزل الفجالة ، يشتري نوتة من نفس النوع ؟! » .

كان أقل ما يمكن أن يقال عن سامية فهمي ، بعد عودتها من الإسكندرية

أنها كانت مرتاحة الضمير . . . وكان هذا كافياً تماماً لأن تنصت إلى ما يقوله عادل مكي بانتباه شديد . . . كان جالساً مائلاً نحوها . . . وقد عادت السيجارة إلى مكانها بين أصابعه ، ترسل دخانها ، وقد فرغا لتوهما من فنجاني قهوتهما .

« أنا عاوزك تسمعيني كويس قبل ما تخطي أي خطوة ! » .

كانت منصتة ، منصتة ، منصتة . . .

« بداية أنا عارف ان فيه عشرات الأسئلة اللي حاتحيرك ويمكن تتعبك كمان . . . مش لأنك إنسانة متعبة أو غاوية تعب ، ولكن لأنك مثقفة أولاً وصحفية ثانياً ولمضة ثالثاً ! » .

ضحك كلاهما ضحكة خفيفة وقد رطبت كلماته من حدة الجو ، ثم استطرد :

« الناس اللي زيكم ، بيبقوا عاوزين يعرفوا كل حاجة بأي ثمن . . . بيحبوا يعرفوا ويتعلموا ويضيفوا لمعلوماتهم معلومات جديدة لأن دي طبيعة عملهم وشغلهم . . . وانتوا مش بتقولوا ان الصحافة هي مهنة البحث عن المتاعب ؟! » .

لزمت الصمت فاعتدل في جلسته :

« لكن شغلتنا دي فيها مبدأ ، أو قاعدة بتقول : المعرفة على قدر الحاجة . . . يعني الإنسان حتى لو كان ضابط مخابرات ويمكن خصوصاً لو كان ضابط مخابرات ، مش لازم يعرف إلا المعلومات اللي هو محتاج لها . . . مش علشان السرية وبس ، وإنما كمان علشان المعلومات الزايدة على الحاجة ممكن تشغله عن هدفه الأساسي ! » .

أشعل سيجارة من أخرى ، ونهض إلى حيث تلك النافذة التي لا تطل إلا على سور مرتفع ، وسرح ببصره إلى بعيد مستطرداً في الحديث :

« في الحقيقة دي كانت قاعدة سايدة في عالم المخابرات لحد وقت قريب

جداً . . . وعلم المخابرات زيه زي أي علم تاني في الدنيا ، بيتطور يوم بعد يوم ، ويمكن ساعة بعد ساعة وتنضاف ليه حاجات جديدة ممكن البعض يأخد بيها ، والبعض بيفضل الأسلوب القديم ، أو على حد تعبيركم المدرسة القديمة. . . وفيه فريق ثالث بيستعمل الأسلوبين، كل عملية لها الأسلوب اللي ينفع لها ويتلاءم معاها . . . لكن بتفضل سواء أكان الأمر كده أو كده ، قواعد ثابتة مش ممكن الإنسان يحيد عنها مهما كان الأمر ! » .

التفت نحوها دون أن يغادر مكانه مردفاً :

« أنا باقول لك الكلام ده علشان تدركي إن المسألة مش مسألة مزاج شخصي ولا رغبة في الغموض . . . ولكن مسألة علم وقواعد وأصول ، وقبل كل ده ، أمن دولة واجبنا إننا نحميها ! » .

تحرك الآن عائداً إلى مقعده وكأنه فرغ من مهمة على درجة من الخطورة . . . ران الصمت بينهما لثوان طالت بعض الشيء ، وكانت سامية تشعر في تلك اللحظات بمزيج غريب من الراحة والسعادة والرغبة في الاستزادة مما يقول . . . ولقد لاحظ عادل مكي ما اعترى بشرتها من صفاء نَمّ عما كانت تشعر به ، فازداد ارتياحه وانطلق في الحديث بحماس : وقد أدرك ـ لأول مرة ـ أن كل ما بذله طوال الأسابيع الماضية لم يذهب سدى . . . فعاد إلى الحديث بحماس :

« إذا خطر لك أي سؤال ، مهما كان أمره لازم تسأليه . . . إنما أنا مش عاوزك تتضايقي لو جاوبتك إجابة مش شافية ، أو لو مالقيتيش إجابة خالص . . . وكل اللي باطلبه منك ـ علشانك وعلشان مصلحتك ـ إنك تحاولي تتعلمي الصبر شوية . . . لأنك غصب عنك وعني ، ومع الاستمرار في التجربة ، حاتتعلمي حاجات كتيرة ، ومفيدة ولا كانتش تخطر ببالك !! » .

عاد إلى الصمت وهو يحدجها بنظرة ثابتة ، ثم سألها وكأنه يستنطقها ويخرجها عن صمتها :

« موافقة يا سامية ؟! » .
« موافقة يا فندم ! » .
« دلوقتي إنتي حاتقومي تقعدي على المكتب ده ، وتكتبي جواب لأدريان ، أو بمعنى أصح حانكتب سوا جواب لأدريان . . . وأنا بافضل إننا نكتب له مسودة في الأول على الورق ده ! » .

كانت هناك ، إلى جوار نوتة الخطابات التي أخرجها من درج المكتب ، رزمة من الورق الأبيض . . . نهضت سامية إلى المكتب وهي تخرج قلمها من حقيبة يدها متسائلة :

« عاوزني أكتب اقول له إيه ؟! » .
« زي ما اتفقتي معاه بالضبط ، حاتقولي له بالأسلوب المتفق عليه إن عندك أخبار مهمة جداً ! » .
« يعني اقول له إني جاهزة علشان اشتري عربية ! » .
« خليها علشان تشتري عربية محترمة كمان ! » .
« ما هو ده حايبقى معناه إن عندي أخبار عظيمة جداً ! » .
« وهو المطلوب ! » .
« حايبعت يقول لي تعالي ! » .
« أو حايجي بنفسه ـ زي ما قال لك ـ علشان يستلمها ! » .

أمسكت سامية بالورق الأبيض واستعدت للكتابة لكنها بدت وكأنها استغرقت فجأة في شيء ما . . .

« إنتي عاوزه تسألي عن حاجة ! » .
« أيوه . . . بس خايفة منك ! » .
« إحنا اتفقنا . . . لازم تسألي أي سؤال يخطر ببالك ! » .
« طب افرض إنه قال لي تعالي . . . حاسافر له ! » .
« قبل كده ، مش نستنى لما نعرف هو حايرد عليكي إزاي ؟ » .

ألقت جملته الضوء على ركن مظلم من تفكير سامية فألقت بالقلم جانباً وهي تهتف :

« تصور إني مافكرتش في الموضوع ده قبل كده ! » .
« مع إنه سؤال مهم . . . حايرد إزاي ؟! » .
« بجواب طبعاً ! » .
« هو اللي حايكتبه ، والا حد تاني ؟! » .
همت بالرد فأردف :

« لاحظي إنك باعتة الجواب باسم نبيل !! » .
« انت عاوز تقول لي حاجة ! » .

تجاهل جملتها هارباً إلى سؤال شد انتباهها :

« إنتي بعتي جواب لنبيل من يوم ما وصلتي مصر ؟! » .
« وهو أنا كان فيَّ دماغ ؟! » .
« كان لازم يبقى فيكي دماغ ! » .
« أصل نبيل ممكن . . . . » .

قاطعها :

« المفروض إنك تشكريه على الحفاوة اللي قابلك بيها ، وتشكريه على كل اللي عمله معاكي . . . ولاحظي إنك لابسه الخاتم بتاعه ! » .

قال هذا وهو يومىء نحو الخاتم الذي يزين أصبعها فانتفضت ، واختطفت نظرة من الخاتم بغمغمة :

« مانا حاشكره ، إنما . . . . . . » .
« وليه ما يحصلش ده النهار ده ؟! » .
« هو الـ . . . . . . » .
« سامية !! . . . » .

جاءتها الكلمة مثل إنذار دفع بيدها إلى الورق فراحت تكتب لادريان خطابها الثاني . . . قالت في الخطاب الذي راحت تنتقي - مع عادل - كلماته كلمة كلمة، إنها عملت كثيراً في الأسابيع التي انقضت، ورغم أن العمل كان مرهقاً ، فإنه كان عظيماً ، ولقد استطاعت أن توفر مبلغا لا بأس به من المال يكفي - إذا ما وضعته على ما زال معها - أن تشتري به سيارة محترمة . . . ثم سألته عن رأيه في الأمر وهل أسعار السيارات لا تزال مرتفعة ، أم أن هناك أملاً في أن تشتري سيارة عليها القيمة ؟

« بيضي الجواب ده علشان تكتبي جواب لنبيل بالمرة ! » .
« هو ده بس اللي أنا حاكتبه ؟! » .
« عاوزه تكتبي إيه تاني ؟! » .
« المفروض إني أرغي معاه شوية ! » .
« تقدري ترغي في الجواب التاني ! » .
« وده لازم اكتبه هنا برضه ؟! » .
« وإيه المانع ، علشان تبقى النوتة هي النوتة والحبر هو الحبر ! » .
« عاوزني اقول له إيه ؟! » .
« عاوزك تبقي سعيدة جداً ، وعاوزك تحبيه جداً ، وتقولي له إنك مابطلتيش شغل من يوم ما وصلتي ولولا أن الشغل أخد كل وقتك كتي كتبتي له كل يوم جواب ! » .

أمسكت سامية بالقلم فأردف :

« يعني بأسلوبك الحلو إياه ، فَهّمي نبيل إنك عملتي شغل هايل ! » .

كمن يكتشف هوة تحت قدميه قالت متوجسة :

« هو نبيل له دعوة ؟! » .
« أنا ما قلتش كده ! » .
« أمال عاوزني اتكلم معاه في الشغل ليه ؟! » .

صمت عادل لثوان لكنه قال :

« علشان كل حاجة تبقى طبيعية يا سامية ، لازم كل شيء يبقى طبيعي ولا يلفتش النظر ! » .

ظلت محملقة فيه وكأنها لا تصدق ما يقول فأردف باسماً :

« أفرضي ان ادريان قابله مصادفة في أي حتة وسأله عنك . . . أكيد حايتكلموا مع بعض ولو نبيل قال له إنك كتبتي له إنك اشتغلتي كتير ، تبقى مسألة عادية جداً ، والا إيه ؟! » .

كأنها اطمأنت زفرت قائلة :

« طبعاً طبعاً . . . معاك حق ! » .

« لازم تفهمي ان الجوابات دي وأي كلمة أو تصرف كلها بتدخل مفرمة تحليل ماتخليش فيها كلمة إلا لما تتعرف على حقيقتها ! » .

وكتبت سامية خطاب نبيل ، اندفع القلم في يدها يسطر على الورق ودون توقف ، تماماً كما تعودت معه . . . حكت له كل شيء عن أمها والمجلة والعمل الذي استغرق وقتاً وجهداً ، وكيف كانت أيامها مشحونة بلقاءات مع مسؤولين ووزراء وأدرك عادل مكي من اسلوبها في الكتابة أن الأمل ما زال يراودها في ألا يكون لنبيل دخل بالأمر برمته فانقبض قلبه . . . لكنه طلب منها أن تكتب له أنها حصلت على مكافأة سخية من المجلة نظير الموضوعات التي قدمتها . . . فتوقفت سامية عن الكتابة قائلة :

« انت مش بتقول إن كل حاجة لازم تبقى مضبوطة مية في المية ؟! » .
« تمام ! » .
« طب أكتب له إني أخدت مكافأة إزاي وده ما حصلش ؟! » .
« مين اللي قال ؟! » .

صاحت :

« أنا يا عادل بيه ؟! » .
« إنتي مارحتيش المجلة بقى لك قد إيه ؟! » .
« من يوم ما سافرت إسكندرية ! » .
« فيه مكافأة نزلت الحسابات بميت جنيه من كام يوم ! » .

كادت تصرخ فعلاً ، كادت تصرخ دهشة ليس لما قاله فقط ، ولكن لأن المبلغ كان كبيراً بالفعل .

« وعلى فكرة وقبل مخك مايروح يمين أو شمال أنا ماليش دخل بالموضوع ده . والحكاية كلها تمت في اجتماع التحرير الأخير وكانوا بيناقشوا موضوعات العدد اللي فات ، ولما اتقال كلام كويس عن الشغل اللي عملتيه في إيطاليا ، والكل عرف إنك ما أخدتيش لا بدل سفر ولا حتى تمن تذكرة الطيارة أخدوا قرار بالمكافأة ، واتوافق عليه بالاجماع ! » .

بدا لها الأمر وكأنه نوع من الخيال ، ارادت أن تسأله كيف عرف تلك التفاصيل فبدا لها السؤال ساذجاً ، عادت إلى القلم والورق من جديد وراحت تسطر بقية خطاب نبيل ، ثم أضافت : إنها الآن أصبحت على استعداد لأن تشتري سيارة : « زي عربيتك يا بلبل ومفيش حد أحسن من حد ! » .

قرأ الخطاب مرة أخرى وعدل عادل كلمة هنا وكلمة هناك ، ثم طلب منها أن تضع طابعي بريد فوق الخطابين اللذين كانا يحملان اسماً واحداً ، وعنوانين مختلفين، وكان عادل ـ ولم يدهش هذا سامية بطبيعة الحال ـ قد جهز مجموعة من ظروف الخطابات ، من نفس النوع الذي استعملته في خطابها الأول إلى ادريان . . . أمسك عادل بالخطاب الموجه إلى روما وهو يقول :

« ده تبعتيه النهار ده من أقرب صندوق بوستة جنب البيت أو المجلة ! » .
« إشمعنى جنب البيت أو المجلة ؟! » .
« لأن ده الأمر الطبيعي ! » .
« وافرض إني بعت الجواب من أي مكان ؟! » .

« لاحظي إن ختم مكتب البريد بيدل على مكان إرساله ! » .

كان مقنعاً ، بل كان مفحماً . . . فسألته :

« وجواب نابولي ؟! » .

« ابعتيه بعد ثلاث أيام من نفس صندوق البوستة ! » .

* * *

قبل أن تغادر سامية فهمي عادل مكي في ذلك اليوم ، كان عليه أن ينبهها إلى حقيقة بدت لها مذهلة بكل المعاني . . . طلب منها منذ تلك اللحظة ، وحتى يأتيها الرد أو يأتي ادريان نفسه . . . أن تعيش حياتها بشكل طبيعي للغاية أن تذهب إلى المجلة ، وتكثر في كتابة الموضوعات ، وأن تحضر اجتماعات التنظيم باستمرار . . . لكن ، الأهم من هذا كله ، كان عليها أن تستمر في جمع المعلومات ، والحصول على الأخبار خاصة تلك التي ذكرها ادريان تومسون . . . باختصار ، كان عليها أن تعود كما كانت تماماً ، وأن تعمل ـ في نفس الوقت ـ كما لو أنها بالفعل تعمل لحساب وكالة أنباء ادريان تومسون . . . ولقد استمعت سامية في انتباه شديد ، حتى إذا انتهى هتفت :

« لحد كده ومش ممكن ما اسألش بقى ! » .

رماها بنظرة عتاب استقبلتها بابتسامة وهي تقول :

« ما هو أنا لازم افهم علشان أعرف اعمل اللي انت عاوزه بالضبط ! » .

« من غير ما تعرفي . . . اعملي اللي باقول لك عليه ! » .

« وإذا حصلت على أخبار خطيرة ؟! » .

« يبقى عظيم !! » .

« عادل بيه ! » .

« وقبل كل ده ، لاحظي إنك لازم تنتهي من كتابة أول رسالة لادريان ! » .

سألت في هلع :

« رسالة إيه دي ؟! » .

« المعلومات التي إني جمعتيها ، انت مش ناويه تبعتيها لو طلب منك ده ؟! » .

« أبعتها ؟! » .

« أو تديها له إذا جه ! » .

« أبعتها والا أديها لمين يا سيد عادل ؟! » .

« لادريان ! » .

« أنا مش فاهمة حاجة ! » .

« بس قبل ما تديها له أو تبعتيها لازم نقرأها سوا ، والا إيه ؟! » .

« يا سيد عادل المعلومات اللي انت بتتكلم عنها دي هي اللي جابتني هنا ! » .

« طب مانا عارف ! » .

« دي فيها معلومات خطيرة جداً . . . دي فيها معلومات عن الأسلحة الجديدة ! » .

« مانا حاشوفها ! » .

« دي فيها حاجات حقيقية مية في المية ! » .

« ما هو إنتي لازم تكتبي لهم شوية حقائق علشان يصدقوكي ! » .

« دي تودي في حديد . . . » .

« ما تشيليش هم ، ولازم تبقي جاهزة في خلال ثمان وأربعين ساعة ! » .

قال هذا وهو ينهض خاطياً نحو الباب . . . تزاحمت الأسئلة في رأسها لكنها عافت أن تسأل، ودعته ومضت وقد غلف الغموض كل تفكيرها . . . فما الذي يعنيه هذا الرجل بإرسال تلك المعلومات التي حرمتها النوم ليالي وليالي إلى الإسرائيليين، إن كانوا إسرائيليين كما قال؟ . تلك المعلومات بالذات هي التي جعلتها تلجأ إليه . . . غير أنها حاولت بعد ذلك أن تتناسى الأمر . . . انغمست في العمل وعادت إلى المجلة واستردت نشاطها وراحت وجاءت

وصالت وجالت كما تعودت أن تفعل تماماً . . . يوماً بعد يوم عادت سامية فهمي كما كانت تلك التي عرفها الزملاء والأصدقاء والناس جميعاً . . . كتبت الرسالة ذات ليلة وأتقنت كتابتها ، كانت رسالة رهيبة تتحدث عن الاقتصاد والتموين وتحوي أخباراً عن الصناعة وبعض المعدات الحربية التي وصلت حديثاً ، كما حوت أنباء عن شائعات بقرب تغيير وزاري يوشك أن يحدث . . . و . . . و . . . وهي عندما وضعت الرسالة بين يدي عادل ، جلس إليها وراح يقرأ باهتمام بالغ وكأنه يعيد قراءة الكلمة الواحدة مرة بعد مرة . . . وما أن انتهى من القراءة حتى هتف :

« عظيم ! » .

« إيه هو اللي عظيم ؟! » .

« إحنا حانخلي المعلومات اللي عن التموين زي ما هي ، وأخبار المصانع حانستبعد منها خبر مصنع الدرفلة بالذات ، ونغير في أخبار الحديد والصلب تغيير خفيف . . . لكن المعلومات الخاصة بالمناورات ، لازم تنكتب بشكل تاني ، والمعدات الحربية ، حانخلي فيها حاجات وفيه حاجات ملهاش لازمة ! » .

أحست سامية فهمي في تلك اللحظات وكأنها مشرفة على الجنون . . . تخيلت ـ أثناء حديثه ـ الأستاذ أحمد مختار وكأنه يناقش معها موضوعاً عن مولد السيدة زينب ، كان يتحدث عن أمور غاية في الخطورة . . . ببساطة من يناقش فيلماً سينمائياً عرض حديثاً . . . طال الصمت بينهما فسألها :

« ما لك ؟! » .

« مش فاهمة . . . وخايفة !! » .

« معلش . بعدين حاتفهمي كل حاجة ، المهم دلوقتي إنك تقدري تبيضي الرسالة دي هنا ، وبعدها يحلها ربنا !! » .

* * *

ومضت الأيام . . .

كانت سامية وقد أعادت كتابة الرسالة حسب التعديلات ، قد تركتها معه بعد أن أحرق عادل الرسالة الأصلية أمام عينيها فلم تفهم سر فعلته لكنها لزمت الصمت . . . انطلقت إلى حياتها من جديد وقد حمدت له أن طلب منها أن تترك الرسالة لديه ، فلقد أحست ، أنها تخففت من عبء ثقيل كان من الممكن أن يؤرقها طوال الأيام القادمة !

مضت الأيام وقد عادت إلى حياتها الطبيعية . . . وكلما مر يوم ، أحست أن الشقة تبعد بها عن تلك الأحداث التي ظللت حياتها بسحب شديدة السواد ، وتمنت مخلصة ألا يرد ادريان وألا يأتي وأن ينتهي الأمر عند هذا الحد . . . حتى كان يوم ذهبت فيه إلى المجلة محملة بعشرات الأخبار والمعلومات ، كانت الساعة قد جاوزت الثالثة ظهراً فوجدت صالة التحرير خالية تماماً توجهت إلى مكتبها وبدأت العمل ، انغمست فيه عندما أظلها جسد إنسان كأنه جاء سابحاً في الهواء حتى وقف أمامها ، رفعت رأسها وقد أخذتها المفاجأة فإذا فريد الشاعر - زميلها وسكرتير تحرير المجلة والشاب الذي يذوب فيها حباً - كان يقف أمامها وقد مال بجسده نحوها وهو يحدقها بنظرات بدت لها غريبة بل بدت لها مخيفة . . . هتفت معاتبة :

« فريد ! » .

« وشك ولا وش القمر » .

أشارت إلى الأوراق المتناثرة فوق مكتبها :

« أديك شايف ! » .

« إنتي مش ملاحظة إننا ماقعدناش مع بعض من يوم ما رجعتي من إيطاليا ؟! » .

« غصب عني والله يا فريد ! » .

« على العموم إذا كان يهمك تعرفي أخبار عني ، إبقي اديني خبر علشان أقول لك ! » .

قال هذا وهو يغادرها محتدماً بالغضب ، غادرها بخطوات سريعة وكأنه يهرب . . . وقعت في الحيرة وأصابها ألم من نوع لم تجربه من قبل . . . تلفتت في الغرفة الخالية وهي تتساءل بصوت عال : « طب أعمل إيه ؟! . . . » كانت مدركة أن فريد على حق ، ولا بد من أن يكون الجميع قد تساءلوا فماذا يقولون وماذا تقول ؟! . . . كيف تبرر اختفاءها عن المجلة وقد كانت بالنسبة إليها صدر أم تنعم فيه بالحنان كله ، استبدت بها الحيرة لا تدري هل تنهض إلى فريد أم تتركه لغضبه حتى يزول ، اختلط كل شيء في ذهنها بكل شيء . . . انتبهت على أقدام عم سيد صاحب البوفيه وهو يدخل حاملاً لها كوباً من الشاي وسندوتشاً كانت قد طلبتهما منه ، وضع الرجل الشاي مع السندوتش أمامها لكنه لم ينصرف . . . رفعت إليه رأسها فإذا رأسه مائل إلى اليمين شأنه عندما يريد أن يقول شيئاً ، كانت عيناه تفيضان حناناً ، ذلك الحنان الذي رضع منه كل من عمل في هذه الدار . . . قبل أن تفتح شفتيها بكلمة سألها :

« **خير يا مزمازيل سامية !** » .

كان عم سيد دائماً في مقام الأب ، لم يكن مستأجر بوفيه بقدر ما كان جزءاً لا يتجزأ من حياة كل من تعلموا وعملوا في الدار . . كلهم أولاده كلهم أطعمهم وأقرضهم وخدمهم ، هتفت وكأنها تستنجد به :

« **سلامتك يا عم سيد !** » .
« **إيه أخبار الأستاذ نبيل ؟!** » .
« **الأستاذ فريد الشاعر ما له يا عم سيد ؟!** » .

هكذا وفرت عليه الأمر وقطعت كل الطريق إلى مقصده في جملة .

« **ما له الأستاذ فريد ؟!** » .
« **يظهر إنه زعلان مني ؟!** » .
« **يمكن إنتي ماباركتلوش !** » .

انتفضت بكليتها انتباهاً :

« أبارك له على إيه ؟! » .

كمن ينعي خبراً عزيزاً لديه ، قال :

« الأستاذ فريد عقبال عندك خطب ! » .

« إمتى ؟! » .

« وانتي في بلاد بره ! » .

كالصاروخ قفزت من خلف مكتبها ، واندفعت تغادر الغرفة لا تلوي على شيء ، كان الغضب قد استبد بها استبداداً ، عبرت ممراً انثنت بعده يساراً كي يطالعها باب غرفة فريد وكان مغلقاً على غير العادة ، دفعت الباب بعنف وكان يجلس خلف مكتبه رفع إليها رأسه فعاجلته قائلة :

« بقى معقول اللي أنت بتعمله ده ؟! » .

في برود قاتل . قال :

« خير يا سامية ! » .

مالت نحوه وكانت دماؤها تغلي :

« تخطب يا فريد ولا تقوليش ؟! » .

« وهي المسألة تهمك كثير ؟! » .

« فريد . . . أنا صاحبتك وأختك وزميلتك ، وانت غصب عنك ، صاحبي وأخويا وزميلي حتى ولو مكانش ده يعجبك ؟! » .

« يااااه » .

قالها وهو يضطجع في مقعده ساخراً :

« إيه اللي جرى لك يا فريد ؟ » .

« إنتي وصلتي من روما بقى لك قد إيه ؟! » .

« بقى لي كثير . . . لكن ليه السؤال ده ؟! » .

« ما لاحظتيش طوال المدة اللي فاتت دي إني لابس دبله ؟! » .

دون وعي صاحت فيه مختنقة الصوت :

« وهو أنا كنت في إيه والا في إيه ؟! » .

أطلت من عينيه نظرة عتاب صارخ ، فاستطردت وقد تملكها الانفعال :

« وأنا ما كنتش باجي المجلة إلا علشان أسلم الموضوعات وامشي ! » .

« حتى ولو كنتي جيتي مرة واحدة ، الصداقة والأخوة والزمالة مش كلام يا أستاذة ! » .

« افرض إني ما اخدتش بالي وكنت مشغولة كان واجب تقول لي يا فريد علشان أبارك لك على الأقل ! » .

« الله يبارك فيكي ! » .

قالها وهو يعود بعينيه مرة أخرى إلى ما كان فيه ، سقطت من عينيها دمعتان انحدرتا فوق وجنتيها وكانت تنتفض ظلت تنظر إليه وهي تتساءل ماذا يمكن أن تفعل ، لماذا تفقد الأحباب والأصدقاء واحداً وراء الآخر ، كان فريد أقرب الزملاء إليها . . . انتظرت أن يرفع رأسه عن الأوراق لكنه لم يفعل . . . غير أنها في لحظة أدركت أن فريد معذور ، ازداد جريان دموعها وهي تنتبه إلى أنه لا يعرف ما مرت به ، وهي لا تستطيع أن تخبره فهل . . . هل تنتظر منه أن يفهم ما لا يدرك ، وأن يقدر ما لا علم له به ؟!

ولم يكن هناك ما يمكن أن يقال ، لم يكن أمامها سوى الانسحاب في هدوء ، وكانت دموعها كالمطر !

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

صراع الثعالب!

أثر موقف فريد الشاعر في سامية فهمي تأثيراً قوياً وعميقاً ، وازداد مع الوقت إحساسها بالألم والأسى معاً . . . كانت تعلم أن لا حيلة لها فيما حدث . . . وهي ، إذا كانت قد أعطت لفريد العذر فيما فعل ، فإن علاقتها المتميزة بذلك الزميل الذي كان له فضل الوقوف إلى جانبها وتوجيهها ورعاية مستقبلها ، كما أن له فضلاً آخر ، هو حبه الذي لم تبادله إياه . . . ولقد ازداد ألمها عندما علمت من الأستاذ أحمد مختار ـ رئيس التحرير ـ أن اقتراح المكافأة وقيمتها جاءا من فريد أصلاً ، وأنه بالرغم من تأثره وغضبه منها ، دافع عن عملها دفاعاً منطقياً جعل الجميع ، في مجلس التحرير ، يوافقون على الاقتراح ويتحمسون له !

في تلك الأيام بلغت معاناة سامية درجة هائلة ، ليس من موقف فريد فقط ، ولكن لأنها أدركت أنه إذا كان أقرب الزملاء والأصدقاء إليها وأحبهم إلى نفسها قد تصرف هذا التصرف الغاضب والجارح . . . فلا بد من أن الآخرين ، خاصة أعضاء حزب النميمة ، يخوضون في سيرتها وتصرفاتها خوضاً لا تحبه لنفسها . . . وهي ، عندما فاتحت عادل مكي في أول لقاء بينهما ـ وكان هذا بعد بضعة أسابيع ـ بما حدث وجرى ، قال لها إن هذا أمر طبيعي ، وإنه ضريبة لا بد من أن تدفعها للوطن ، حتى ولو كان الثمن لغطاً يدور حول تصرفاتها . . . قال إنه لا يستطيع ، كما أنها لا تستطيع ، حيال هذا شيئاً . . . وأن عليها أن تصبر وتحتمل حتى يأتي الوقت الذي لا بد سيعرف فيه الجميع الحقيقة . . .

وقتها ، سيعرفون ، كم عانت ، وكم تعذبت ، وكم كانوا ظالمين لها ! . . .

فسألته :

« **لكن الأستاذ أحمد مختار لازم يكون عنده فكرة!!** » .

ضحك عادل وهو يقول إن « أحمد » لا يعرف إلا أنها طلبت لقاءه . . . لكنه بالقطع وبالطبع ، لا يعرف شيئاً عن الموضوع . . . لكن هذا لا يمنع من أن يكون قد خمن أن ثمة شيئاً في الأمر ، وليس أمامه سوى الصمت والانتظار هو الآخر !

بعد يومين من ذلك الحادث، وقعت السيدة إقبال حسين مريضة جرّاء نوبة من نوبات الانفلونزا الحادة التي كانت تجتاح مصر في تلك الأيام ، والتي أطلقوا عليها اسم « الانفلونزا الآسيوية » . . . ولأن السيدة إقبال لزمت الفراش ، فلقد اضطرت سامية إلى أن تلتزم البيت حتى تبقى إلى جوار أمها أطول وقت ممكن . . .

وهكذا مضت بضعة أسابيع وسامية ممزقة فيما بين أمها وعملها الذي كان لا بد من أن تقوم به ، فكانت تصحو من النوم كي تظل في عملٍ متصل حتى تأوى إلى فراشها عادة بعد منتصف الليل . . . ولقد زاد الأمر سوءاً ، إصرار السيدة إقبال على عدم استدعاء طبيب يعودها . . . كان الأمر ـ كما ظنت وظن الجميع ـ مجرد نوبة انفلونزا قد تطول لأيام ، ثم تشفى بعدها كي تعود إلى عملها من جديد !

ولقد كان عادل مكي يرقب سامية بعيون مفتوحة ، كان يشفق عليها مما هي فيه إشفاقاً جعله في بعض الأحيان يكاد يطلب منها أن تكف . . . كانت مأساته ـ هذا تعبيره تماماً ـ أن سامية راحت مع الوقت تقترب من الحقيقة . . . كانت تكتشف كلما مر بها الوقت أن نبيل لا بد ضالع في تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الوطن في الخارج ، ورغم اقترابها ذاك من الحقيقة ، فإنها ظلت ترفض في عناد ، وربما في خوف ، مواجهتها ، متشبثة ـ ربما ـ بأن عادل مكي لم يخبرها صراحة بأن نبيل سالم خائن لوطنه . . . كانت هذه هي مأساة عادل

مكي وسامية فهمي معاً ، فلقد أراد لها أن تكتشف الحقيقة على مهل ، كان دائماً ما يترك لها الباب مفتوحاً للشك والظن ثم اليقين ، لكنه ـ أبداً ـ لم يسمح لنفسه بأن يكون أول من ينعي لها خيانة حبيبها !!

... ...

... ...

انقضت أربعة أسابيع منذ أن أرسلت خطابيها إلى إيطاليا ، حاولت خلالها ، رغم مرض أمها ، أن تستعيد نفسها ومرحها ونشاطها وحماسها . . . عادت ، في تلك الساعات القلائل التي كانت تغادر فيها البيت ، تنتظم في اجتماعات المجلة متجاهلة تلك النظرات التي كانت ترمقها دائماً ، وتلك التعليقات التي كان البعض يلقيها بين الحين والحين ، متحملة تجاهل فريد الشاعر لها . . . ولأنه لم يكن لديها ما تقوله لعادل مكي ، فلم تعد تتصل به ، كما أن عادل لم يعد يتصل بها هو الآخر . . . فاكتملت وحدتها حتى تحولت إلى صقيع عاشته صابرة . . . حتى كان يوم !! .

كان الوقت صباحاً وقد احتدم الحوار بينها وبين أمها حول استدعاء طبيب ، فلقد طالت مدة المرض إلى ما يقارب أسبوعين دون أن تبدو بادرة تحسن عليها . . . في ذلك الصباح ، وأثناء احتدام الحوار ، دق جرس الباب ، وعندما فتحته طالعها وجه البواب وكان يحمل لها خطاباً وصل من « بلاد بره » ! .

دق قلبها بعنف وهي تتسلم الخطاب ، كانت نظرة سريعة تكفي لأن تعرف أنه من نبيل ، تسارعت دقات قلبها وهي تهم بفتحة لكنها تراجعت ، فماذا عساها أن تجد بداخله . . . سألتها أمها عن الطارق فأنبأتها أن خطاباً وصل من نبيل ، أشاحت الأم بوجهها الشاحب ولم تُعَلّق . . . أرادت سامية مواصلة الحوار حول أمر استدعاء الطبيب لكن ذهنها كان مشغولاً بما كان يجب عليها أن تفعله . . . في ذلك اليوم لم تكن تنوي مغادرة البيت ، لكنها عندما سألت أمها :

« مش عاوزة حاجة يا ماما؟! » .

أدركت السيدة إقبال أن ابنتها تريد مغادرة البيت فأجابت :

« لا يا حبيبتي . . . روحي إنتي لشغلك!! » .

هكذا كانت السيدة إقبال حسين ، هذه هي حضرة الناظرة التي تقرأ دائماً ما يجول في رؤوس تلميذاتها ، فلقد كان تفكير سامية ، منصباً في تلك اللحظات ، على ضرورة إبلاغ عادل مكي بوصول الخطاب ، ولا بد أنه مشوق لكي يعرف فحواه ، ولا بد أنه سوف يطلب منها أن تزوره . . . وهكذا ، ما أن قالت السيدة إقبال ما قالت ، حتى اتجهت سامية إلى التليفون :

« صباح الخير يا عادل بيه! » .

« أهلاً سامية ، إزيك؟! » .

« مش عاوز تشوفني! » .

« أنا تحت أمرك! » .

« إمتى؟!! » .

« دلوقت إذا حبيتي!! » .

« طيب أنا. . . . . » .

قاطعها قبل أن تكمل :

« لو إنك نزلتي من بيتكم الساعة إتناشر ، وأخذت تاكسي ، حاتكوني عندي الساعة إتناشر ونص ، وأكون أنا خلصت الشغل اللي في إيدي! » .

كانت جملته تعني أنها يجب ألا تغادر البيت قبل الساعة الثانية عشرة ، وأنها في تلك الساعة سوف تجد السيارة الأجرة في انتظارها ، ربما هي هي نفس السيارة ونفس السائق ، وربما كانت سيارة أخرى وسائقاً آخر ولكن الرقم سوف يظل هو هو نفس الرقم « ٢٥٣٤ » ، هكذا اتفقا معاً ، ولسوف تجد السيارة في انتظارها ، ولسوف يكون عليها أن تدلف إليها طالبة من السائق بصوت طبيعي أن يتجه بها إلى حي الحسين ، ومهما سارت بها السيارة في مسارات قد تبدو لها غريبة ، فإن عليها أن تلتزم الصمت ، لأنها في النهاية ، سوف تحملها إلى هذا الطريق الخلفي للجهاز عبر الحقول المترامية . . . عندما

أعادت السماعة راحت تفكر في ضيق استولى عليها فجأة عن معنى كل تلك الألغاز التي تتعامل بها ، بل وتتحدث بها في التليفون ؟! . . . عن معنى تلك الحياة التي فُرضت عليها فرضاً من حيث لا تدري . . . وكان السؤال الذي حقاً هو : إذا كان الأمر على هذا القدر من الحذر والسرية ، فهل لعملاء إسرائيل القدرة على مراقبة خطوط التليفونات في مصر ؟!

« **طبعاً لا !** » .

هكذا قال عادل مكي باسماً وهو يرقبها بعين واحدة مجيباً عن سؤالها .

« **أمال إيه الحكاية؟!** » .

« **الأمان يا سامية ، الأمان حتى بيننا وبين بعض . . . وشوية شوية حاتتعودي على الحاجات الصغيرة دي وانتي هنا في مصر . . . وبالتأكيد ده حايخلي تصرفاتك طبيعية لو مارستيها معاهم بره!!** » .

صرخت في هلع :

« **بره؟!** » .

انكشف المستور واتضح الغامض ، وأدركت سامية فهمي أن هذا الشاب لا يصنع شيئاً بلا هدف وبلا سبب . . . استولى عليها الفزع وهي تحملق فيه لكنه غير مجرى الحديث متسائلاً :

« **قريتي الجواب؟!** » .

كانت قد أخبرته فور وصولها بوصول الخطاب فأخرجته من حقيبة يدها وقدمته إليه قائلة :

« **أنا ما فتحتوش!** » .

« **ليه؟!** » .

قالها وهو يفتح الخطاب ويفضه بإمعان وكأنه ينتظر أن يخرج منه مارد ، أخرج المكتوب وقدمه إليها :

« **خدي إقري الجواب!** » .

وقرأت سامية الخطاب .

كان خطاباً مفعماً بالحب تناثرت فيه كلمات الغرام واللوعة والشوق ، أبدى نبيل سعادته البالغة لكل ما جاء في خطابها ، قال إنه لم ينتظر أن تكتب له بسرعة فهو يعرف شغفها البالغ بالعمل ، وهو موقن ، أشد ما يكون اليقين ، من أنها سوف تحقق نجاحات عالمية كما حققت في مصر نجاحات محلية . . . حتى إذا ما انثنى إلى الحديث عن السيارة قال : « أما بالنسبة للعربية ، فأنا تحت أمرك زي ما انتي عارفة ، وإذا كانت الفلوس جاهزة زي ما بتقولي ، أفضل إنك تيجي روما على أعياد رأس السنة أولاً لأن روما بتبقى متزوقة علشان العيد ودي فرصة مش لازم تفوتك ، وثانياً : لأن العربيات اليومين دول سوقها نايم حبتين نتيجة لانشغال الناس بالعيد ، ولأن محدش بيقدم في رأس السنة هدية عربية نص عمر . . . وكل اللي باطلبه منك ، إنك تبعتي لي تلغراف قبل وصولك علشان أستناكي في المطار !! » .

فيما بعد ، قالت لي سامية فهمي ، إنها عندما قرأت ذلك الخطاب وعادل مكي يجلس إلى جوارها ، انتبهت لأول مرة في حياتها ، إلى أن حديثاً عادياً ، أو خطاباً قد يبدو عادياً تماماً ، من الممكن أن يحوي أشياء على جانب كبير من الأهمية والخطورة أيضاً . . . فلقد كان هذا الخطاب الذي كتبه لها نبيل سالم يبثها فيه حبه ، يطلب إليها في وضوح ، أن تطير إلى روما قبل أعياد رأس السنة التي كانت تقترب ، وكان الحديث كله ، رغم اللوعة والحب والأشواق ، عن العمل . . . وهكذا ، راحت تشحب سطراً بعد سطر ، حتى إذا ما انتهت من الخطاب ، قدمته إلى عادل وهي تقول في حزن جلل ملامحها الشاحبة :

« **دول عاوزيني أسافر روما!** » .

وربما قالتها بوعي . . . فالأمر هنا لم يكن ليختلف كثيراً ، فلقد أدركت بيقين ، لأول مرة ، أن نبيل سالم لا بد ضالع تماماً في كل ما حدث . . . تناول عادل منها الخطاب قائلاً :

« **مالك؟!** » .

لم ترد إعلان الهزيمة فغمغمت :

« لا أبداً . . . أصل ماما تعبانة شوية! » .

« عندها إيه؟! » .

« انفلونزا من اللي ماشية في البلد اليومين دول ، بس يظهر إن الدور جامد عليها حبتين! » .

ألقى عادل بنظره إلى الخطاب وراح يقرؤه حتى إذا ما انتهى منه سألته :

« إيه رأي سيادتك! » .

بيتهيأ لي بلاش سفر اليومين دول! » .

« أمال أعمل إيه؟! » .

« إبعتي قولي. . . . . » .

قاطعته :

« أبعت لمين؟! » .

« لنبيل طبعاً! » .

« على روما والا نابولي ؟! » .

صمت عادل دون رد ، وانزلقت دموعها تغرق وجنتيها ، أخرج منديله وقدمه لها ، فراحت تمسح الدمع السخين وهي تردد دون أن تجرؤ على النظر إليه :

« أنا كنت عارفة . . . أنا كنت حاسة! » .

لم يرد عادل مكي أن يزيد من عذاباتها فقال :

« على العموم هو الأفضل انك تبعتي الجواب على نابولي ما دام نبيل هو اللي كتب! » .

كان يقترب حثيثاً من الحقيقة رغم سطوعها ، لكن الأمل عاد يراودها من جديد فسألته :

« اكتب أقول له إيه؟! » .

« قولي له إن ماما عيانة وفي المستشفى وإنك ما تقدريش تسافري في الوقت الحاضر! » .

« بس ماما . . . . » .
« بالمناسبة . . . انتي جبتي لها دكتور؟! » .
في تذمر من عانت من الأمر طويلاً هتفت :
« مش راضية ، بتقول إن دي انفلونزا عادية ! » .
« بس واضح إنك قلقانة عليها شوية! » .

« بصراحة جداً . . . أصل إحنا دلوقت بقينا زي الأغراب يا سيد عادل . . . ماما ، ماما أصلها عارفاني وفاهماني كويس قوي ، ومش حاتستريح إلَّا لما تعرف إيه اللي شاغلني مهما تظاهرت قدامها بأن حياتي طبيعية ! » .

« إنتي سمعتِ عن الدكتور زكي صدقي؟! » .
« ومين ما يعرفوش في مصر؟! » .

« الدكتور زكي صاحبي ، وأنا حاخليه يزور ماما النهاردة علشان تطمني عليها! » .

أدركت سامية ـ بشكل غامض ـ أنه لا مفر من الموافقة ، بل انها استشعرت راحة عميقة لعرضه هذا ، فلقد كان قلقها على أمها يتزايد يوماً بعد يوم ، وقد أدركت أيضاً ، أن تطيع ، بل أرادت أن تطيع وأن تسلم قيادها لعادل مكي دون مناقشته . . . لقد فقدت نبيل ، لقد خان حبيبها ، لا حبهما فقط ، بل خان الأهل والوطن جميعاً . . . سألت عادل :
« مش حانكتب الرد؟! » .
« المفروض إنه ينكتب دلوقت وينبعت مستعجل كمان! » .
« مستعجل؟! » .
هكذا تساءلت في دهشة فأجاب :
« لأنك لازم تباني قدامهم ملهوفة وعاوزة تبعتي المعلومات اللي عندك قبل ما تحرقها الجرايد أو وكالات الأنباء التانية! » .
« وحاقول إيه؟! » .

« إشربي قهوتك الأول ، وبعدين نتكلم! » .

* * * *

بعد ساعة لا تزيد ، كانت سامية تغادر الجهاز في نفس التاكسي الذي اخترق بها ذلك الطريق الخلفي . . . كانت حزينة حزناً بالغاً ، ليس فقط لأنها اكتشفت أن حبيبها لا شك خائن ، وأنه فعل بها وبالوطن كله ما فعل ، بل أيضاً لأنها كانت تعلم أن أمها سوف تنقل إلى أحد المستشفيات في صبيحة اليوم التالي ، لإجراء بعض التحليلات !

* * * *

ما أن قرأ أبو سليم الخطاب الذي أرسلته سامية إلى نبيل ، والذي كانت تعتذر فيه عن السفر إلى روما لمرض أمها ، حتى دس الخطاب في جيبه دون كلمة . . . ولقد انتظر منه نبيل أن يقول شيئاً لكن الرجل أخذ يتحدث معه في أمور أخرى . . . كانت حياته ـ هكذا قال نبيل بالحرف الواحد فيما بعد ـ قد استقرت ورتبت بحيث أصبح ـ إلى جانب عمله في جراج سنيور أسكالكو ـ خبيراً في التقاط واصطياد هؤلاء الذين يستطيع تقديمهم إلى أبي سليم ، لا من المصريين فقط ، وإنما من شباب العرب أيضاً . . . وكان مركزه في نابولي قد تدعم الآن تماماً بعد أن أصبح معروفاً للجميع ، بل أصبح يتصرف وكأنه مواطن إيطالي ، أسبغت عليه علاقاته بأبي سليم حماية خفية جعلته يتحرك في المجتمع الإيطالي في نابولي بحرية وثقة بلغتا حداً كان يبهر هؤلاء الذين كانوا يفدون إلى المدينة بحثاً عن سيارة ، أو متعة ، أو حتى سياحة عابرة . . . لم يعد في حاجة إلى أن يبحث عنهم ، اختار لنفسه ـ بتوجيه من أبي سليم ـ مقهى راقياً من تلك المقاهي الإيطالية الشهيرة ، وجعل منه مستقراً له يلتقي فيه بأصدقائه وصديقاته شأنه شأن أي إنسان يحيا حياة طبيعية وعادية ويكسب من المال ما يمكنه من أن يعيش في بحبوحة من العيش !

عندما حان وقت انصراف أبي سليم ، سأله نبيل :

« ما قلتليش حانعمل إيه مع سامية؟! » .

« هي مش بتقول إن والدتها عيانة وفي المستشفى؟! » .
« ما انت قريت الجواب وعارف اللي فيه! » .
« ده صحيح ، بس لاحظ إنها ما قالتش هي في أي مستشفى بالضبط! » .
لعب الفار في عب نبيل فلقد كانت لهجة الرجل تنذر بسوء ، هتف :
« يعني إيه يابو سليم؟! » .
« ولا حاجة . . . إنسى الموضوع ده شوية! ! » .
« طب مش المفروض - على الأقل - إني أبعت أسألها عن صحة والدتها؟! » .
« واجب طبعاً! » .
قال الرجل هذا ثم صمت لثوان بدا فيها مستغرقاً في التفكير ، لكنه ما لبث أن قال :
« بس مش قبل ما نتأكد إن كانت والدتها عيانة بصحيح والا لأ! » .

وانصرف أبو سليم تاركاً نبيل في حالة من القلق والتمزق استبدت به استبداداً . . . لم تعد الأمور بالنسبة إليه غامضة مثلما كانت في الماضي ، استمد من الشهور التي انصرمت والأحداث التي عاشها خبرة جعلته يشم رائحة الخطر ويفهم معنى كلمات أبي سليم ويفسرها - مهما بدت له غامضة - تفسيراً صحيحاً . . . كان معنى ما قاله أبو سليم أن هناك شك في صدق ما روته سامية في خطابها حول مرض أمها بالذات برغم كل ما كان فيه من حب وعواطف متأججة . . . كان معناه أن هناك شكاً في أن السيدة إقبال حسين قد دخلت المستشفى بالفعل . . . فلماذا تكذب سامية ؟!.

طرح السؤال على نفسه بوضوح ودون لف أو دوران ، وكان لا بد أن يفعل ذلك . . . فهل أبلغت سامية السلطات المصرية عما حدث لها في روما فبحثت وتقصت ووصلت إلى الحقيقة ؟! . . . هل علمت المخابرات المصرية بأمره ، فراحت تنصب له شباكها عن طريق حبيبته . . .

ظلت الأفكار تطارده في غدوه ورواحه ، انقطع عنه أبو سليم لأيام وتركه

نهباً لقلقٍ كان يأكله أكلاً . . . وهو ، لم يكن يستطيع سوى الانتظار ، كان عليه فقط أن ينتظر ما يخبئه له المستقبل . . . ولكن ، وسط كل هـذا الظلام الـذي أحاطه من كل جانب ، كان ثمة بصيص من أمل بدا له شاحباً . . . فلقد كـان معنى قول أبي سليم أنهم قادرون على معرفة الحقيقـة ، أنهم بالفعـل قادرون على معرفتها ، فلقد علمته التجربة ذلك !!

بعـد عشرة أيـام مضاهـا نبيل في محـرقـة قلقـل مـدمـر ، جـاء أبـو سليم مستبشراً .

« خير يابو سليم؟! » .

« مبروك يا نبيل! » .

« على إيه؟! » .

« انت مش ناوي تخطب سامية؟! » .

قفز من مكانه كمن لدغته عقرب .

« انت بتقول إيه؟! » .

« انت مش وعدتها وهي هنا إن الخطوبة لازم تتم في مصر! » .

« ده اللي انت طلبت مني إني أقوله! » .

« وماله ، بس وعد الحر دين عليه! » .

عاد نبيل إلى مكانه وراح يحملق في الرجل الجالس أمامه وقد استشعر حزناً غامضاً .

« أبو سليم . . . قول لي إيه الحكاية بالضبط؟! » .

« والدة سامية عيانة فعلا! » .

« يعني دخلت المستشفى زي سامية ما قالت؟! » .

« ويبدو إن عندها مرض خطير كمان!! » .

« إيه اللي بتقوله ده؟! » .

« دي في مستشفى الدكتور رفعت شبانة ، وسامية تقريباً مقيمة معاها! » .

« يعني الحكاية جد؟! » .

« مش ده المهم على كل حال! » .

« أمال إيه المهم يابو سليم » .

« المهم ان سامية جمعت شوية أخبار كويسة وأدريان مستعجل عليها جداً! » .

عاد نبيل يقفز من مكانه قلقاً وقد أدرك الطريق الذي يقوده إليه ذلك الثعلب :

« خش في الموضوع يابو سليم ، حاكم أنا عارفك وعارف أساليبك! » .

رماه أبو سليم بتلك النظرة الصارمة التي كانت تلقي الرعب إلى نفسه فصاح :

« ما تبصليش بالشكل ده! » .

ابتسم أبو سليم بابتسامته تلك العذبة فكأن وجهه آلة تخضع لأزرار تحوله من النقيض إلى النقيض :

« وما تبتسمليش بالشكل ده كمان! » .

ضحك أبو سليم ضحكة جلجل صداها في الغرفة ، ضحكة ذكّرت نبيل بتلك الأيام الأولى التي التقى فيها نبيل بأبي سليم كمواطن سوري كريم مرح محب للحياة والناس والعروبة . . . فراح يدور في المكان كالحبيس :

« معنى كلامك ده إنك عاوزني أروح مصر علشان أجيب المعلومات دي! » .

« لأ . . . علشان تخطب سامية أولاً! » .

« وأفرض إن والدتها ما وافقتش؟! » .

« تبقى عملت اللي عليك! » .

اندفع نحوه متوسلاً :

« أبو سليم ، أرجوك تعفيني من المأمورية دي! » .

« لاحظ ان سامية دلوقت ، وفي الظروف الصعبة اللي هي فيها ، حاتبقى محتاجة لك انت بالذات أكثر من أي حد في الدنيا! » .

« أنا مش مطمن للحكاية دي! » .
« والأخبار اللي عاوزها أدريان؟! » .
« ما تقوليش أخبار وصحافة . . . انت فاكرني عبيط؟! » .
في صرامة من ينهي الأمر تماماً ، قال أبو سليم :
« حضر نفسك للسفر بعد يومين! » .
هم نبيل بالحديث فأردف الرجل :
« ولازم تشتري الدبلتين ومعاهم شبكة محترمة علشان أم سامية تقتنع بأنك تصلح لبنتها! » .
« دبلتين إيه وشبكة إيه اللي انت بتتكلم عنهم دول؟! » .
« ولا تطلبش من سامية الأخبار اللي هي جمعتها إلا بعد الخطوبة! » .
« يعني إيه الكلام ده » .

« أنا كلامي واضح ، ولولا أنك متعجل وعصبي كنت فهمت من الأول إني مش ممكن أبعتك مصر إلا وأنا واثق ومطمن مية في المية إنك في أمان! » .
« أمان إزاي وأنا حاشيل بلوة مسيحة وأنا راجع؟! » .
« مين قال لك إنها بلوة مسيحة ، دي شوية أخبار صحفية أكيد حاتتحط في ظرف مقفول! » .
« وافرض إني اتمسكت بيها في المطار؟! » .
« وانت مالك . . . دي خطيبتك اديتك الأخبار علشان توصلها لأدريان تومسون! » .
« وهمه حايصدقوني؟! » .
« أكيد! » .
« منين جبت التأكيد ده يابو سليم؟! » .
« لأن الأخبار حاتكون بخط سامية ، ولأن الظرف حايكون مكتوب عليه اسم أدريان تومسون! » .
صمت نبيل وهو يقلب الأمر في رأسه على كل وجوهه . . . كانت الخطة

تبدو محكمة ومقنعة ولا ثغرة فيها ، ولو أنهم في مصر قد قبضوا عليه وهو يحمل ذلك الظرف فلن يكلفه الأمر سوى القول بأنه لا يعرف محتواه ، وأن سامية فهمي ، خطيبته المليئة بالوطنية ، والعضو في التنظيم الطليعي كما أخبرته ، والتي لا يمكن أن يتطرق الشك إلى وطنيتها ، هي التي أعطته الخطاب الذي لا بد ـ بالفعل ـ أن يكون مكتوباً بخط يدها ، طالبة منه تسليمه إلى أدريان تومسون الصحفي البريطاني الذي يعمل في روما منذ فترة ، والذي التقت به سامية ذات مرة وكان معها ، لكنه اضطر ، عندما علم أن بينهما عملاً ما ، إلى أن يتركهما بعد ثوان وأن ينصرف لأنه كان مرتبطاً أيضاً بأعمال خاصة بالشركة التي يعمل لحسابها . . . وهو لا يدري شيئاً عما دار بينهما بطبيعة الحال ، لأن سامية لم تخبره .

ولقد أحس نبيل بقليل من الراحة عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير ، وإذا أبو سليم ، وكأنه يقرأ أفكاره ، يقول مستطرداً :

« وإذا ما كانتش سامية كاتبة اسم أدريان على الظرف ، خليها تكتبه قدام عينيك علشان تطمئن أكتر ! » .

أطلت من عيني نبيل نظرة امتنان وارتياح وإعجاب في نفس الوقت . . . زفر زفرة من أزيح من فوق كاهله عبء ثقيل وهو يقول باسماً :

« والجواب ده حاشيله إزاي؟ ! » .

« عادي جداً ، في جيب الجاكتة كأي جواب عادي ! » .

بلغ إعجاب نبيل بأبي سليم في تلك اللحظة ذروته ، فهتفت ممازحا :

« أنا كنت دايماً أقرأ عن الرجل الثعلب في القصص والروايات ، لكن عمري ما فكرت ، ولا تصورت ، اني حاقابل الراجل ده وجهاً لوجه! » .

وانفجر الاثنان ضاحكين ، وأخرج أبو سليم من جيبه مجموعة من الأوراق المالية مد بها يده إلى نبيل وهو يقول :

« كل اللي عليك إنك تقوله لسامية ، إنك قابلت أدريان صدفة في روما ،

وأنه لما عرف إنك مسافر علشان تخطبها ، إداك الخمسميت دولار دول علشان توصلهم لها ، وتطلب منها الشغل ! » .

تناول نبيل النقود مغمغماً :

« وفين فلوس الدبلتين والشبكة؟! » .

« روح المحل اللي اشتريت منه الخاتم ونقي الدبلتين اللي يعجبوك! » .

« دول لازم يكونوا تلاتة ، اتنين دهب وواحدة ألماظ! » .

« خليهم تلاتة . . . والشبكة حاتلقاها جاهزة! » .

وهكـذا ، أخذ نبيـل ، خلال الثمـاني والأربعين ساعـة التاليـة ، يستعـد للطيران إلى القاهرة للمرة الثانية !

* * * *

قال لي عادل مكي إن القدر أبى إلا أن يزيد من عذابات سامية فهمي رغم المحنة الطاحنة التي كانت تمر بها في تلك الأيام . . . وهو ، عندما طرح عليها فكرة أن يعود الدكتور زكي صدقي والدتها السيدة إقبال حسين ، كان يبغي أن تنتقل السيدة إقبال إلى أحد المستشفيات الخاصة يومين أو ثلاثة لإجراء بعض التحليلات التي لا ضرر منها ، بل التي لا بد أن تجرى لسيدة في مثل سن السيدة إقبال . . . ذلك إنه أراد أولاً ، أن يطمئن سامية على والدتها كي تتفرغ تماماً لما كانت مقدمة عليه من أحداث جسام . . . لأنه ـ ثانياً ـ أراد أن يصنع لها غطاء صادقاً لما أرسلته في خطابها إلى نبيل سالم فيما يختص بتعذر سفرها إلى روما . . . ذلك أن خبر انتقال السيدة إقبال إلى المستشفى ، كان لا بد من أن ينتشر بين أفراد أسرة مجلة « الفجر » على الأقل ، وكان هـذا هو المطلوب فقط . . . ثم لقد كان الدكتور زكي صدقي بالذات واحداً من العباقرة المصريين الذين منّ الله عليهم بعلم غزير جعل اسمه يتردد بين الناس كصانع للمعجزات ، وكان ـ في الوقت نفسه ـ واحداً من الأطباء الذين يعودون ضباط المخابرات مرة في كل أسبوع . . . وبطبيعة الحال ، لم يكن عادل مكي في حاجة إلى مصارحة هذا الطبيب العبقري بنيته ، كان يكفي أن يلمح له بأن

السيدة إقبال إحدى قريباته ، وأن صحتها في الأونة الأخيرة لم تكن على ما يرام ، وأنه يرجو ـ فقط ـ أن يكشف عليها الدكتور زكي ، حتى إذا ما كانت في حاجة إلى بعض التحليلات التي تحتاج إليها النساء في مثل عمرها ، نقلت إلى المستشفى ليومين أو ثلاثة أيام حتى يطمئن على صحتها !

وفي حقيقة الأمر ، كان الدكتور زكي صدقي قد تعود مثل هذه الأمور ، التي أدرك بفطرته وذكائه ، أنها أمور تخص ـ في الغالب الأعم ـ أمن الوطن وهو ، عندما استجاب لرجاء عادل مكي ، قال له هذا :

« انت تعرف الست دي تبقى مين يا دكتور؟! » .

« إنت بتقول إنها قريبتك!! » .

« دي أم سامية فهمي الصحفية بتاعة مجلة الفجر! » .

صاح زكي صدقي متهللاً :

« دي صحفية كويسة جداً ، وأنا باقرأ لها! » .

« لأ . . . المفروض إنك واحد من أصدقائي كمان! » .

وصلت الرسالة مباشرة إلى الطبيب النابغة فلم يجب ، لكن عادل أضاف موضحاً :

« أصل والدتها رافضة حكاية الدكاترة دي وبتقول إن كل اللي عندها دور انفلونزا . . . لكن سامية في الحقيقة قلقانة عليها جداً ، واضطرت تقول لها إنك صاحبها ، وإنك لما سمعت بمرضها ، صممت انك تشوفها! » .

ضحك زكي صدقي قائلاً :

« وهو أنا أطول ، دي بنت ممتازة . . . انت بتقرأ لها يا عادل؟! » .

ابتسم عادل وهو ينهض زافراً :

« أحياناً يا دكتور . . . أحياناً! » .

دهشت السيدة إقبال حسين دهشة بالغة لتصميم ابنتها على استشارة طبيب . . . وهي عندما قاومت الفكرة ، كانت مقتنعة بأن وعكتها الصحية لا تزيد علي تلك النوبة من الانفلونزا التي أصابت الملايين في مصر في ذلك

العام . . . ولكن ، بالرغم من دهشتها فقد غمرتها السعادة حقاً لاهتمام ابنتها بها ، خاصة أن سامية أخبرتها أنها تعرفت على الدكتور زكي أثناء قيامها بتحقيق صحفي ، وأن علاقتهما منذ ذلك اليوم توطدت ، وأنها تعتبره صديقاً . . . وعلى ذلك ، فلن يكلفها الأمر شيئاً ، بل ، سيزيد اطمئنانها عليها لا أكثر ولا أقل !

غير أن المفاجأة التي أصابت عادل مكي ، أن الدكتور زكي اكتشف أن السيدة إقبال مريضة بالفعل ، وأن مرضها قد يكون خطيراً ، وأن الأمر يحتاج إلى جراحة عاجلة . . . ولقد قال لعادل مكي في ذلك المساء وهو يتحدث إليه بالتليفون :

« الست دي تعبانة فعلاً يا عادل ولازم تدخل المستشفى بكرة الصبح ! » .

في لهفة سأله عادل :

« وانت قلت إيه لسامية؟! » .

« ما قلتش حاجة أكثر من إنها محتاجة لشوية تحاليل! » .

« وإيه كان رد فعلها؟! » .

« عادي ، لأني بصراحة مارضيتش أخضها!! » .

« عملت ترتيبات المستشفى يا دكتور؟! » .

« طبعاً ، أنا اتكلمت مع الدكتور رفعت شبانة شخصياً علشان أوضتها تبقى جاهزة بكرة الصبح ! » .

ورغم هذا ، فإن عادل مكي لم ينم في تلك الليلة ، إلا بعد أن اطمأن تماماً إلى حجز الغرفة !!

ولقد قالت لي سامية فهمي ـ وكانت تبتسم ـ إنها فهمت منذ البداية أن الأمر كله كان مدبراً ، ولذلك ، لم يعترها أي نوع من أنواع القلق ، لكنها ، وبعد أن نقلت أمها إلى المستشفى ، بدأت تدرك ، مع إجراء التحليلات واهتمام الأطباء ، والأحاديث التي كانت تدور بينهم ، أن الأمر جد لا تظاهر فيه ولا تدبير . . . حتى إذا ما أعلن الدكتور صدقي أن أمها في حاجة إلى إجراء جراحة

عاجلة ، انتابها الفزع ، وطلبت عادل مكي في التليفون :

« إيه الحكاية فهمني؟! » .

« مش تحمدي ربنا يا سامية؟! » .

« الحمد لله على كل حاجة بس إيه الحكاية . . . الدكتور مش عاوز يتكلم معايا؟! » .

« ولا حاجة . . . ما تقلقيش ، الدكتور زكي قال لي إن العملية بسيطة ، وماما ممكن تخرج من المستشفى بعد أسبوع أو اتنين بالكثير! » .

صاحت في هلع :

« هي الحكاية جد؟! » .

كانت هذه لحظة من لحظات الفزع القاتل الذي كان ينتاب سامية في تلك الأيام مع كل خبر جديد وكل اكتشاف تضع يدها عليه أو تعرفه وطوال الأسبوعين اللذين لزمت فيهما السيدة إقبال حسين الفراش في المستشفى ، كانت تتسلط على سامية فكرة أن والدتها قد تموت وتتركها في هذه الدنيا وحدها . . . كان إحساساً رهيباً ومدمراً ، لكنها كانت دائماً ما تتخلص من تلك الأحاسيس والأفكار ، بانغماسها في رعاية أمها . . . ولقد ساد الصمت طويلاً فيما بينها وبين عادل الذي أدرك على الفور ما كانت تعانيه فقال :

« الحمد لله ان الدكاترة اكتشفوا الحكاية دي في الوقت المناسب ، ربنا بيحبك يا سامية! » .

« يعني لو ما كانتش الصدفة دي كانت ماما . . . . » .

قاطعها في حسم :

« الكلام ده مش حايجيب نتيجة دلوقت! » .

لزمت سامية فهمي المستشفى مع أمها منذ اليوم الأول . . . وشاع الخبر في مجلة الفجر ، وأحس حزب النميمة بالندم عندما علم الجميع أن والدة سامية كانت تلازم الفراش قبل دخولها إلى المستشفى بفترة . . . وكان أول الساعين

إلى سامية واضعاً نفسه تحت إمرتها هو « فريد الشاعر » الذي لم يناقش معها شيئاً ، ولم يعتذر عما بدر منه . . . كل ما فعله أنه عاد ـ ببساطة ـ كي يقف إلى جوار الفتاة التي أحبها والتي كانت أقرب الأصدقاء والصديقات إلى نفسه . . . دون كلل أو ملل وقف إلى جوارها ليل نهار . . . خاصة ، أن علاقة خاصة كانت قد نشأت بينه وبين السيدة إقبال التي تتمنى ، في أعماقها ، أن يرتبط هذا الشاب بابنتها برباط الزوجية !!

وعلى كل . . . فما أن مضى يومان حتى امتلأت غرفة السيدة إقبال بباقات الورد التي أرسلها زملاء سامية وأصدقاؤها ، كما أرسل زملاء السيدة إقبال ومرؤوسوها في المدرسة باقات ملأت الغرفة وامتدت إلى الممر المقابل لها . . . وتقاطر على المستشفى مئات التلميذات اللواتي جئن كي يطمئنن على ناظرتهن ومدرستهن . . .

وأدرك العاملون في المستشفى أهمية المريضة عندما وصلت باقات ورد من عدد من وكلاء وزارة التربية والتعليم ، ثم وصلت باقة فاخرة تحمل اسم أحد الوزراء ذوي المكانة الخاصة . . . وتردد على المريضة عدد لا بأس به من الشخصيات السياسية التي كانت تربطها بسامية علاقات صداقة نمت أثناء العمل الصحفي أو السياسي . . . ولقد أجريت العملية الجراحية بعد دخول السيدة إقبال إلى المستشفى بثلاثة أيام ، وجاءت نتيجة التحليلات ـ بعد العملية ـ مرضية للغاية ، وتماثلت السيدة إقبال للشفاء ، وبدا أنها ستغادر المستشفى بعد يوم أو يومين . . . حين دق باب الغرفة ذات عصر ، وكانت سامية تجلس إلى جوار أمها وهي تتناول فنجاناً من الشاي . . . وعندما أذنت للطارق بالدخول، فتح الباب في رفق ، وأطل منه رأس نبيل سالم .

* * * *

الفَصل الثالث والثلاثون

المصيدة!

كان الوقت غريباً كل الغرابة ، مُرْبِكاً أشد ما يكون الإرباك . . . ساد الغرفة وجوم استمر بالرغم من الجميع دقيقة طالت فكأنها قرن من الزمان . . . راحت السيدة إقبال تردد البصر فيما بين الشاب الواقف بالباب على استحياء ، وبين ابنتها التي همّت واقفة في فزع حتى كاد فنجان الشاي يسقط من يدها لولا أن تداركته في آخر لحظة . . . تخلصت سامية من فنجان الشاي بإعادته إلى المائدة ، وخطا نبيل إلى الداخل وكان يحمل في يده باقة من الورد غالي الثمن . . . هتفت سامية في همس مرتجف وكأنها لا تصدق عينيها :

« **نبيل؟!** » .

لكن نبيل لم ينظر إليها ولم يرد عليها . . . كان مثل غاندي يعرف الهدف من غزوته ، توجهت عيناه وهو يخطو نحو السيدة إقبال حسين خطوات وئيدة ، وكانت هي تنظر إليه في دهشة ممزوجة بضعف مَنْ غُلِبَ على أمره ، قبل أن يصل إلى الفراش بخطوة توقف :

« **أول ما عرفت من سامية ان حضرتك تعبانة ، ما قدرتش أستنى!** » .

جاء صوت السيدة إقبال واهناً ضعيفاً :

« **متشكرة يا بني . . . الحمد لله على السلامة!** » .

وضع الورد جانباً ، ومد يده نحوها فمدت يدها كي تصافحه فإذا به ينحني على اليد مقبلاً إياها :

« **الحمد لله على سلامتك يا طنط!** » .

أصابتها القبلة في مقتل فامتدت يدها الأخرى كي تربت على رأسه في حنان لم تدر من أين ولا كيف نبع ، ارتجف صوتها وهي تسأله :

« إزيك يا نبيل؟! » .

ابتسم وعيناه تبرقان ببريق انتصار لم يعد فيه شك :

« زي ما حضرتك شايفة! » .

« انت مش حاتسلم على سامية؟! » .

الآن . . . سار نحو سامية في خطوات واثقة صافحها في حرارة المحب المشتاق يمنعه الظرف من التعبير عن حبه وشوقه . . . وكانت هي ذاهلة ، ذاهلة تماماً ترقب ما يجري أمامها غير مصدقة . . . تركت له يدها كما تركت عيناها تتعلقان به وفي صدرها صراع شياطين لا ترحم :

« إزيك يا سامية؟! » .

« جيت إمتى؟! » .

« إمبارح بالليل! » .

جاء صوت السيدة إقبال وقد أحست بالحرج الذي وقعت فيه ابنتها :

« أقعد يا نبيل ، اتفضل يا بني! » .

التفت نحوها في أدب شديد وهو يقول :

« أنا عارف يا طنط إن حضرتك مندهشة اني جيت وعارف كمان أن حضرتك يمكن مش عاوزة تشوفيني . . . لكن الحقيقة أنا جاي أولاً علشان أطمئن عليكي ، وثانياً علشان أوضح لحضرتك حاجات لازم تعرفيها مني أنا شخصياً! » .

هتفت سامية في عصبية :

« نبيل . . . وهو ده وقته؟! » .

رغم ما تَلقّاه من زَجْرٍ فلقد التفت إليها في ثقة من يعرف ماذا يفعل، وجاء صوته هادئاً تماماً :

« أنا مفيش قدامي غير ٤٨ ساعة يا سامية راح منهم اتناشر وانتي عارفة

شغلي وشفتي بنفسك . . . وزي ما قلت لك إن البرتو اجنازيو صاحبي بره الشغل بس ، إنما في الشغل ما يعرفش أبوه ! » .

كان مرض السيدة إقبال قد أمدها بكَمٍّ هائل من الضعف والخوف على ابنتها . . . وهي لم تكف طوال فترة مرضها عن التفكير فيما عسى أن يصيب سامية لو أن القضاء حم وانتهى الأجل . . . وإذا كانت سامية على مدى سنوات طالت لا تزال تريد هذا الشاب ، ومهما كان رأيها هي فيه فإن لسامية الحق في أن تختار شريك حياتها كما أن لها الحق في أن تطمئن على ابنتها . . . فلا أحد يعرف ما الذي تحمله الأيام ؟!

جاء صوتها ـ كنظراتها ـ واهناً ، قالت :

« قول يا بني . . . قول كل اللي انت عاوزه! » .

« أنا مش عاوز غير رضا حضرتك عليّ! » .

رددت البصر فيما بين ابنتها وحبيبها هذا الواقف أمامها . . . كان وسيماً ، أنيقاً ، تبدو عليه النعمة ، لا في ملبسه فقط ، وإنما في تصرفاته وكلماته وحركاته معاً . . . تذكرت حديث سامية عنه بعد عودتها من إيطاليا . . . تذكرت فرحتها بخاتمه الماسي الذي لم تخلعه من أصبعها حتى الآن ، تذكرت إحساسها بالفخر لِمَا وصل إليه حبيبها في عمله ، فسألت :

« إنتو عاوزين تتخطبوا ؟! » .

« أنا جايب معايا الدبل وشبكة على قد حالي . . . بس حضرتك توافقي! » .

ملأت الدموع مآقي تلك السيدة المريضة ، وارتجفت شفتاها وهي تقول في استسلام :

« اللي تشوفه يا بني ، ربنا يسعدكم !! » .

كان الموقف غريباً كل الغرابة ، كان يبدو وكأنه مشهد سينمائي في فيلم خيالي لا علاقة له بالواقع . . . مد نبيل يده إلى جيبه لكي يخرج صندوقين

صغيرين تشي أناقتهما بأنهما يحويان أشياء ثمينة . . . تقدم من الفراش قائلاً في صوت خافت :

« يعني حضرتك راضية؟! » .

هتفت سامية في احتجاج عصبي :

« نبيل انت حتى لسه ما قعدتش! » .

« يمكن أكون مستعجل شوية يا سامية لكن لاحظي أننا استنينا كتير قوي في انتظار اللحظة دي! » .

أحست سامية ـ بوضوح أن ثمة شيئاً يدبر في الخفاء ، شعرت وكأنها وقعت في مصيدة لا تستطيع منها فكاكاً ، تمنت ـ لدهشتها البالغة ـ لو أن عادل مكي كان موجوداً كي ينبئها بما يجب عليها أن تفعله . . . كانت تحتدم بغضب وحيرة وارتباك نَمَّتْ عنها ملامحها المتوترة فسألها نبيل مستكيناً :

« ما لك يا سامية؟! » .

« انت مش شايف ان الوقت و . . . و . . . وحتى المكان مش مناسبين؟! » .

بدا عليه الانكسار ، غمغم وكأنه طفل مذنب :

« أصل أنا مش حاقدر آخذ إجازة ثانية قريب! » .

« الدنيا ما طارتش يا نبيل! » .

همت سامية بالرد لكن صوت أمها جاء كي يضع كل الأمور في نصابها :

« مش دا اللي إنتي كنتي عاوزاه يا سامية؟! » .

« أيوه يا ماما . . . بس إنتي عيانة! » .

« يمكن ده أدعى إني أوافق ما دمتم عاوزين بعض!! » .

اخترق المعنى صدر سامية كنصل حاد فارتجفت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، ساد الصمت وكان نبيل يقف خافض الرأس يحمل الصندوقين الأنيقين بكلتا يديه وكأنه في انتظار حكم يحدد مستقبله ، حسمت السيدة إقبال الأمر بأن أردفت :

« إذا كان عليّ . . . أنا موافقة! » .

رفعت سامية عينيها نحو نبيـل ، أدركت أن الأمر خـرج من يدهـا وأنها لا تستطيع شيئاً ، كانت تعلم يقيناً لِمَ وافقت أمها ، جاشت نفسها بالحب فتعلقت عيناها بوجهها الشاحب ، فهل من الممكن أن تخذل تلك الأم التي ما خذلتها يوماً ؟! . . . التفتت نحو نبيل فوجدت نظراته متوسلة وجدته يذوب حبـاً ، فهل من الممكن أن يكون هذا الواقف أمامها خائناً . . . هل من الممكن أن يكـون جاسوساً يعمل ضد وطنه ؟! . . . تذكرت أن عادل مكي لم يجزم في أمره بشيء حتى الآن ، وسـرعان مـا تشبثت بتلك القشة فتعلقت بهـا في قـوة ، ولم يكن أمامها سوى أن تقول :

« خلاص يا ماما . . . اللي تشوفيه! » .

« على بركة الله يا بنتي! » .

هكذا قالت الأم وهكذا تقدم نبيل من الفراش باسماً ينتفض بالسعادة وهـو يفتح أحد الصندوقين فإذا به دبلتان ذهبيتان وثالثة ماسية ، كان واضحاً حتى لمن لا خبرة له أن الدبلة الماسية غالية الثمن . . . لكنه عندما فتح الصندوق الآخر ، لم تملك سـامية نفسهـا من أن تشهق إعجابـاً وهي ترى ذلـك البروش الفـاخر وماساته التي كانت تتلألأ تحت الضوء الذي يعلو فراش السيدة إقبال .

« مش كتير ده يا نبيل؟! » .

« لو كنت أقدر كنت جبت لك حاجة أحلى من ده مليون مرة! » .

« ما انت اشتريت لي الخاتم؟! » .

هكذا قالت مأخوذة ، كانت تحاول أن تستجلب السعادة استجلاباً ، كانت هذه هي اللحظة التي تمنتها طوال العمر وانتظرتها وأنفقت في سبيلها سنوات من الضياع والانتظار ، استعادت في ذاكرتها خطاب نبيـل الأخير ، كمـا استعادت خطابها ـ الذي كتبته مع عادل مكي ـ ولم يكن في الخطابين ما يشير من قريب أو من بعيد إلى الخيانة . . . ترى هـل ظلمت حبيبها في حمى الـذود عن الوطن والخوف عليه والدفاع عنه؟!

كان الدمع يملأ عيني السيدة إقبال بعد أن ملأتهما بمنظر شبكة ابنتها فهمست :

« مبروك يا سامية! » .

وانفجرت سامية في البكاء . . . بالرغم منها بكت ، أرادت أن تتماسك فلم تستطع ، كان كل شيء أمامها وحولها وحتى في داخلها يبدو عبثياً لا معنى له . . . كان هذا الواقف أمامها هو نبيل سالم حبيبها الذي طالما تمنت أن ترتدي دبلته حتى ولو كانت من صفيح بلا ثمن . . . نظرت إلى أمها وكان الدمع ينحدر فوق الوجنتين الشاحبتين في عذاب صامت . . . تقدمت منها وراحت تنظر إليها فإذا الوجه المترقرق من خلف الدمع مسكين بلا حول ولا طول ، انحنت عليها في حرص وضمت رأسها إلى صدرها في حب اهتزت له جوانحها اهتزازاً . . . رفعت السيدة إقبال يدها تمسح بها على شعر ابنتها فأخذت سامية تلك اليد وراحت تمطرها بقبلات حب وعرفان واعتذار . . . توقفت في لحظة والتقت عيناها بعيني أمها التي همست :

« ربنا يسعدك يا بنتي! » .

« أنا عاوزاكي تعرفي حاجة واحدة بس! » .

« قولي يا حبيبتي؟! » .

« مفيش في الدنيا حد عندي أغلى منك ، ولا يوصل لمكانتك! » .

« روحي سلمي على خطيبك! » .

كم تمنت في تلك اللحظة أن تخبر أمها بكل شيء، أن تضع رأسها ـ كما تعودت ـ في حجرها ، وتستشعر أصابعها الحنون تتخلل شعرها ، وأن تنطلق في الحديث فتقول كل شيء . . . ولكن . . . لكنها لم تكن تملك سوى السير في الطريق حتى نهايته . . . استقامت في وقفتها ، مسحت دموعها مبتسمة استعداداً لمواجهة نبيل عندما سمعته يقول :

« تسمحي يا طنط؟! » .

« أسمح بإيه يابني؟! » .

« **أصل بابا وماما منتظرين بره!!** » .

هتفت سامية في هلع :

« **إيه؟!** » .

« **بصراحة بابا خاف يدخل أحسن طنط ما يكونش عندها استعداد تقابله!** » .

قالت الأم في وهن :

« **خليه يتفضل يا بني ، عيب كده!** » .

في امتنان بالغ وأدب يمس شغاف القلب قال نبيل :

« **متشكر قوي يا طنط . . . متشكر جداً ، ربنا ما يحرمنيش منك!** » .

اندفع نحو الباب والسعادة تجتاحه اجتياحاً ، نادى أباه وأمه ، وسرعان ما ظهرا عند الباب !!

« **سلامتك يا إقبال هانم!** » .

هكذا قال الأب وهو يتقدم إلى الداخل بصحبة زوجته . . . و . . .

وكانت لحظات لا تُنْسَى تلك التي تقدم فيها نبيل سالم من سامية فهمي ، كي يضع الدبلة الماسية ثم يحبسها بالدبلة الذهبية في أصبعها ، ثم يقدم أصبعه لها كي تضع فيه دبلته . . . كان الدمع ينهمر من عيني السيدة إقبال كالسيل ، بينما كانت أم نبيل قد انخرطت في بكاء حار وبصوت مسموع . . . وعندما مال نبيل على جبين سامية كي يقبلها هامساً :

« **مبروك يا سامية!** » .

انفجرت هي الأخرى في البكاء ، وارتمت بين ذراعيه ، وهتف الأب وقد اجتاحه التأثر :

« **لحظة زي دي كان الواحد يتمنى انه يسمع فيها زغرودة!** » .

لكنه لم يكن يعلم وهو يقول هذا ، أن ما كان يحدث . . . هو التعبير الصادق عن حقيقة الموقف !!

* * * *

قضت سامية ليلة مسهدة لم تذق فيها طعم النوم . . . راحت تتقلب في فراشها وهي تضرب أخماساً في أسداس؛ لم تكن تعرف ما الذي ينبغي عليها أن تفعله ، ولا كيف تخبر عادل بالأمر . . . حوصرت في الدقائق التالية لما حدث ، حصاراً جعل الاتصال بعادل ـ حتى في اليوم التالي ـ يكاد يكون مستحيلاً . . . تحدث الجميع عما مضى وتحدثوا عما هو قادم من أيام . . . قال والد نبيل سالم إنه لم يطمئن على مستقبل ولده سوى في ذلك اليوم الذي قابل فيه سامية ، قال إن من المستحيل أن ينشأ حب بين فتاة مثل سامية وشاب بلا مستقبل ، حمد الله وشكر فضله لأنه لم يخيب ظنه . . . كانت الفرحة تشملهم جميعاً ، حتى أمها بدت سعيدة إلى الحد الذي طلبت فيه منها أن تخرج مع خطيبها في تلك الليلة لساعة أو ساعتين ، لكن سامية رفضت وأصرت على الرفض . . . ظل نبيل صامتاً وقد احتدم النقاش من حوله بعد أن انضم والدا نبيل إلى أمها . ساقت لهم الحجة تلو الحجة متمسكة بموقفها في استماتته ، فهي لا تستطيع مهما كان الأمر أن تترك أمها وحدها . . . قالت : إنه فوق هذا فلا بد لها أن تبدل ملابسها وأن تصفف شعرها وأن هذا يستلزم وقتاً لا تملكه . ولقد ظلت المناقشة محتدمة حتى حسم نبيل الأمر :

« **أنا شايف ان سامية معاها حق!!** » .

التفت الجميع نحوه في دهشة فأردف :

« **بصراحة أنا كمان قلبي ما يطاوعنيش إننا نسيب طنط لوحدها ، لكن فيه حل تاني !** » .

« **إيه هو؟!** » .

هكذا سأل الأب فأجاب نبيل :

« **بكرة الصبح ماما تيجي تقعد مع سامية . . . وسامية تأخذ وقتها وبعدين نتغدى سوا!** » .

همت السيدة إقبال بالاعتراض لكنه أردف :

« **أصل أنا مسافر بكرة إن شاء الله الساعة تسعة ، ومش حاقدر أقعد مع سامية إلا لحد العصر!** » .

بدا الحل مثالياً بالنسبة للجميع حتى سامية تنفست الصعداء فلسوف يكون أمامها بعض من الوقت كي تتصل بعادل مكي . . . غادر نبيل الغرفة مع والديه تاركاً سامية تتخبط داخل حلقة جهنمية من الأفكار . . . فماذا لو طلب منها نبيل خطاب أدريان والخطاب مع عادل وليس معها . . . و . . . وهل جاء خصيصاً لتسلم تلك المعلومات أم أنه ـ بالفعل ـ سارع بالحضور عندما علم بمرض أمها ؟! . . . وإذا كان قد جاء من أجل المعلومات فبأي حجة سوف يطلبها . . . وإذا ما طلبها ـ بشكل أو بآخر ـ فكيف تأتيه بالخطاب والوقت يبدو خانقاً ؟ . . . ألحت عليها الأفكار إلحاحاً أطار النوم من عينيها فراحت تتقلب في الفراش مسهدة حتى جاءها صوت أمها في الضوء الخافت الذي كانت ترسله لمبة كهربية صغيرة علقت فوق الباب :

« **ما لك يا سامية؟!** » .

انتفضت لكنها أجابت على الفور :

« **ولا حاجة يا ماما . . . إنتي إيه اللي مصحيكي لحد دلوقت؟!** » .

استدارت كل منهما في فراشها نحو الأخرى .

« **بكرة لما تتجوزي وتخلفي حاتعرفي إيه اللي مصحيني!** » .

« **إنتي لسة قلقانة عليّ؟!** » .

« **لا!!** » .

كان الرد حاسماً فلاذت بالصمت حتى عاد صوت أمها يسري في سكون الليل :

« **إنتي مش بتعملي اللي عليكي؟!** » .

كأن ماساً كهربياً قد أصابها فارتجفت هاتفة :

« **طبعاً يا ماما!** » .

« **خلاص . . . سلمي أمرك لله وهو حايعمل اللي فيه الخير!** » .

وحتى غزا النوم جفون سامية فهمي كان هناك سؤال واحد سيطر عليها وأزاح جانباً كل الأفكار التي كانت تراودها كي يحتل الفكر كله : فهل . . . هل كانت أمها تعلم شيئاً ؟!

عندما دقت الساعة الثامنة صباحاً ، كانت سامية قد ارتدت ملابسها وساعدت أمها في تناول إفطارها واحتست فنجاناً من الشاي وقد هيأت نفسها لوصول أم نبيل عندما دق جرس التليفون في الغرفة :

« ألو . . . » .

« آنسة سامية هانم فهمي؟! » .

« أيوه! » .

« هنا حسابات المستشفى . . . ممكن سيادتك تشرفينا خمس دقائق؟! » .

انتفضت بالفرحة . . . كانت هذه علامة بأن أمها قد تغادر المستشفى في ذلك اليوم ، ردت على المتحدث بأنها ستكون عنده بعد لحظات ، أعادت السماعة إلى مكانها وقد اجتاح البشر كل ملامحها ، سألتها أمها :

« مين يا سامية؟! » .

« باين عليكي حاتخرجي النهاردة يا حضرة الناظرة! » .

« هو الدكتور اللي كان بيتكلم؟! » .

« لا . . . دي الحسابات! » .

قالت هذا وهي تخطف حقيبة يدها دون أن تنتظر رداً من أمها . . . اندفعت مغادرة الغرفة . . . هبطت إلى الدور الأول حيث قسم الحسابات ، خطت إلى الغرفة وكان هناك موظف يجلس خلف مكتب في مواجهة الباب ، عن يمينه وعن يساره كان هناك مكتبان آخران لا يجلس إليهما أحد . . . بدا لها الرجل الذي كان واضحاً تماماً أنه جاوز الستين وكان لاهياً عنها بما بين يديه من أوراق . . . أدركت على الفور أنه موظف قديم أحيل إلى المعاش لكنه يعمل في المستشفى كي يكسب ما يعينه على الحياة . . . دقت الباب بأصبعها برفق :

« صباح الخير! » .

رفع إليها رأسه فطالعتها من خلف النظارة الطبية عينان مكدودتان .

« صباح النور يا بنتي! » .

« أنا سامية فهمي ، حضرتك طلبتني من شوية؟! » .

زفر الرجل مشيراً إلى مقعد أمام المكتب :

« أيوه . . اتفضلي سيادتك! » .

خطت سامية إلى الداخل وهي تتلفت حولها في الغرفة الخالية إلا منه ، حتى إذا جلست سألته :

« هو حضرتك بتشتغل هنا لوحدك؟! » .

دون أن يرفع عينيه عن الأوراق التي كان قد عاد إليها قال :

« لا . . . معايا اتنين اللي على اليمين حسين واللي على الشمال فاطمة! » .

كان منهمكاً في البحث عن أوراق بعينها ، هَمّتْ سامية بالحديث لكنه أردف :

« مخطوبين! » .

رفعت حاجبيها مستفسرة فاستطرد :

« وبيشتغلوا بعد الظهر بس! » .

هزت رأسها كمن فهمت ومالت عليه كي تسأله لِمَ أرسل في طلبها ، فإذا هو يخرج من أحد الدوسيهات ظرفاً قدمه لها في بساطة وهو يقول في صوت طبيعي تماماً :

« السيد عادل مكي ساب لك الظرف ده هنا! » .

صُعِقَتْ سامية . . . مادت بها الأرض ، وترنحت من حولها الجدران ، وسبح بها المقعد في هواء الغرفة المعلق بين أصابع الرجل . . . كان الظرف هو الظرف الذي وضعت فيه تلك الرسالة الكارثة ، لم يزد عليه سوى شريطين لاصقين تأكيداً لأن الخطاب مغلق . . . بذلت جهداً خارقاً حتى استعادت نفسها لتأخذ الظرف متسائلة :

« فيه حاجة بالنسبة للحسابات؟! » .

« يظهر يا أستاذة فيه غلطة . . . اللي أنا فاكره ان السيدة إقبال هانم دخلت

المستشفى يوم تسعة ديسمبر . . . لكن اللي مكتوب في الأورنيك ده بيقول إنكم دخلتم المستشفى يوم عشرة » .

« حضرتك معاك حق ، إحنا فعلاً دخلنا المستشفى يوم عشرة الصبح ! » .

استأذنت سامية وانصرفت إلى غرفة والدتها . . . وعندما دخلت إلى الغرفة وجدت نبيل وأمه هناك وكانت قد دست الظرف في حقيبة يدها فأدركت كم كان عادل مكي حاذقاً فيما فعل لكنها قررت ألا تغفر له وضعها في مثل هذا الموقف الذي هزها هزاً . . . لم يكن هناك ما يقال، سحبت نبيل مغادرة الغرفة وهي تتساءل ـ في نفسها ـ عَمّا عناه عادل بإرسال الظرف إليها . . . كان معناه أولاً أنه علم بوصول نبيل فلم يخبرها ، وكان معناه أيضاً أن تُسَلّم الخطاب إلى نبيل فهل تعطيه له قبل أن يطلب أم تنتظر حتى يطلب منها الخطاب . . . ما أن غادرت باب المستشفى بصحبة نبيل حتى صفعت عيناها سيارة أجرة تقف على الناحية المقابلة وفي مواجهة الباب تماماً، لم يكن غريباً بالطبع أن توجد سيارة أجرة في مثل هذا الوقت وفي مثل هذا المكان لكن الغريب أن السيارة كانت تحمل رقم « ٢٥٣٤ » وهو نفس الرقم الذي يحمله ذلك التاكسي ـ أياً كانت ماركته ـ وهو التاكسي الذي يحملها إلى الجهاز كلما ذهبت للقاء عادل مكي . . . همت بأن تتجه نحو السيارة لكنها تمالكت نفسها وتركت الأمر لنبيل الذي ما أن رأى السيارة حتى اندفع نحوها كي يفتح لها الباب الخلفي ويدلف هاتفاً :

« جاردن سيتي يا اسطى! » .

أنزل السائق بنديرة السيارة وأدار الموتور وكان يبدو غاضباً من شيء غامض فلقد راح يدمدم بكلمات غير مفهومة. . . التفت نبيل نحو سامية هامساً في رجاء:

« مش حاسمع منك كلمة حلوة بقى؟! » .

أومأت سامية باسمة نحو السائق الذي كانت دمدمته تتصاعد حتى أصبحت حديثاً علنياً مع نفسه .

« ما لك يا اسطى؟! » .

هكذا سأله نبيل فكان الرجل في انتظار السؤال فلقد انفجر يحكي عن أصحاب السيارات الملاكي الذين يشعرون وكأنهم - إذا ما امتلك الواحد منهم سيارة - امتلكوا بها الطرقات والناس . . . حكى أنه قبل دقائق كاد يصطدم بسيارة كسرت إشارة المرور ولولا ستر الله لوقعت كارثة ! .

تبادلت سامية النظرات مع نبيل باسمة فبادلها نبيل الابتسام وهو ينصت إلى الرجل :

« ما هو لا مؤاخذة يا بيه لما تبقى إشارتك حمرا ، تقوم تستنى مش تكسرها . . . كده والا لأ » .

« معاك حق! » .

أسعد رد نبيل الرجل الذي هتف :

« تستنى . . . تستنى لحد اللي قدامك ما يعدي الأول ، والا أنا غلطان يا مزمازيل؟! » .

قالت سامية ، وقد وصلتها الرسالة واضحة جلية :

« طبعاً يا اسطى . . . الإنسان لازم يستنى لحد اللي قدامه ما يعدي الأول! » .

ولاذ الرجل بالصمت بعدها ، لم يفه بحرف . . . وكان ما قالته سامية قد أقنعه بأنه كان على حق !!

* * * *

في دهشة وعصبية وانفعال صاحت فيه :

« يعني انت كنت عارف انه وصل قبلها بليلة؟! » .

« طبعا! » .

« وليه ما قلتليش يا سيد عادل؟! » .

« وإيه لزوم إني أقول لك يعني؟! » .

« انت عارف أنا ارتبكت إزاي لما شفته قدامي؟! » .

« ما هو انتي كان لازم ترتبكي! » .
في امتعاض تساءلت :
« لازم أرتبك في ظروف زي دي؟! » .
« بالتأكيد . . . لأن وصوله كان لازم يبقى مفاجأة حقيقية ليكي! » .
نظرت إليه كمن تسبر غور كلماته فأردف موضحاً :
« نبيل جه من غير ما يديكي خبر . . . تمام؟! » .
« أيوه بس. . . . . » .
« وراح المستشفى وهو عارف موقف والدتك منه! » .
« ده صحيح . . . إنما. . . . . » .

« إذن . . . كان لازم يكون وقع المفاجأة عليكي حقيقي مية في المية . سواء بالنسبة له ، أو حتى بالنسبة لوالدتك! » .

راحت سامية تحملق فيه ذاهلة . . . انفثأ غضبها تماماً فلقد كان حديثه منطقياً ومقنعاً . . . بل ومتقناً إلى أقصى الحدود . . . استقرت رسالته في وجدانها فاسترخت ملامحها المشدودة مما جعله يبتسم مستطرداً :

« ولو أني كنت اديتك خبر ونبهتك . . . كنتي حاتبقي مستعدة لاستقباله . . . وكان ده حايبان عليكي مهما تظاهرتي بعكس كده . . . وده مش مطلوب! » .

ابتسمت سامية رغماً عنها . . . بدا لها هذا الرجل ماكراً إلى حد يجعل الدماء تجمد في العروق . . . لكنها قاومت إعجابها هذا وهي تقول معاتبة :

« طبعاً انت عارف اللي جرى لي مع الأستاذ عبد الحميد بتاع الحسابات اللي اداني الظرف على ريق النوم! » .
« جرى لك إيه؟! » .
« دخت . . . جاني دوار فعلاً يا سيد عادل! » .
« ليه كل ده؟! » .

قفزت صائحة في انفعال :

« إلا ليه . . . تصور إني في لحظة اكتشفت إن الراجل ده بيشتغل معاكم . . . تفتكر . . . . » .

قاطعها رافعاً يده :

« استني . . . ده مش صحيح ! » .

« هو إيه اللي مش صحيح ؟ ! » .

« كل اللي حصل إني قابلت الدكتور زكي إمبارح مصادفة . . . وطلبت منه إذا كان حايعدي على المستشفى الصبح قبل ما يروح الجامعة ، يديكي الجواب ده والدكتور زكي عارف إنك قريبتي وعارف إنك صحفية . . . يبقى أمر طبيعي إني أبعت لك ظرف فيه شوية معلومات أو أي حاجة علشان شغلك . . . ويظهر انه كان مستعجل فادّى الجواب للأستاذ عبد الحميد وطلب منه انه يوصله لك ! » .

كان عادل يبدو بريئاً كطفل وهو يحكي ، وكانت سامية تنظر إليه ساهمة :

« إيه ما لك؟ ! » .

« طب والتاكسي؟ » .

« كان لازم أبلغك انك ما تديش نبيل الظرف قبل ما يطلبه هو منك! » .

كانت الآن تهز رأسها يمنة ويسرة ، كانت مفعمة بالإعجاب أحست أنها لأول مرة تواجه الذكاء الإنساني وجهاً لوجه ، راحت تردد باسمة :

« مش معقول . . . مش ممكن! » .

« هو إيه اللي مش معقول ولا ممكن ده؟ ! » .

« انت تعلب يا عادل بيه . . . تعلب حقيقي! » .

هز كتفيه في لامبالاة مَنْ لم يسعده الإطراء ، وقال :

« أنا باحاول أحميكي ! » .

« تحميني . . . تحميني من إيه؟ ! » .

« أحميكي وانتي في روما! » .
« روما ؟! . . . هو أنا حاسافر؟! » .
« أكيد حاتبقى دي الخطوة اللي جاية!! » .
« مش فاهمة؟! » .

مال عادل مكي نحو سامية وهو يضغط على مخارج ألفاظه كمن يحرص على ألا تفوتها كلمة مما يقول :

« أكيد بعد ما توصلهم الرسالة دي ، حايطلبوا منك إنك تسافري لهم روما! » .
« ليه؟! » .
« إنتي مش عاوزة تشتري العربية والا إيه؟! » .
« والخمسميت دولار اللي اداهم لي نبيل ، حاعمل فيهم إيه؟! » .
« حاتصرفيهم طبعاً ! » .

صاحت كمن لُدِغَتْ :

« إيه؟! » .
« ده حقك! » .
« لأ مش حقي ولا حاجة! » .
« وأنا ماقدرش آخدهم منك ، دي فلوسك! » .
« يبقى حاتبرع بيهم للمجهود الحربي!! » .

كانت تلك لحظة من اللحظات النادرة التي أرتج فيها عادل مكي حتى الأعماق . . . بدت له سامية فهمي وكأنها نوع من البشر انقرض منذ قرون عديدة ، نوع من البشر تَجَرَّدَ حتى من حاجته الطبيعية إلى المال . . . كان سعيداً بها ، وكان فخوراً بتفكيرها . . . وكان ـ في الوقت نفسه ـ مشفقاً عليها مما كانت مقدمة عليه . . . غمغم ناظراً إليها في إعجاب :

« بس بلاش تتبرعي بيهم دلوقت! » .
« إشمعنى؟! » .

« أولاً الناس حاتسأل إنتي جبتي الدولارات منين؟! » .

« وهي الناس لازم تعرف؟! » .

« ثانياً . . . إنتي لازم تصرفي لك قرشين قبل السفر! » .

بـدت عليها الحيـرة ، انـزلقت عينـاهـا يمنـة ويسـرة في ضيـاع من فقـد الطريق . . . لم يكن لديها في مواجهة هذا الرجل سـوى السؤال ، سؤال وراء سؤال . . . ولا بد أن يكون عنده جواب لكل سؤال مهما كان .

« ما لك يا سامية؟! » .

« أنا مش فاهمة حاجة! » .

« بكرة حاتفهمي كل حاجة! » .

« أنا تعبت!! » .

« معلش . . . اصبري . . . هانت! » .

« هانت؟! » .

قالتها وقلبها يسقط بين ضلوعها ، فلقد غمرها إحساس رهيب بـالخوف ، فلقد تعودت ألا يقول عادل مكي ، إلا ما يعنيه بالضبط . . . ترى . . . ما الذي يعنيه إذن بكلمته تلك ؟! .

* * * *

الفَصْل الرَّابع وَالثَلاثون

عِندما تجفّ الدُّموع !

كان عادل مكي ـ دون أدنى شك ـ يعني تلك الكلمة التي أرتجت لها سامية فهمي تماماً ، كان يعني كلمة « هانت » بكل ما تحمله من معنى . . . ذلك أن كل المؤشرات التي تجمعت لديه في ذلك الوقت كانت تشير إلى أن الإيقاع فيما هو قادم من أيام ، لا بد له من أن يسرع ، وأن تكون سرعته لاهثة . . . وإذا كان لكل مباراة في الدنيا قوانين وأصول ، فإن مباراته مع من أطلق على نفسه اسم « أبو سليم » ، كانت قد وصلت إلى ذروة يتحتم بعدها أن يضع كل منهما إمكاناته جميعاً أملاً في الفوز !

بداية . . . كان لا بد له من الاعتراف بأن أبا سليم لعب المباراة ـ من ناحيته ـ بذكاء يحسد عليه . . . ذلك إنه لم يُؤَمِّنْ نبيل سالم فقط بخطبته إلى سامية فهمي ، وإنما ، في نفس الوقت ، تصور أنه أَمَّنَ العملية بالكامل . . . ولو فرض ـ وكان لا بد من وضع هذا الفرض ـ أن سامية لم تكن تعلم حقيقة الأمر ولم تخمنه ، فإنها ، بتورطها بإرسال تلك المعلومات السخية والمخيفة ، سوف تتردد طويلاً ـ لو أنها اكتشفت حقيقة ما كانت تفعله ـ في التبليغ أو التراجع . . . فإذا ما أضفنا نبيل سالم إلى الصورة ، فهل من الممكن أن تزج سامية به ـ بعد كل هذا الحب ـ في السجن ، أو ترسل به إلى حبل المشنقة ؟!

كان حصار سامية فهمي يبدو محكماً تماماً بحيث يصبح تراجعها ، لو أنها فكرت في ذلك ، نوعاً من المستحيل . . .

غير أن المفاجأة التي واجهت عادل مكي في الأمر كله ، أن سامية فهمي تصرفت مع نبيل سالم أثناء زيارته للقاهرة ، تصرفات تبعث على الإعجاب حقاً ، وإن كان كل ما فعلته كان بإيحاء من عادل مكي ، إلا أن تصرفها في التفاصيل بدا له مذهلاً بكل المعاني ، ودقيقاً إلى حد يبعث على التساؤل . . . وعندما دار حوار بينهما ذات مرة حول هذا الأمر ، اعترفت سامية بأنها لم تقصد إلى هذا الإتقان أو تلك التصرفات ، فلقد وجدت نفسها في مأزق ـ هكذا وصفت الموقف ـ وكان عليها أن تخرج منه بأكبر قدر ممكن من السلامة . . . ولو أن الأمر كان يخصها وحدها ويخص علاقتها بنبيل لكان لها موقف آخر ولتصرفت تصرفات أخرى . . . غير أن « البلد » كانت دائماً نصب عينيها ، فإذا هي تتصرف بشكل بدا لنبيل طبيعياً للغاية ، بل بدا لها هي الأخرى طبيعياً تماماً !

ولقد أدرك عادل مكي بعد سفر نبيل سالم ، ومع الفوج الأول من الأنباء التي جاءته من روما . . . أن أبا سليم قد ابتلع الطعم تماماً ، وأنه أصبح على يقين من أن المخابرات المصرية غافلة عن نشاطه بكل المعاني ، وأنه فيما هو قادم من أيام ، يستطيع استغلال نبيل سالم في عمليات أكبر وأكثر خطورة ـ وهذا ما كان عادل مكي يتوقعه ، بل كان هذا ما يريده ـ ولذلك فلقد كان واضحاً منذ ليلة وصول نبيل إلى روما ، ثم سفره إلى نابولي . . . أن ثمة انكماشاً في حركته كان ينبىء بخطورة حقيقة ، فلقد التزم نبيل بعمله في جراج سنيور اسكالكو التزاماً مطلقاً ، ولم يعد عمله في « اصطياد » المصريين أو العرب ، في مثل حجمه السابق . . . مما كان يؤكد تأكيداً قاطعاً ، أن ثمة دوراً جديداً سوف يلعبه نبيل في الأيام القادمة . . . ولما كانت مراقبة نبيل في إيطاليا تعترضها بالطبع صعوبات محتملة ، فلقد كان لا بد لعادل مكي من أن يسرع في الإيقاع حتى لا يتسبب في كوارث جديدة ، وحتى يتسنى له القضاء على تلك الشبكة التي كانت خطورتها تتزايد يوماً بعد يوم ، في أقرب وقت !

* * * *

عاد نبيل سالم إلى روما يحمل تلك الرسالة الخطيرة دون أن تنتابه لحظة واحدة من لحظات الشك . . . كان سائق السيارة الأجرة رقم « ٢٥٣٤ » ، قد اكتسب ثقته منذ أن أقله مع سامية من أمام المستشفى ، مما دفع نبيل لأن يعقد معه اتفاقاً ، بدا للرجل مرضياً للغاية ، وهو أن يلازم نبيل في غدوه ورواحه طوال اليوم نظير مبلغ بدا للرجل سخياً بما فيه الكفاية . . . ولقد كان هذا خطأ ارتكبه نبيل بالطبع ، لكنه خطأ دفعه إليه ذلك الإحساس الغامر بالأمان الذي كان يستشعره منذ أن وطئت قدماه أرض مصر . . . وعندما علمت سامية بذلك ، ازدادت ـ مع الدهشة ـ إعجاباً ، فلقد أدركت أن نبيل لم يعد فقط تحت سيطرة عادل مكي ، بل أصبح يحصي عليه كل حركاته وسكناته !!

عاد نبيل إلى روما مفعماً بالثقة بعد كل ما لاقاه من نجاح في القاهرة . . . وفي لقائه الأول مع أبي سليم الذي تم بعد وصوله مباشرة ، ومع خيوط الفجر الأولى ، كان يجلس إلى الرجل وهو يقص عليه ، بالتفصيل ، وبكثير من الفخر ، كل ما حدث في المستشفى . . . غير أنه ، ما أن شارف على نهاية ما حدث ، حتى بدا عليه التأثر ، مما دفع أبا سليم لأن يسأله :

« واضح انك لسة بتحب سامية يا نبيل؟! » .

« يمكن يابو سليم . . . ويمكن حاجة تانية! » .

« حاجة زي إيه؟! » .

« زي ان اللحظة دي بالذات ، كنت باتمناها من زمان! » .

قال هذا وهو ينهض واقفاً . . . راح يخطو في الغرفة وقد استغرق في التفكير . . . ولقد لاذ أبو سليم بالصمت ، وراح يرقبه وهو يتحرك هنا وهناك حتى جاءه صوت نبيل مفعماً بالتأثر :

« انت لا يمكن تتصور فرحة أبويا وأمي كان شكلها إيه ؟! . . . أبويا اتغير قوي ، ما بقاش قادر يخبي فرحته بيّه . . . حتى . . . أم سامية كانت فرحانة لدرجة إني لما جيت أسلم عليها قبل السفر باستني من هنا ومن هنا » .

« أفهم من كده إنك انتصرت؟! » .

التفت إليه نبيل بعنف وأطلق كلمة كالرصاص :

« بالتأكيد!! » .

« آهو ده اللي أنا كنت عاوز أسمعه منك! » .

ابتلع نبيل جملة أبي سليم دون غضاضة ، كان الرجل يشير من طرف خفي إلى أنه كان السبب من وراء هذا الانتصار ، ولولاه لما استطاع نبيل أن يحقق أمنيته التي عجز عن تحقيقها قبل أن يلقاه . . . ران الصمت قليلاً قبل أن يسأله :

« وازاي أخذت منها الأخبار؟! » .

« أنا عملت زي ما انت قلت لي بالضبط ، فضلت مستني لحد ما بقاش فيه وقت ، كنا اتغدينا سوا وكان لازم نرجع المستشفى . . . واضطريت إني أطلبهم منها! » .

« إيه اللي حصل بالضبط؟! » .

راح نبيل يحكي كيف كانت سامية سعيدة كل السعادة طوال ذلك اليوم ، كيف بدلت ملابسها وصففت شعرها وبدت وكأنها عروس بالفعل . . . بعد أن تناولا الغداء وجلسا في انتظار فنجاني القهوة ، أخرج لها الظرف الذي يحوي الدولارات الخمسمائة وقدمه لها .

« إيه ده يا نبيل؟! » .

« دي رسالة باعتها لك أدريان! » .

بدا على سامية الارتباك وهي تسأل :

« انت بتشوفه؟! » .

« لا والله يا سامية ، دانا قابلته قبل ما آجي صدفة ، ولما عرف إني جاي مصر ، اداني القرشين دول وقال لي. . . . . » .

« قرشين؟! » .

هكذا قاطعته سامية متسائلة فأجاب :

« طبعاً . . . إنتي مش عملتي له شغل؟! » .

ترددت سامية قليلاً وهي تتناول الظرف كي تدسه في حقيبة يدها متمتمة :

« أيوه . . . طبعاً . . . بس. . . . . . . » .

« بس إيه يا سامية؟! » .

« أنا قبضت منه مرتب تلات شهور مقدم؟! » .

« يمكن بيعتبر الفلوس دي مصاريف! » .

« مصاريف إيه؟! » .

ضحك نبيل ساخراً وهو يقول :

« حاتكون إيه يعني ، مصاريف انتقال طبعاً . . . إنتي مش بتركبي مواصلات وانتي بتجيبي الشغل ده؟! » .

« الشغل اللي أنا عملته واللي هو عاوزه ما تنفعش فيه المواصلات يا نبيل؟! » .

« يعني كنتي بتركبي تاكسيات؟ » .

« لأن مفيش عندي وقت ولا جهد . . . أنا كنت بافكر إني أعتذر له! » .

« ليه يا سامية؟! » .

« لأن الفلوس اللي هو دفعها نصها بيروح على الفاضي! » .

« آهو الراجل عمل اللي عليه وبعت لك قرشين علشان ما تزعليش! » .

« على العموم لو شفته إبقى أشكره! » .

« ما هو أنا لازم حاشوفه! » .

« انت مش بتقول إنك. . . . . » .

« قابلته صدفة أيوه . . . إنما لما أرجع حالقاه منتظرني علشان الأخبار اللي انتي جمعتيها! » .

« إيه؟! » .

هكذا هتفت سامية في دهشة وخوف ، مال نبيل نحوها هامساً مبتسماً :

« المفروض إننا مخطوبين وبنحب بعض! » .

سألته في أسى :

« المفروض يا نبيل؟! » .

« أمال ما لك مكشرة كده ليه . . . ابتسمي من فضلك ، الناس تقول علينا إيه؟! » .

بعد لحظة تردد قالت سامية :

« أصل أدريان اتفق معايا على. . . . . . » .

« على السرية ، طبعاً أنا عارف ومدرك لده تمام . . . إنما هو لما عرف ان ماما تعبانة في المستشفى ، أدرك إنك مش حاتقدري تسافري دلوقت ، ورجاني وقال لي إن سامية مش ممكن تثق في حد غيرك! » .

« ثم إن الشغل مش معايا كمان! » .

« مش معاكي؟! » .

« جرى إيه يا نبيل ، تفتكر إن المفروض اني أشيل شغل مهم زي ده في شنطتي . . . انت اتجننت؟! » .

« أمال هو فين؟! » .

« في البيت طبعاً! » .

« خلاص ، نعدي على البيت قبل ما نرجع المستشفى وتجي الشغل! » .

. . .   .

. . .   .

بدا على أبي سليم الابتهاج فلم يحاول أن يخفيه ، مال نحو نبيل عندما وصل إلى هذا الحد متسائلاً :

« وادتك الظرف إزاي؟! » .

صمت نبيل قليلاً ، وكان ساهماً وكأنه انتبه إلى شيء غفل عنه :

« ما اديتهوليش في التاكسي ، إديتهولي واحنا راكبين أسانسير المستشفى لوحدنا! » .

« كانت كاتبة اسم أدريان على الظرف؟! » .
« لأ طبعاً . . . إنما كانت حاطة عليه ورق اللزق ده! » .
« ولما طلبت منها تكتب اسم أدريان عملت إيه؟! » .

« بصراحة اترددت ، كنا خرجنا من الأسانسير ، قلت لها إن ده في أوروبا عيب ، وكان الوقت ضيقاً جداً! » .
« وكتبته؟! » .
« كانت رافضة ، قالت لي مالكش دعوة إديه لأدريان وبس! » .
اتسعت ابتسامة أبو سليم ، واستحث نبيل أن يكمل ، فقال هذا :
« لما لقيتني مصمم على موقفي ، كتبت الاسم بسرعة! » .

اضطجع أبو سليم في مقعده كمن تناول وجبة دسمة ، وراح ينظر إلى نبيل الذي كان ساهماً تماماً .
« ما لك يا نبيل؟! » .
« هي سامية تعرف عننا حاجة يا أبو سليم؟! » .
نهض أبو سليم متجاهلاً سؤال نبيل طارحاً عليه سؤالاً آخر :
« حد اتعرض لك في المطار؟! » .
« إطلاقاً! » .
« ما لاحظتش حاجة غريبة حواليك؟! » .
« بالمرة!! » .

بدت أسئلة أبي سليم وكأنها تقريع للشاب الذي كان يبدو مشتت الفكر ، تلاقت نظراتهما ذات لحظة فإذا نبيل يهتف وقد أدرك ما يرمي إليه الرجل بأسئلته :

« ما أنا قلت لك إنك تعلب . عاوز إيه تاني؟! » .
« ولا حاجة . . . أنا عاوزك تفضل فاكر ولا تنساش! » .

قال أبو سليم هذا ثم غادر نبيل حاملاً الظرف الذي أرسلته سامية فهمي ،

كانت عاصفة من التفكير قد هبت على رأس ذلك الشاب التعس . . . ذلك أنه كان يكتشف لحظة بعد أخرى ، أن كل ما فعلته سامية فهمي ، وكل تصرفاتها ، تشير إلى أنها تعلم حقيقة الأمر . . . فهل هذا صحيح ؟!

سؤال ـ هكذا قال نبيل فيما بعد ـ ظل يعذبه طويلاً والمرارة تحرق حلقه . . . فبالرغم من الهاوية التي كان قد سقط فيها ، فإنه أبداً لم يتصور أن سامية ، سامية فهمي بالذات ، من الممكن أن تخون !!

* * * *

كانت المعلومات التي أرسلتها سامية فهمي تبدو كأنها أخبار صحفية مائة في المائة . . . ذلك أن عادل مكي كان يعلم يقيناً ، أن وفرة تلك المعلومات وخطورتها ، كانت كافية لوضعها تحت مجهر تحليل دقيق ، لا للتأكد من صحتها فقط ، ولكن للتأكد أيضاً من أن أحداً ـ غير سامية فهمي ـ لم يتدخل في وضعها أو صياغتها ، ولذلك ، فلقد كان من الأهمية بمكان ، أن تكتب سامية كل خبر أو معلومة بذلك الأسلوب الصحفي الذي تعودت هي أن تكتب به !

وفي حقيقة الأمر . . . فإن سامية فهمي ـ بطبيعتها ـ كانت تمثل لعادل مكي قدراً لا بأس به من المعاناة . . . ذلك أنها كانت تسأل وتستفسر وتتقصى في محاولة لمعرفة ما الذي كانت تفعله أو يدور حولها . . . وإذا كان ذلك يبدو في جانب من جوانبه رائعاً ، حتى إذا ما التقت بمن أطلق على نفسه اسم أدريان تومسون ، تكون جاهزة وملمة بأسرار كل ما أرسلته من معلومات . . . على أنه في الناحية الأخرى ، كانت هناك خطورة أن تعرف سامية ما لا ينبغي لها أن تعرفه ، وهي كصحفية ، من الممكن أن تضيع في خضم متاهات لا نهاية لها . . . ولقد كان من الممكن ، بل من السهل ، السيطرة على سامية سيطرة تجعلها مطيعة ، فالسيطرة علم من علوم المخابرات له أصوله وتقاليده ولا عيب فيه إذا ما مورس مع صديق أو عميل ، لكن المشكلة بالنسبة لسامية ، أنها لم تكن في حاجة إلى السيطرة ، بل كانت ـ رغم آلامها المروعة ـ مندفعة تريد أن تفدي الوطن حتى بعمرها . . . وكان لا بد لإيجاد التوازن فيما بين ذلك

الاندفاع وما ينبغي أن تكون عليه تصرفاتها سواء في مصر أو في روما ، أن يخلق معها نوعاً من الحوار يؤدي إلى الغرض المطلوب دون أن يشعرها ، بما كان يكابده معها من عناء !

ولقد حاولت سامية في ذلك اليوم عندما أحست بقرب النهاية ، أن تعرف : لماذا سيرسلون في طلبها ؟! . . . وما سوف يفعلونه بها ؟! . . . وماذا إذا كانوا لم يكتشفوا أمرها ، أو أن شيئاً وقع فاكتشفوا أمرها ؟! . . . و . . . وعشرات الأسئلة التي راحت تمطره بها في توتر نشأ عن ذلك الخوف المروع الذي سيطر عليها ، فما كان من عادل مكي إلا أن يقول لها فجأة وكأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه :

« على فكرة . . . إنتي مش ناوية تشتري شوية فساتين كويسة قبل ما تسافري؟! » .

هتفت في دهشة :

« شوية فساتين؟! » .

صحيح الهدوم اللي أخدتيها معاكي المرة اللي فاتت كانت كويسة ، خصوصاً الفستان اللي كنتي لابساه يوم ما قابلتي أدريان تومسون آخر مرة . . . لكن ده ما يمنعش إنك . . .

قاطعته في قلقل :

« الفستان اللي كنت لابساه يوم ما قابلت . . . . » .

قالت هذا ولزمت الصمت وهي تحملق فيه ذاهلة .

« جرى إيه يا سامية؟! » .

« هو انت كنت هناك؟! » .

« مش لازم أنا! » .

« كنا بنحميك . . . كنا خايفين عليك! » .

« من إيه يا سيد عادل؟! » .

« بصراحة من يوم ما نشلوا فلوسك حسينا إنهم ممكن يلعبوا معاكي

ألاعيب بايخة شوية! » .

انتفضت في جلستها كالمذبوحة :

« هم مين اللي نشلو فلوسي؟! » .

تجاهل عادل سؤالها مستطرداً في طريق مستقيم نحو هدفه :

« إحنا كنا عارفين إن العربية اللي كانت حاتصدمك في روما كانت وراكي من أول النهار ، ولو كانت ذاكرتك كويسة ، حاتفتكري ان اللي صرخ علشان ينبهك للعربية ، صرخ بالعربي ، وإن اللي شدك من طريقها ، كان شاب أسمر ، وإنه لما لاقاكي في حالة صعبة حبتين ، قال لك : الحمد لله جت سليمة! » .

كان هذا فوق قدرتها على الاحتمال . . . كان ما يقوله عادل يبدو لها وكأنه الجنون ذاته ارتدت ذاكرتها في لمح البصر إلى الوراء كي تتذكر بوضح وجلاء تلك اللحظات الغريبة التي مرت بها ، تذكرت تلك الصيحة التي جاءتها بالعربية : حاسبي يا مدموازيل ؟! . . . نعم . . . نعم حدث هذا لكنه ، وسط الرعب الذي شلها ، بدا طبيعياً إلى الحد الذي لم تفكر معه في الأمر ولم تتذكره أو تذكره حتى لنفسها . . . عادت الأصوات إلى ذاكرتها . . . ولقد كانت مضطربة اضطراباً بالغاً وهي تسأل عادل :

« وهم كانوا عاوزين يموتوني ليه؟! » .

« ما اعتقدش إن ده كان هدفهم! » .

« أمال إيه الهدف؟! » .

« إنك ترتبكي علشان النشال يلهف محفظتك وهو متطمن! » .

« ما النشال كان ممكن يلهف المحفظة من غير ما اشعر ومن غير حادثة ولا عربية! » .

« ده صحيح . . . بس الفرق أكيد حايكون كبير في تصرفاتك بعد كده! » .

فجـأة . . . وعلى غير انتـظار ، نهضت واقفة وهي تعلق حقيبتهـا بكتفهـا وكانت يداها ترتجفان ارتجافاً واضحاً . . . وكانت تقول :

« عادل بيه . . . أرجوك اعفيني من المسألة دي كلها ، أنا مش حِمْل كـل اللي بيحصل ده! » .

الغريب في الأمر أن عادل نهض لنهوضها دون أن يرد ، بدا عليه الاستعداد لمصافحتها وقبول اعتذارها دون مناقشة ، لكنها هتفت مختنقة الصوت وكـأنها تقدم له مبرراً لما قالته :

« يعني أنتو كنتوا تعرفوا كل حاجة من قبل أنا ما أسافر؟! » .

« إحنا اتكلمنا في الموضوع ده قبل كده! » .

« وكنتـو شايفين كـل حاجـة وعارفين كـل حاجـة وكنتـو ورايـا في كـل حتة؟! » .

« كنا وراهم مش وراك! » .

« وهي تفرق؟! » .

« كتير!! » .

« في إيه يا سيد عادل؟ » .

« في إنك لو قررت السفر لـروما يـوم ما يبعتـوا لك ، لازم تبقي مـطمئنة وواثقة أننا حانكون جنبك!! » .

هكذا ، في براعة أذهلتها وصل عادل مكي إلى غرضه من إثـارة الحوار ، لاذ بالصمت بعدها ، وكانت عيناها قد اتسعتا في دهشة وكأن الضـوء قد غمـر منطقة مظلمة في رأسها فراحت تدور حول نفسها هاتفة :

« تعلب . . . تعلب . . . انت تعلب يا سيد عادل! » .

« لاحظي ان كلمة مخابرات مش ترجمة دقيقة لشغلنا! » .

« يعني إيه؟! » .

« يعني شغلتنا اسمها ذكاء يا آنسة سامية! » .

عادت إلى مقعدها متمتمة وهي تهز رأسها في عنف :

« يعني إيه برضه ؟! . . . فهمني . . . أنا مش فاهمة حاجة! » .

* * * *

ظلت سامية فهمي لسنوات طويلة بعد ذلك تذكر هذا الحوار بإعجاب شديد ، وهي ، عندما أفاقت مما كانت فيه ، وعندما توقف ذلك الصراع المدمر الذي كان يصطرع في صدرها ليل نهار ، وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها ، كانت دائماً ما تذكر كيف أدار عادل مكي هذا الحوار ببراعة جعلتها ممتنة بحق . . . ذلك أنها كانت قد توصلت بينها وبين نفسها إلى حقيقة بدت لها غير قابلة للنقاش فلم ترد أن تضع رأسها في الرمال كالنعامة ، كانت قد تيقنت من أن نبيل سالم متورط وضالع ومشارك في كل ما مر بها ، وهي ، عندما أطل برأسه عبر باب الغرفة في المستشفى ، اضطربت ذلك الاضطراب الذي كاد يدفعها إلى معاملته كما ينبغي ، لولا بقية من أمل ـ لم يبدده ، ولم يحاول عادل مكي أن يبدده ـ في أن يكون نبيل بريئاً مما كان يحاك ضد وطنها . . . حتى إذا كان هذا الحوار بينهما ، أدركت أن مثل هذا الرجل ، لا يترك شيئاً للمصادفة ، ولا يفعل شيئاً ليس وراءه ما وراءه ، مما جعل ثقتها فيه تزداد . . . أدركت أنه إنما أدار معها هذا الحوار وأفضى إليها بما أفضى به ، لا لشيء ، إلا لكي يطمئنها إلى أنها لو سافرت ، فلن تكون عارية من حماية الوطن ورجاله ، فأسلمت له ، منذ تلك الجلسة ، قيادها بالكامل . . . ولم تعد تناقش ، بل لم تكن راغبة حتى في المناقشة !

... ...

... ...

ذات يوم عندما نقلت لعادل مكي حديث سامية فهمي هذا ، ابتسم تلك الابتسامة التي تبدو دائماً حزينة ، يغلفها نوع من المرارة لا تزال . . . ثم قال : إنه لم يكن ليقدم على خطوة كهذه ، إلا إذا كان موقناً أن سامية أدركت ، بما لا يقبل الشك ، أن حبيبها خائن ، وأنه باع نفسه للشيطان بالفعل . . . ولذلك ،

فلقد قرر أن يضرب عصفورين بحجر واحد . . . هو أن ينبه سامية إلى أنها ستكون في حماية الوطن ، وفي نفس الوقت يقرب المسافة فيما بينها وبينه فيما يختص بنبيل سالم ، فلم يكن ـ حتى من باب اللياقة ـ يستطيع أن يصارحها مصارحة فجة بخيانة حبيبها !!

ولقد جرى الحديث بينهما بعد ذلك سلساً وفي اتفاق مطلق . . . ولكنه ، بالرغم من ذلك ، كان لا يزال في حاجة إلى دليل ، ليس فقط لإقناع سامية ، ولكن أيضاً لإدانة نبيل لأن عادل مكي لم يكن يملك ، حتى تلك اللحظة ، دليلاً واحداً ولو صغيراً ، على إدانته !!!

... ...

... ...

أصبح عليه الآن أن يتحدث إليها عن المبادىء العامة التي تحكم علم المخابرات أو لعبة الذكاء هذه . . . فراح يحكي في طلاوة من يدردش في أمور الحياة العادية ، أن المخابرات في الأصل هي صراع رؤوس تفكر ، فليس فيها ذلك العنف الذي يتميز به العمل البوليسي . . . وهكذا استغرقها حديثه تماماً حتى إذا ما أراد أن يعطيها مثلاً ، قال : إنهم بالقطع عندما جعلوا تلك السيارة التي تتبعتها في روما من شارع إلى شارع ، ولم يكن في نيتهم ـ على الإطلاق ـ أن يصيبوها بأي نوع من أنواع الأذى . . . فقط ، كانوا يريدونها أن ترتبك وتتشتت أفكارها وتضطرب ، حتى إذا ما نشلت ، فعل النشل مع الارتباك والخوف فعلهما في نفسها ، خاصة أن ضربة ثالثة جاءتها بعد قليل ، عندما اكتشفت أن نبيل قد سافر ! . . . بعدها ، لم يكن هناك مكان في رأسها لأن تفكر إلّا في الخروج من المأزق الذي وجدت نفسها فيه . . . وهم ، لم يكونوا يريدون أكثر من ذلك ، أن تخطو الخطوة الأولى ، وأن تقبل النقود . . . ولقد فعلتَ !!!

ساد الصمت تماماً ، وطال ، وسامية ساهمة كمن تشاهد ، بالخيال ، فيلماً مثيراً يحبس الأنفاس .

« وهو نبيل كان سافر فعلاً؟! » .

« طبعاً!! » .

« طبعاً ليه ؟!. . . ما هو كان ممكن يستخبى في أي بيت أو أي حي بعيد! » .

« لأن كل حاجة لازم تبدو طبيعية تماماً ، وزي ما قلت لك ، مفيش حاجة تنساب للظروف! » .

« مش فاهمة؟ » .

« نبيل لما سافر ، وراح نابولي . . . وانت في ظروف زي اللي انتي فيها دي ، ومعاكي بالتأكيد عنوانه في نابولي اللي كنت بتبعتي جواباتك عليه . . . كان ممكن يطلع في دماغك ، كمخرج من الورطة ، إنك تسافري له نابولي رغم إن السكرتيرة قالت لك إنها ما تعرفش هو فين؟! » .

« تعرف إني فكرت في كده فعلاً؟! » .

« بالتأكيد ، ولو كنتي سافرت ، كنت حاتلاقيه هناك ! » .

ساد الصمت لثوان استطرد بعدها عادل :

« في العالم ده يا سامية ، زي ما قلت لك كتير قبل كده ، مفيش حاجة بتنساب للمصادفة ، كل حاجة لازم تبقى مخططة بدقة شديدة! » .

كانا الآن يتحدثان عن نبيل من منطلق واحد ومن منظور واحد ، ولا تدري سامية إن كانت قد انتبهت إلى ذلك أم لا . . . كل ما تعرفه أنها أحست بنوع غريب من السكينة راح يتسلل إلى نفسها ، فتنفست الصعداء وهي تغمغم :

« أنا تعبتك معايا النهاردة . . . سامحني! » .

« أنا مش تعبان ، بالعكس ، اللي حصل النهاردة ريحني جداً وطمني أكتر عليكي! » .

ابتسمت وقد أدركت أنه كان يمارس لعبة الذكاء حتى معها ، أو كما قالت

لي ذات مرة ، أنه يتنفس ذكاء . . . فعادت تسأله وهي تستعد للانصراف :

« تفتكر حايبعتوا لي إمتى؟! » .

« لسة شوية! » .

« طب أنا أعمل إيه في الأيام اللي جاية؟! » .

« نفس اللي اتفقنا عليه ، أهم حاجة إنك تشتغلي بحماس بالفعل » .

« إزاي بس يا سيد عادل! » .

« لاحظي إنك بتشتغلي لحساب مصر!! » .

« وهو الشغل ده. . . . . » .

توقفت عن الحديث وقد بدت لها جملته باهرة بكل المعاني ، ساد الصمت لثوان قال بعدها :

« ما هو ده اللي أنا عاوزك تفهميه علشان حماسك يبقى طبيعي ومش مفتعل ، انت فعلاً بتشتغلي لحساب مصر ، وهم لازم يصدقوا كل كلمة بنبعتها لهم ، ولازم يثقوا في كل تصرف من تصرفاتك علشان نقصر المدة ، لأنها طالت يا سامية أكتر من اللازم . . . وما بقاش فيه وقت!! » .

* * * *

وهكذا مضت الأيام ، مضى شهران كاملان قضتهما سامية في عمل متصل وقد استردت أمها صحتها وعادت إلى عملها . . . كان المرض المفاجىء مع تلازم سامية وأمها لأيام طويلة ، قد فعل فعل السحر في علاقتهما ، وإذا كانت الأم قد استسلمت في البداية لرغبت ابنتها في الاقتران بنبيل سالم ، فإن جملة أفلتت من سامية ذات ليلة ، جعلتها تفكر في الأمر من زاوية جديدة - هكذا قالت الأم لابنتها فيما بعد - ولقد حدث هذا عندما كانتا تتناولان العشاء معاً والحديث بينهما دافىء ومتصل ، عندما سألتها السيدة إقبال إن كانت قد حددت موعداً لعقد القران . . . كان السؤال عفوياً لم تقصد الأم من ورائه شيئاً ، غير أن رد فعل سامية كان غريباً بالنسبة إليها غرابة لا تصدق ، فلقد هتفت في حدة :

« **كتب كتاب إيه ده يا ماما اللي بتتكلمي عليه؟!** » .

أدركت الأم في تلك اللحظة أن ابنتها تخفي عنها سراً يخص نبيل بالذات فلزمت الصمت ، وأدركت سامية أنها تسرعت في ردها فهربت بعينيها من نظرات أمها وهي تغمغم وكأنها تحدث نفسها :

« **أتجوز واحد عايش في إيطاليا وأنا عايشة هنا؟!** » .

« **أمال ناوية على إيه؟!** » .

« **لما يكوّن نفسه حايبقى يرجع مصر ويفتح مشروع ، وقتها يبقى يحلها ربنا!!** » .

« **وده ممكن يحصل إمتى يا بنتي؟!** » .

« **ما تشغليش بالك بالحاجات دي يا حضرة الناظرة !** » .

قالت هذا ونهضت جامعة الأطباق !

* * * *

طوال هذين الشهرين اللذين انقضيا في قلق وترقب ، كان اتصال سامية بعادل مكي محدوداً ، ولم يلتقيا سوى مرة واحدة . . . كان ذلك عندما انقضى شهر على سفر نبيل ، وكانت أمها قد غادرت الفراش وخرجت للنزهة ، كما كانت تستعد للعودة إلى عملها بعد أن شفيت تماماً من أثر العملية الجراحية . . . وعندما ذهبت سامية للقائه ، بدا لها الأمر في الدقائق الأولى وكأنه لقاء لمجرد الدردشة في أمور الدنيا ، لكنه سألها فجأة :

« **عملتي إيه في الشغل؟!** » .

ابتسمت في مرارة :

« **آني شغل فيهم؟!** » .

بادلها الابتسام معتدلاً في جلسته :

« **الشغل بتاع أدريان!** » .

فتحت حقيبة يدها وأخرجت مجموعة من الأوراق وهي تقول :

« **جمعت شوية معلومات مش بطالة!** » .

رفع حاجبيه دهشة فأردفت باسمة :

« أو بمعنى أصح ، جمعت شوية بلاوي متلتلة!! » .

كان إحساسها بالأمان يتزايد يوماً بعد يوم . . . وعندما نظر عادل إلى الأوراق لم تشأ أن تقاطعه ، كان يجري بعينيه فوق الكلمات بسرعة بدت لها فريدة ، حتى إذا ما انتهى من القراءة رفع إليها رأسه قائلاً :

« مش واجب تبعتي لأدريان تقولي له إن عندك أخبار مهمة؟! » .

« أنا اللي أبعت له؟! » .

« ما هو لازم يحس إنك ملهوفة على الشغل خصوصاً بعد ما بعت لك الخمسميت دولار! » .

« زي ما تشوف سيادتك! » .

أطلت من عينيه نظرة عتاب وكأنه لم يتعود منها الطاعة ، قال :

« إذا كنت متخيلة اني مش حاسس بيكي ولا بالألم اللي انت بتعاني منه تبقي غلطانة! » .

لم تشأ الاستمرار في الحوار ، كان الحزن قد تسرب إلى دمائها ولم تعد لها فيه حيلة . . . قالت في نبرة رجاء لم تخف على أذن عادل :

« ممكن نقوم نكتب الجواب؟! » .

« إنتي وراكي حاجة النهاردة؟! » .

« أكلم ماما بس علشان أقول لها إني حاتأخر!! » .

واستمرا يعملان في ذلك اليوم طوال أربع ساعات بلا توقف ، كتبت على ظرف الخطاب اسم نبيل ووضعت عنوان روما عليه ، ثم انتقلا إلى الأوراق وراحا يصوغان الأخبار والمعلومات وعادل يبدل هنا وهناك . ... حتى إذا ما انتهيا ، زفر قائلاً في مزاح :

« كده تضمني إنك ترجعي بعربية آخر موديل! » .

« تفتكر الأخبار اللي أنا بعتها مع نبيل كان لها قيمة عندهم؟! » .

« بالتأكيد ، ومش قيمة عادية كمان! » .

« أمال إيه اللي يخليهم يتأخروا في الرد بالشكل ده؟! » .

« فيه عوامل كتير ، منها مثلاً إن تحليل الرسالة بياخد وقت ، على ما يروح تل أبيب ويروح للمختصين ويدخل كل خبر في مفرمة تحليله ومقارنته بأخبار تانية أو بنفس الخبر من مصدر تاني وقياس مدى الصحة ، ثم هناك الأسلوب اللي انكتبت بيه الأخبار ، هل هو أسلوبك اللي بتكتبي بيه في الفجر والا فيه حد تدخل معاك . . . كل الحاجات دي بتاخذ وقت شوية! » .

همت بالحديث لكنه استطرد :

« ولاحظي كمان انهم مش عاوزين يبينوا لك انهم ملهوفين عليك قوي! » .

« تفتكر أنا حاقدر أقنعهم باللي انت عاوزه؟! » .

« لو إنك سمعت كلامي! » .

« إزاي؟! » .

« اشتريتي الفساتين اللي قلت لك عليها؟! » .

« فساتين إيه يا سيد عادل . . . هو أنا معايا فلوس للفساتين ولا للعربية؟! » .

« إنتي لما تشتري لك كام فستان وكام شنطة وكام جزمة ، تبعزقي لك كام دولار من اللي هم بعتوهم . . . تفتكري حايقولوا عليكي إيه؟! » .

« حايحتقروني طبعاً! » .

« ليه؟! » .

« حايقولوا عليّ بنت هايفة وغاوية لبس وعربيات ومنظرة! » .

« وهو المطلوب!! » .

صاحت في غضب :

« انت بتقول إيه يا سيد عادل؟! » .

« طب نفهم الأول!! » .

فوراً ، اجتاحها إحساس رهيب بالذنب ، كانت موقنة الآن أن هذا الشاب الصبور يعرف أين يضع كلماته وكيف يطرح أفكاره ، ولكن . . . ها هي تضغط عليه بضعفها وقلة علمها فهمست :

« أنا آسفة! » .

« أصل انتي مش ممكن تبقي عبيطة قوي لدرجة إنك تبعتي معلومات بالشكل ده إلا إذا كنتي عارفة قيمتها أولاً . . . وإذا كنتي عارفة قيمتها ، يبقى لا بد إنك عارفة انتي بتتعاملي مع مين ، أو على الأقل بتشكي!! » .

« معقول اللي انت بتقوله ده؟! » .

« أمال انتي جيتي لي إزاي؟! » .

« يعني هم بيفكروا بالشكل ده؟! » .

« دي مش عاوزة مناقشة . . . وعلشان يبقى كل شيء منطقي ، لازم يكون فيه سبب لاستمرارك في إمدادهم بالمعلومات حتى ولو كانت في صورة أخبار صحفية! » .

« وإيه هو السبب ده؟! » .

« الفلوس! » .

ساد الصمت قليلاً لكن عادل عاد إلى الحديث :

« علشان كده لازم تشتري فساتين جديدة ، وآخر موضة كمان . . . ولازم تروحي لهم وفي دماغك إنك حاتشتري عربية أحسن من بتاعة نبيل اللي كانت عاجباكي قوي دي . . . ولازم هم يحسوا بكده! » .

« بس نبيل عارفني . . . عارفني كويس! » .

كان هذا اعترافاً صريحاً منها بإدانة نبيل ، غير أن عادل تساءل في خبث :

« ونبيل ماله ومالهم؟! » .

طأطأت برأسها خجلاً وكأنها تعترف دون كلمات بأنها اكتشفت الحقيقة . فأردف :

« وحتى لـو كـانـوا عـارفين مين إنتي . . . الإنسـان ممكن يتغيـر علشـان حاجات هو عايزها وما كانش طايلها . . . ولما لقى أنه ممكن يحصل عليها ، يعمل أي حاجة علشان يمتلكها! » .

« يعني إيه المفروض إني أعمله بالضبط؟! » .

« أبداً . . . تشتري الفساتين وتحضري نفسك لحد ما يردوا عليك! » .

« وإذا ما ردوش؟! » .

« ما تقلقيش يا سامية ، حايردوا . . . مية في المية حايردوا! » .

وبالفعل ، جاءها الرد بعد شهر وبضعة أيام !! .

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

رسالة .. سرية .. ولكن مفتوحة !

غادرت سامية فهمي عادل مكي في ذلك اليوم وأفكارها تتفجر في رأسها كقنابل موقوتة ، كان عليها الآن ـ بجوار عملها وجمع الأخبار الجديدة لأدريان تومسون والتظاهر بالإنهماك في عملها الجديد ـ أن تشتري عدداً لا بأس به من الملابس التي لم تحلم ، ولم تفكر ، في أن ترتديها في يوم من الأيام . . . لم يكن يعنيها الآن ما الذي يمكن أن يقوله الإسرائيليون عنها ، ولا حتى ماذا يمكن أن يقول نبيل سالم ، فلقد فهمت مقصد عادل مكي ، فهمته تماماً . . . كان ما تخشاه حقاً هو نظرة المجتمع المصري لها ، نظرة زملائها وزميلاتها وأصدقائها وصديقاتها إذا ما اشترت ملابس من تلك التي كانت هي أول الساخرات ممن يرتدينها أو يشترينها من شارع الشواربي الذي كان في تلك الأيام التي أعقبت النكسة ، في أوائل أيام نشاطه الذي راح يتزايد مع الأيام ، وهو يعرض آخر مبتكرات الموضة الباريسية والأمريكية على وجه الخصوص . . . كانت الأفكار تتفجر في رأسها وهي تجلس في المقعد الخلفي للسيارة الأجرة التي كانت تقلها من الجهاز وإليه . . . وكان رقمها قد تغير منذ سفر نبيل سالم إلى رقم آخر . . . ولذلك ، ولأنها أرادت أن تقوم بما يجب عليها أن تقوم به فلقد قررت أن تشتري من الملابس ما يروق لها على ألا ترتدي منها في مصر إلا النزر اليسير ، أو كما قالت لي باسمة في مرارة :

« كنت عاوزة أعرف رد فعل الناس على شكلي الجديد حايبقى إيه؟! » .

ولقد وصلني المعنى الذي أرادته سامية من جملتها تلك ، غير أني طلبت منها ، ربما للتأكد لا أكثر ولا أقل ، أن توضح لي ما كانت ترمي إليه ، فقالت :

« أنا فهمت من عادل مكي انه عاوزني أظهر قدام الإسرائيليين وكأني كل اللي يهمني إني أخرج على وش الدنيا وأعيش حياة كانت فيه بنات كتيرة في مصر عايشينها فعلاً . . . يعني بصراحة كده ، أبقى زي نبيل بالضبط . . . وأنا في النهاية برضه بنت واحب أبقى حلوة! » .

قالت جملتها الأخيرة في خفر بعث بالخجل إلى نفسي فهتفت :

« ما انت حلوة في أي هدوم يا سامية! » .

تنهدت سامية فخلت أنها تزفر قلبها نفسه وهي تقول :

« في الليلة دي أنا تعبت قوي ، ما كنتش عارفة أتصرف . . . حضرة الناظرة زي عوايدها أخدت بالها . . . سألتني إيه اللي شاغلني ، قلت لها إني محتارة ولا قلتش حاجة ثانية . . . فوجئت بيها بتقول لي نفس الجملة اللي قالتها لي وأنا عيانة . . . قالت لي اعملي اللي عليك وخلي الباقي على ربنا! » .

ومرة ثانية تتساءل سامية فهمي إن كانت أمها تعلم شيئاً عما ألم بها ، تساءلت في دهشة إن كان « قلب الأم » يشعر بما لا يشعر به الآخرون . . . غير أنها في نهاية ليلة مؤرقة اتخذت قراراً رأت أن يكون نهائياً ، وهو أن تفعل ما يجب عليها أن تفعله دون تردد أو تفكير ، وأن تترك الباقي لله ، ولعادل مكي الذي كان قد اكتسب الآن ثقتها بلا حدود !

. . .   .

. . .   .

في اليوم التالي نزلت إلى شارع الشواربي قامت بجولة وكانت تحمل في حقيبتها مبلغاً محترماً من المال اقتطعته اقتطاعاً ، مما وفرته لشراء السيارة . . .

وعندما وقع اختيارها على رداء بعينه ـ شاهدته في النافذة الزجاجية لأحد المحلات الصغيرة ، دلفت إلى المحل فقوبلت فيه من صاحبته بفتور كاد يدفعها إلى مغادرته . . . فلقد أدركت أن مظهرها لم يرق تلك السيدة التي لا بد ظنت أنها واحدة من هاته الفتيات اللواتي كن يدخلن إلى تلك المحلات للفرجة والاستمتاع لا للشراء . . . لكنها استطاعت بعد دقائق ، أن تجعل تلك السيدة التي بدت لها من نوع خاص تماماً ، تنهض مهرولة في نشاط عارضة عليها ألواناً من الملابس تخطف البصر بحق . . . ولقد مضت ساعة ونصف قبل أن تغادر سامية ذلك المحل ، وقد حملت في يدها حقيبتين كبيرتين من البلاستيك كانتا تحويان عدداً لا بأس به من البلوزات والجونلات والفساتين . . . أدركت وهي تغادر المحل أنها تنفق من المال أكثر مما ظنت بكثير وأن عليها تشتري على الأقل ، زوجين من الأحذية التي تليق ألوانها وما اشترت من ملابس ، وحقيبتي يد من جلد فاخر . . . و . . . وهكذا ، وبعد بضعة أيام لا تزيد على الأربعة ، أثارت سامية فهمي ـ مع الدهشة البالغة التي أصابت كل الذين يعرفونها ـ الكثير من التساؤلات . . . كان ذلك عندما دعيت إلى حفل أقامته واحدة من صديقاتها ، وكان يجمع عدداً كبيراً من الزملاء والزميلات مع أزواجهن وزوجاتهم ، فاستعدت استعداداً امتص يوماً بكامله ، وارتدت واحداً من تلك الفساتين البالغة الأناقة ، والتي فصلت حسب آخر خطوط الموضة ، مما دفع الحاضرين جميعاً إلى التعليق بل والتساؤل ، فلقد كانت سامية في تلك الليلة تبدو وقد صففت شعرها ووضعت ذلك البروش الفاخر المرصع بالماس والذي أهداه لها نبيل كشبكة ، وكأنها فتاة أخرى . . . فإلى جانب جمالها الذي أضاف إليه أسلوب تصفيف شعرها مزيداً من البهاء ، كانت أناقتها مثار حسد الأخريات ، وإعجاب الرجال الذين لم يستطع بعضهم كتمان ما بنفسه ، فتحول الأمر من الهمس إلى الجهر ، وتناثرت كلمات الإطراء والمزاح مما دفع سامية لأن تقول بصوت سمعه الجميع :

« يعني عاوزين البيه اللي خاطبني يبقى عايش في إيطاليا من غير ما يجيب لي شوية هدوم؟! » .

غير أن سامية ، في حقيقة الأمر ، كانت قد واجهت ، قبل هذا كله ، ويوم أن ابتاعت تلك الملابس ، مأزقاً جعل قلبها يسقط بين ضلوعها . . . وكان ذلك عندما نظرت السيدة إقبال حسين إلى ما اشترته ابنتها في دهشة لم تحاول إخفاءها . . . فلقد بدا لها الأمر غريباً ، بل ومثيراً في نفس الوقت . . . فلم تكن تلك الملابس من ذلك النوع يروق لسامية أو الذي تسعى إليه ، فوق أنها قدرت المبلغ الذي أنفقته ابنتها على تلك الملابس بما لا يتناسب بحال من الأحوال مع دخلها أو حتى دخلهما معاً . . . ولقد سهمت السيدة إقبال طويلاً بعد أن شاهدت مشتريات ابنتها ، ثم سألتها سؤالاً غريباً :

« سامية . . . إنتي مش عاوزة تقولي لي حاجة؟! » .

كان السؤال بعيداً كل البعد عما كانتا تتحدثان فيه ، كانت سامية ، مع عرضها لمشترياتها ، بدأت تقص عليها قصة مدام سوزي صاحبة المحل ، وكيف استقبلتها بفتور تبخر بمجرد أن أدركت أنها زبونة « سقع » . . . كانت سامية مندمجة فيما كانت تحكيه عندما هوى السؤال فوق رأسها كمطرقة أصابتها بالدوار ، توقفت عن الحركة والحديث معاً ، جمدت كتمثال وكانت تمسك في أصابعها بفستان ظل معلقاً لثوان وهي تحملق في أمها وقد أصابها الاضطراب :

« ليه قلت كده يا ماما؟! » .

نهضت السيدة إقبال وكأنها تنهي الأمر برمته ، لكنها خطت نحو الداخل وهي تقول :

« جيبتي الفلوس اللي اشتريت بيها الهدوم دي منين يا سامية؟! » .

« من نبيل! » .

هكذا قالت في عفوية ودون تفكير وكأنها تدافع عن نفسها أمام تصرف أمها الذي لم يكن يعني سوى اتهام غامض بشيء أكثر غموضاً . . . فتوقفت السيدة إقبال . وكانت قد وصلت إلى باب غرفتها ، ثم استدارت نحو ابنتها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة بدت لسامية غريبة ، ابتسامة كانت تجمع مع السخرية شكاً « صارخاً » كان يطل من عينيها . . . سألتها :

« وانت من إمتى بتاخدي من نبيل فلوس؟! ». .

كان السؤال صارخاً وكان قاطعاً كما كان قاتلاً . . . ازداد اضطراب سامية فهربت من عيني أمها قائلة :

« يوم ما اتغدينا سوا ، إداني خمسميت دولار! » .

ظلت الأم صامتة فلم يكن فيما قالته سامية جواب على سؤالها ، لذلك عادت إلى الحديث مفسرة ما حدث :

« أصله قال لي إنه لما جوابي وصل له وعرف ان حضرتك في المستشفى ، كان لازم يسافر على طول ولا لحقش يشتري لي هدية . . . اداني الفلوس وقال لي اشتري بها هدوم! » .

« وهو المرة اللي فاتت كان جاب لك هدايا يا سامية؟! » .

« المرة اللي فاتت مكانش لسة كون نفسه . . . إنما المرة دي. . . . . » .

توقفت سامية أمام نظرات أمها متفحصة ، كان واضحاً أن السيدة إقبال حسين لا تصدق كلمة مما كانت تقوله ابنتها ، كما كان واضحاً أنها تتعذب من أجلها ، صاحت سامية متخبطة :

« إنتي مش شايفة الشبكة اللي جايبها لي يا ماما غالية إزاي؟! » .

« وغيرتي الدولارات فين؟! » .

« ما غيرتهمش . . . أنا اشتريت الهدوم من الفلوس اللي كنت باشيلها علشان العربية! » .

« إنتي بتشيلي فلوس علشان العربية؟! » .

« إنتي مش عارفة إني أخذت مكافأة ميت جنيه! » .

« وهي الهدوم دي بميت جنيه بس؟! » .

« وفيه ماهية تلات شهور ما صرفتش منها حاجة من يوم ما جيت من إيطاليا! » .

كان في قولها هذا تَزَيُّدٌ لا شك فيه ، كانت تعلم يقيناً أنها أنفقت مرتبها كله في الشهور التي انقضت . . . لكنها فوجئت بأمها تقول وكأنها تعفيها من الحرج :

« على العموم مبروك عليك! » .

« يا ماما . . . بقى ده معقول؟! » .

كانت مختنقة الصوت تماماً ، وكانت أيضاً على وشك البكاء ، ابتسمت أمها قائلة :

« أنا بس حبيت اتطمن عليك! » .

« وهو أنا مش من حقي اني آخذ فلوس من جوزي؟! » .

« جوزك؟! » .

« يا ماما . . . من فضلك . . . ما تبقيش انت والأيام علي!! » .

كان دمعها الآن ينحدر فوق وجنتيها ، كانت تبدو مسكينة بلا حول ولا طول ، ضعيفة كطفل تاه عن أهله . . . عادت السيدة إقبال تخطو نحوها والحنان يسيل من عينيها مدراراً ، همّت بالنطق عندما قالت سامية .

« وهو أنا حتى مش من حقي ألبس؟! » .

« أنا مقلتش كده » .

« مش من حقي أعيش؟! » .

« سامية! » .

صرخت ملتاعة :

« مش من حقي أتجنن ولو مرة في عمري؟! » .

قالت هذا وهي تترك نفسها لصدر أمها التي راحت تضمها في حنان ، انخرطت سامية في البكاء ، كانت تشعر أنها ليست متعبة فقط ، ولا منهكة فقط ، أحست أن قواها تخور وتتبدد ، فراحت تقول في الصدر الحاني :

« قلت لك ما تخافيش علي يا ماما . . . قلت لك ما تخافيش علي! » .

وجاءها الرد مبللاً بالدمع السخين :

« مش قادرة . . . مش قادرة ما أخافش عليك ، غصب عني!! » .

* * * *

كان عادل مكي خلال الأسابيع التي انقضت منذ آخر لقاء له مع سامية فهمي ، قد اطمأن تماماً إلى أنها ستستطيع اجتياز لقائها مع أدريان تومسون . . . كان قد توصل منذ ما يقرب من شهر أو يزيد قليلاً ، إلى الاسم الحقيقي لضابط المخابرات الإسرائيلي هذا . . . وإذا كان قد اكتشف أبا سليم في وقت مبكر ، فإن أدريان تومسون احتاج منه إلى بعض الوقت كي يتأكد من هويته وشخصيته وبعض ما قام به من عمليات . . . كانت الأوصاف التي تلقاها عنه ، وتلك الصورة ، التي لم تكن واضحة تماماً والتي التقطت لأدريان وهو يغادر مقهى بالبو ، تنبىء بأنه أمام وجه جديد دفعت به الموساد إلى الحقل الإيطالي حديثاً . . . ولقد اقتضى الأمر منه بذل مجهودات مضنية شملت بعض عواصم أوروبا غير روما التي كانت في تلك الأيام مركزاً نشطاً للمخابرات الإسرائيلية . . . حتى تلقى ذات يوم رسالة عاجلة من صديق له كان يحضر للدكتوراه في جامعة لندن ، عرف منها أن اسمه الحقيقي ليس أدريان تومسون ـ ولقد رفض عادل بإصرار أن يبوح لي بالاسم الحقيقي لهذا الرجل ، وساق أسباباً لم تبد لي مقنعة ! . . ـ وأنه يهودي الديانة ويحمل الجنسية البريطانية ويعمل في إحدى الصحف اليومية الرخيصة التي تخصصت في نشر الفضائح . . . وفي ذلك اليوم ، نشط عدد لا بأس به من الرجال والنساء ـ لم يكونوا في الأغلب الأعم من المصريين ـ في جمع المعلومات عن مستر تومسون هذا . . . معلومات كان عادل مكي في أشد الحاجة إليها كي يُحصّن سامية من سمومه قبل أن تطير إليه وتلتقي به في زيارتها إلى روما التي كانت متوقعة بين يوم وآخر . . . غير أن أهم ما جاء في تلك المعلومات التي وصلت في الوقت المناسب تماماً . . . أن المستر تومسون يستعد بالفعل ، مع مجموعة من الصحفيين البريطانيين ، لإنشاء وكالة أنباء جديدة كان لها مكاتب في عدد من العواصم الأوروبية !

ولقد بدا الأمر لعادل وقد قاربت الصورة على الاكتمال ، أن هناك مخططاً شيطانياً في طريقه إلى التنفيذ . . . وانطلق رجاله إلى تلك العواصم التي افتتحت فيها تلك المكاتب أو كانت على وشك أن تفتح . . . وكانت الظاهرة المضحكة في الأمر ، أنها كانت جميعها من تلك العواصم التي يتجمع فيها العرب أو تعودوا التردد عليها . . . وكان المشرفون « الحقيقيون » على تلك المكاتب ، كلهم ، من الإسرائيليين !!!.

. . . .

. . . .

الآن قد تبدت له الصورة جلية واضحة أشد ما يكون الوضوح والجلاء ، فلقد أنفق الإسرائيليون مبالغ طائلة لإنشاء الشبكة الجديدة . . . وإذا كان اندفاعهم في إنشاء تلك المكاتب ، خاصة مع وجود صحفيين ليسوا يهوداً ، بل ان بعضهم في ألمانيا مثلاً ـ عرف بعدائه لليهود ، كان لإيجاد سواتر تخفي أغراضهم الحقيقة ، فلقد بدا لعادل أن هذا المخطط في حاجة إلى ضربة قوية كي تحطمه في مهده . . . وكان موقناً أن الضربة إذا ما جاءت من روما أولاً ، فإن المشروع كله ـ دون شك ـ سوف يكون مصيره الفشل الذريع !

وهو . . . هو لم يكن في حاجة لأكثر من ذلك !!

* * * *

« أخذت الفيزة؟! » .

« بسهولة! » .

« وتأشيرة الخروج؟! » .

« اترازلوا عليّ شوية في الجوازات ، لكن في الآخر ادوها لي! » .

« ونويت إمتى إن شاء الله؟! » .

« زي ما طلبوا ، يوم ٢ مارس! » .

« بعتي تلغراف بميعاد وصولك؟! » .

« من يومين! » .

« مصر للطيران ليها رحلة لروما في اليوم ده! » .
« أكيد! » .
ضحك عادل مكي وهو يسأل :
« وأكيد ليه؟! » .
« لأنهم لما يقولوا لي يوم ٢ مارس ، يبقى لازم يكونوا متأكـدين إن مصر للطيران ليها رحلة في اليوم ده! » .
ابتسم عادل راضياً تماماً . . . وصل معنى ابتسامتـه إلى ساميـة التي قالت متذمرة :
« أنا عاوزة أخلص من الحكاية البايخة دي بقى! » .
« كله في إيدك! » .
زفرت وهي تستعد للرحيل قائلة :
« ربنا يستر! » .
« لسة خايفة؟! » .
« أكتر من الأول! » .
« عظيم » .
« آهو ده اللي انتوا فالحين فيه!! » .
قالتها مداعبة فانفجر عادل مكي ضاحكـاً . . . جاءت ضحكتـه من القلب حقاً ، كان فخوراً بها ، وكان يرتجف رعباً عليها !!! .
مد إليها كلتا يديه مصافحاً ، ضم يدها بين راحتيه وهو يقول :
« أنا مش عاوز أأكد لك اننا حنكون جنبك في كل خطوة! » .
« أنا متأكدة من ده ، بس. . . . . . » .
« ما لك يا سامية؟ » .
« أنا بعت التليغراف على روما ، يعني لأدريان تومسون! » .
« ما هو انت كان لازم تعملي كده! » .
« تفتكر نبيل حايستناني في المطار؟! » .

« مية في المية! » .

نكست رأسها وقد اجتاحها ألم طاغ ، هم عادل بأن يخفف عنها لكنه تراجع ، كانت الآن في حاجة إلى شيء واحد ، إلى الحقيقة سافرة طاغية مهما كانت بشاعتها شد بيديه على يديها هامساً :

« في رعاية الله! » .

وهكذا غادرته سامية دون أن تجرؤ على النظر إليه ، كانت تشعر بالخجل مريراً ، لأنها طويلاً ، راحت تأمل في ألا تكون لنبيل سالم يد في الأمر !

* * * *

وجدت نبيل سالم في انتظارها في المطار فلم تتصنع الدهشة ـ هكذا أوصاها عادل مكي ـ بل قالت وهو يضمها إليه :

« أنا كنت متأكدة ان أدريان تومسون حيقول لك! » .

« وإيه اللي يخليكي متأكدة من كدة؟! » .

« الدبلة اللي في إيدك يا أستاذ! » .

« بس الدبلة ملهاش دعوة بالشغل! » .

« على العموم أنا مش حافوتها له! » .

« إنتِ كنت عاوزة تيجي روما من غير ما تقولي لي! » .

« أنا كنت عاوزة أعمل لك مفاجأة ضيعها هو علي! » .

لزم نبيل الصمت فلزمت الصمت هي الأخرى . . . أحست ـ دون أن تنظر إليه أو تلتفت نحوه ـ بوقع نظراته التي كان يختطفها بين الحين والحين منها . . . أخيراً جاءها صوته :

« لكن إيه الشياكة دي كلها؟! » .

« من بعض ما عند السيد أدريان! » .

« أوعي تكوني صرفتي الخمسميت دولار كلهم؟! » .

التفتت إليه هاتفة :

« خمسميت دولار إيه يا بني . . . دانا صارفة قدهم كمان! » .
« يظهر إنك استغنيتي عن فكرة العربية! » .
« مين اللي قال؟! » .
قالتها في حدة فقال نبيل :
« أنتِ مش بتقولي إنك صرفتِ فوق الخمسميت دولار خمسمية زيهم؟! » .
« وإيه يعني؟ » .
« وحتجيبي فلوس العربية منين؟! » .
« من شغلي . . . من عرق جبيني! » .
« انتي مش ليكي مرتب شهري؟! » .
« ملاليم! » .
« بس ده اتفاق وانتِ وافقت عليه! » .
« وهو الاتفاق يمنع العلاوات؟! » .
« ما يمنعش إنما . . . . » .
« ولا يمنع المكافآت! » .
« ما هو الراجل بعت لك بدل مواصلات! » .
« طب مانا باعتة له أخبار ما تحلمش بيها أتخن وكالة في العالم! » .
همّ بالحديث فأردفت في تحد :
« تحب تتفرج؟! » .
« أيوه يا سامية إنما . . . . » .
« انت بتفهم في الصحافة؟! » .
« مش زيك طبعاً! » .
« تبقى تسكت وتسيبيني أتصرّف ! » .
« براحتك يا سامية ، بس أنا عاوز أنبهك لشوية حاجات . . . . » .

عادت تقاطعه :

« مش انت اللي قلت لي إنهم ولاد كلب وإني لازم آخد حقي ولا أسيبهمش ياكلوني؟! » .

« أيوه قلت لك كده ، بس ده كان قبل الاتفاق! » .

« ما هو لازم يفهم كمان إني مش عبيطة ، وإني عارفة قيمة شغلي كويس! » .

« في دي معاكِ حق! » .

قالها نبيل في نبرة يائسة ، ساد الصمت لثوان قالت بعدها سامية في صوت شديد الوضوح :

« أصل أنا بصراحة استنيت انه يخلي عنده دم بعد ما بعت معاك الأخبار ، ويقول كلمة ، أي كلمة . . . يقول كويس وحش . . . لكن ، ولا هو هنا ، كأن فيه بني آدم حفيت رجليه كام شهر علشان يجمع له شوية أخبار مكانش يحلم بها » .

« الراجل مكانش عنده. . . » .

« كان عنده والا مكانش عنده ، وإذا كان عاجبهم! » .

ضحك نبيل ضحكة فاترة وهو يقول :

« انتِ جاية روما علشان تتخانقي؟! » .

كانت السيارة تدور الآن في أحد ميادين روما الرئيسية ، وكانت الأضواء في كل مكان تحيل الليل إلى دنيا افتقدتها كثيراً منذ اندلعت تلك الحرب اللعينة في عام ١٩٦٧ . . . راحت تمتص ما حولها وتتمتع بمشاهدة الناس فلم تستطع أن تمنع نفسها من المقارنة . . . زفرت زفرة حارة وهي تغمغم :

« إذا كانوا فاكرين إننا محتاجين فلوسهم يبقوا عبط! » .

سألها وقد تملكه مع الدهشة اضطراب واضح :

« هم مين اللي فاكرين؟! » .

« الجماعة الإنجليز اللي متخيلين إنهم يقدروا يستعمرونا اقتصادياً بعد ما فشلوا في استعمارنا بالعساكر! » .

هدأت نفس نبيل قليلاً فسألها مازحاً :

« انتِ لسة بتصدقي كلام الخطب ده؟! » .

في استقامة أذهلت نبيل تماماً ، صاحت فيه :

« هو لما ياخد مني شغل بعشر قروش ويديني فيه قرشين . . . ده ما يبقاش استعمار اقتصادي؟! » .

لاذ نبيل بالصمت ، تشاغل بإدارة عجلة القيادة إلى شارع جانبي فهتفت :

« إحنا رايحين فين؟! » .

« اللوكاندة! » .

« أي لوكاندة؟! » .

« اللي نزلت فيها المرة اللي فاتت! » .

« آسفة . . . » .

« إيه هو اللي آسفة . . . وأنا حجزت! » .

« ومن قال لك تحجز؟! » .

صاح نبيل وقد غلبه التوتر :

« إلا مين قال لي . . . أمال مين اللي كان يحجز لك؟! » .

« أدريان تومسون! » .

جاء ردها مثل ضربة قاضية فلم يفه نبيل بحرف . . . خفض من سرعة السيارة وكان عقله يعمل بسرعة بحثاً عن مخرج ، حتى إذا ما قال إن أدريان طلب منه ذلك لأنه كان مشغولاً ، جاءه ردها حاسماً :

« يبقى كان لازم تحجز لي في لوكاندة درجة أولى . . . انت نسيت إني حانزل على حساب الوكالة؟! » .

قال نبيل سالم فيما بعد أنه في تلك الليلة كاد يفقد صوابه حقاً . . . بدت له

سامية وكأنها فتحت عينيها فجأة على حقائق لم يتصور أنها تعرفها أو حتى تهتم بهـا . . . كان حـديثها منـطقياً ، وكـان في نفس الوقت متسقـاً مع شخصيتهـا واعتزازها بكرامتها . . . كما أنه كان متسقاً مع الأصول المرعية . . . قال إنه لم يكن يملك من الأمر شيئاً ، فلقد طلب منه أبو سليم أن يحجز في نفس الفندق غرفة لسامية ففعل ما أمر به . . . ولذلك ، فلقد راح يرجو سامية أن تقبل النزول في هذا الفندق المتواضع ولو لليلة واحدة إلى أن يدبر الأمر ، لكنها أصرت على الرفض ، وكانت حجتها بسيطة ومنطقية في نفس الوقت :

« ما هو أنا لو عملت تنازل المرة دي يا نبيل ، التنازل حايبقى قاعدة! » .

« دي ليلة يا سامية! » .

« إسمع . . . أنا مش عاوزة عربية ، أنا معايا فلوس تكفيني لحد ما أرجع مصر وإن شاء الله عني ما اشتريت عربية ولا ركبتها . . . أنا كرامتي فوق كـل حاجة! » .

ولم يكن هنـاك بد من البحث عن غـرفـة في أحـد الفنـادق الكبـرى ذات السمعة العالمية . . . ولقد اقترحت عليه سامية فندقاً كان له فرع في مصر . . . ولقد أقسمت سامية فيما بعـد أنها كـانت تخطو إلى بهـو هذا الفنـدق الرئيسي مترددة وجلة ، فلقد كانت فخامته فوق قدرتها على التصور أنها من الممكن أن تعيش فيه لبضعة أيام . . . لكنها تذكرت مناقشاتها مع عادل مكي ، وتحذيـره لها أن يشعر نبيل ، من قريب أو من بعيـد أنها تـريد أن تنـزل في هذا الفنـدق بالتحديد . . . لذلك ، فلقد توقفت في منتصف الطريق ملتفتة نحو نبيـل وهي مسألة :

« أنت جبتني هنا ليه؟! » .

« إنتي مش عاوزة لوكاندة درجة أولى؟! » .

وهكذا وقفت أمام مـوظف وراحت تملأ بـطاقة الفنـدق بثبات من تعـودت النزول في مثل تلك الفنادق . . . كانت قد صففت شعرها قبل سفرها بيوم عند « كوافير » . . . تركت له شعرها يفعل به ما يشاء ، وكان لها طلب واحـد . . .

ألا تبدو أقل أناقة من فتيات روما الساحرات !

عندما كانت تختطف بين الحين والحين نـظرة من نبيل سـالم ، لم يخف عنها ما كان يعانيه من اضطراب . . . فأحست ـ بشكل خاص ـ أنها تنتقم منـه ومما فعله معها في زيـارتها السـابقة ، ومما أراد ـ ويـريـد الآن ـ أن يجـرهـا إليه . . . حاولت استجـلاب حبها وصفـاتها دون جـدوى ، كان نبيـل في تلك اللحظات يبدو في عينيها شيئاً آخر وليس شخصاً آخر . . . صحبها حتى مصعد الفنـدق ووقفا في انتـظار وصولـه . . . كانت حقيبـة ملابسهـا قـد سبقتهـا إلى الغرفة ، نظرت إليه طويلاً ، وكان هو الآخـر ينظر إليهـا في رجاء من يـريد أن يعرف أين مكانه من الدنيا . . . فجأة ، قالت في حنان لا تدري من أين نبع :

« عارف يا نبيل واحشني قد إيه؟! » .

أقسمت سامية فيما بعد أنها رأت الدموع في عينيه ، أقسمت أنه كان صادقاً كل الصدق وهو يقول :

« ربنا يعلم انت كمان واحشاني قد إيه يا سامية! » .

عاجلته متسائلة :

« حاتعشيني فين الليلة؟! » .

بدا وكأنه انتفض انتفاضاً وهو يهتف :

« الليلة؟! » .

وصـل المصعد . . . فتـح البـاب . . . خـطت سامية إلى الـداخـل وهي تقول :

« إديني ساعة ونص ، بعدها حاكون جاهزة لك! » .

قالت هذا وهي ترسل له قبلة في الهواء . . . هم نبيل بأن يقول شيئاً لكن باب المصعد كان قد أغلق !

* * * *

أسرع نبيل سالم إلى حيث كان أبـو سليم يجلس في انتظاره ، أسـرع في

لهفة من يريد العودة قبل حلول الموعد الذي حددته سامية بساعة ونصف . . . قص على الرجل ما حدث فبدت عليه دهشة امتزجت بفرحة خفيفة برقت معها عيناه . . . ما أن انتهى نبيل من روايته حتى طلب منه أبو سليم أن يعيدها على أسماعه مرة أخرى ، دهش نبيل لطلب الرجل لكن جلسته وانتظاره واستعداده للإنصات دفعته جميعاً إلى إعادة ما حدث على مسامعه دون سؤال ، راح يقص عليه كل شيء منذ أن وقعت عيناه على سامية ووقعت عيناها عليه في المطار ، وبتفصيل دقيق ، حتى تلك اللحظة التي أغلق فيها باب المصعد بينهما . . . ما أن انتهى نبيل من روايته حتى هب ناهضاً وهو يقول :

« **أنا قلت لكم من الأول . . . هي دي سامية فهمي ، هي دي سامية فهمي!** » .

في هدوء قال أبو سليم :

« **وإيه اللي يزعّل في اللي حصل ده؟!** » .

« **انك أحرجتني قدامها يابو سليم ، ما بقتش عارف اتصرف إزاي بعد ما رفضت تدخل اللوكاندة الأولانية!** » .

هز أبو سليم كتفيه في لامبالاة وهو يقول :

« **بصراحة ده حقها . . . وأدريان لازم يعرف كده كويس!** » .

كان الجواب غريباً كما كان مفاجئاً لنبيل الذي راح يحملق في أبي سليم الذي نهض استعداداً للإنصراف قائلاً :

« **اعزمها الليلة في أي حتة هي عاوزاها ، لاحظ انها خطيبتك ، وانكو نحبوا بعض قوي ، وانكم بعد ما لبستوا الدبل ما خرجتوش مع بعض غير مرة وحدة!** » .

« وبعدين؟! » .

« يبقى اديني تليفون من أي حتة تروحوها علشان تقول لي إنتوا فين؟! » .

* * * *

دق باب الغرفة دقات خفيفة . . . كانت سامية قد عاينت المكـان وجاست خلاله وتركت قلبها يخفق في انبهار . . . فتحت حقيبة ملابسها وراحت تفـرغ محتوياتها عندما جاءها ذلك الدق على الباب فسارعت إلى فتحه .

كان ثمة صبي من صبيان الفندق بملابسه الملونة الأنيقة يقفـ وفي يده طبق به رسالة :

« سنيوريتنا فهمي؟! » .

« أنا هي! » .

« رسالة لك! » .

« أشكرك! » .

قالتها وهي تتناول الرسالة المطوية . . . كانت ورقة عادية من ورق الرسائل في الفندق . . . ولم تكن موضوعة في ظرف . . . تيقنت أنها مـرسلة من نبيل الذي ظنت أنه قد يعتذر عن الموعد ، همّ الصبي بالانصراف فاستوقفته :

« إنتظر من فضلك! » .

كانت تريد أن تنفحه بقشيشاً ، لكنه قال في أدب :

« لقد دفع لي السيد . . . أشكرك! » .

أغلقت الباب وفتحت الرسالة . . . ما أن جـرت عيناها على السطور حتى شهقت بالرغم منهـا ، لكنها سـرعان مـا ابتسمت ، ثم ضحكت ، ثم غمرتهـا سعادة هائلة . . . عادت تقرأ الرسالة مرة أخرى قبل أن تستعـد لإعدامهـا . . . طالعتها الحروف بالعربية :

« إيه العز اللي انتي فيه ده؟! » .

وكان التوقيع :

« عادل مكي!! » .

* * * *

الفصل السادس والثلاثون

إنها تعرف ماذا تريد !!

قال لي عادل مكي إنه لم يكن يرسل مثل تلك الرسالة إلى سامية فهمي ، لو أنها نزلت في الفندق الذي نزلت به في زيارتها السابقة لروما ـ وكان هذا احتمالاً قائماً بالطبع ـ ولكن بصرف النظر عن كنه هذا الصبي الإيطالي وكيف حمل الرسالة إليها . . . فلقد كان موقناً أشد ما يكون اليقين من أن أحداً لن تقع عينه على الرسالة سوى سامية فهمي . . . ذلك أنها لم تُسلم إلى الصبي إلا أمام باب غرفتها . وعندما دق عليها الباب ، كان صاحب الرسالة قد ابتعد في الممر بشكل طبيعي تماماً وكأنه أحد نزلاء الممر . . . وكان ـ فوق هذا ـ قد استمع إلى الحوار الذي دار بين سامية والصبي ، وشاهده وهو ينصرف !

قال لي إن مثل تلك الرسالة ، كانت كفيلة ببث الطمأنينة في نفس سامية تماماً ، كانت كفيلة بأن تشعرها ، بأن رجال وطنها يقفون بالفعل إلى جوارها منذ لحظة نزولها من الطائرة ، وإلى أي مكان تذهب إليه ! ولقد كان عادل مكي على حق في كل ما قاله أو ذهب إليه !

ذلك أن سامية ما أن تسلمت تلك الرسالة وقرأتها ، حتى أغلقت الباب بالرتاج ، ووقفت في منتصف الغرفة تغمرها فرحة طاغية ، فهي ـ على حد تعبيرها ـ لم تكن في تلك اللحظات التي تستعد فيها للقاء الإسرائيليين ، في حاجة إلى شيء في الدنيا سوى هذا . . . كانت قد تصرفت مع نبيل كما ينبغي

لها أن تتصرف . وكانت تشعر بـأنها أجادت في تصرفهـا ، لكن صدرهـا كان ممتلئاً بخوف عربيد تبدد تماماً عندما قـرأت تلك الكلمات المرحة التي أشعرتها بأن الرجال في وطنها يستطيعون اجتيـاز المستحيل . . . أمـدتها الـرسالـة بقوة غريبة ، وكانت الآن ـ وقد أعادت قراءتها للمرة الثالثة ـ تعـرف ما الـذي يجب عليها أن تفعله بالضبط . . . اتجهت إلى الحمام ، مزقت الرسالة قطعاً صغيرة وألقت بها إلى حيث جرفتها المياه بعيداً حيث لا يمكن أن تدركها يد . . .

عندما عادت إلى الغرفة كانت خطواتها أكثر ثقة وأكثر ثباتاً . . . وكان عقلها يعمل في هدوء من كان واثقاً من النصر ثقة بلا حدود !!

أكملت زينتها استعداداً للعشـاء ، عندمـا دق جرس التليفـون . . . رفعت السماعة وقد كانت تظن أنه نبيل ، غير أن صوت أدريان جاءها مرحاً :

« **لولا صديقنا المشترك لما استطعت معرفة مكانك!** » .

قالت ممازحة :

« **كنت أعلم أن كليكما واش لا يستطيع إخفاء سر عن الآخر!** » .

« **كلانا؟!** » .

قالها في دهشة لا مواراة فيها ، فقالت :

« **ألم تش بي إليه وتخبره بموعد وصولي إلى روما وقد كنت أريد مفاجأته بالزيارة؟!** » .

« **آسف يا سامية ، لقد اضطررت لهذا عندما فاجأني عمل كان لا بـد من إنجازه الليلة بأي ثمن!** » .

« **لا عليك ، فلقد رد لك الصنيع ووشى بي إليك وأخبرك عن مكاني!** » .

« **إنها لم تكن وشاية بقدر ما كانت جميلاً!** » .

ضحكت وهي تقول :

« **أعلم أن الإنجليز قوم مؤدبـون رقيقو الـطباع ، لكنني أعـرف أيضاً أنهم مستعمرون بالطبع!** » .

ابتلع التورية مغيراً مجرى الحديث :

« قبل كل شيء ، إلا تطمئنيني على صحة والدتك؟! » .

« أشكر لك السؤال ، ولولا أنها بصحة جيدة ، لما استطعت الحضور! » .

« أخبرني نبيل أنك قضيت أياماً عصيبة! » .

« نعم كانت عصيبة . . . لكنها مرت على كل الأحوال! » .

« متى أستطيع رؤيتك ».

« إنك الرئيس يا مستر تومسون وأنت الذي تحدد ، فلقد جئت إلى روما هذه المرة بدعوة منك ، وليس علي إلا أن ألبّي طلبك بعد عشاء الليلة الذي انتظرته طويلًا! » .

« هل نتناول الغداء معاً في الغد؟! » .

« سأكون في انتظارك في بهو الفندق في تمام الثانية عشرة ظهراً! » .

« ولِمَ لا نلتقي في نفس المكان الذي تعودنا اللقاء فيه! » .

« هل تحاول إقناعي بأن الإنجليز قوم يبالون بالذكريات؟! » .

ضحك أدريان وهو يقول :

« على كل ، سوف نرى فيما هو قادم من أيام :

« إلى اللقاء إذن في الغد! » .

قالت هذا وهي تعيد السماعة دون انتظار للرد ، فلقد كان قلبها يدق في عنف أوجع ضلوعها حتى أحست في لحظة وكأنه سوف يقفز من حلقها . . . ظلت ساكنة حتى استردت أنفاسها ، فعادت من جديد إلى المرآة ! .

* * * *

لم تخبر سامية فهمي نبيل بأمر تلك المكالمة التليفونية التي جرت بينها وبين أدريان تومسون . . . هكذا طلب منها عادل مكي ، ألاّ تبادر بأن تخبر نبيل بأي شيء قبل أن يخبرها هو أو يسألها . . . وبالرغم من أن الأمر لم يكن يحتاج

إلى إخفاء ، وبالرغم من أن أدريان أخبرها أنه عرف بمكـانها من نبيـل ، فلقد حرصت على تنفيذ تعليمات عادل ووصاياه بدقة !

عندما ركبت السيارة إلى جوار نبيل سألهـا أين تحب أن تتناول عشـاءها ، فقالت :

« أنا عاوزة أرقص! » .

« قوي! » .

كان نبيل قد بدّل ملابسه هو الآخر وارتدى حلة إيطالية غامقة اللون فاخرة القماش والتفصيل . . . كان قد تعوّد في الأسابيـع الأخيرة ، وبعـد عودتـه من مصر بالتحديد ، أن يطلب منه أبو سليم أشياء كانت تبدو له غريبة ، ولما كـان موقناً من أنه لن يتلقى جواباً إذا ما سأل ، فلقد تعوّد أن ينفذ ما يطلب منه واثقاً من أن يوماً سوف يأتي سيعـرف فيه الجـواب دون حاجـة إلى سؤال . . . ولقد طلب منه أبو سليم ذات ليلة قبـل بضعة أسـابيع ، أن يشتـري بذلـة ، « عليها القيمة » تصلح للسهر في المحلات الراقية ، فابتاع تلك البذلة دون أن يرتديها حتى كانت تلك الليلة . . . وكانت سامية ترتدي ملابس تبدو ذروة في الأناقة ، كانت ترتدي فستاناً بدا وكأنه صنـع من أجل قـوامها دون غيـرها من النسـاء ، وتضع على كتفيها شالاً من الصوف المصري السميك ، ذي ألوان زاهية ونقوش مصرية كانت تلفت الأنظار من حولها بالفعل . . . ما أن وقع بصرها عليه حتى صاحت مداعبة :

« إيه الشياكة دي يا سنيور؟! » .

في نبرة نمّت عما كان يعانيه من اضطراب :

« علشان نبقى قد المقام بس يا سامية هانم! » .

أضاء الجرسون شمعتين تألقتا في الضوء الخافت لذلك المحل الذي قادها إليه . . . سرت في الجو نغمات الفرقة الموسيقية وكانت تعزف لحناً هادئاً . . . مالت سامية نحو نبيل هامسة :

« انت مش ناوي تطلبني للرقص؟! » .

« خايف! » .
« من إيه؟! » .
« من لسانك! » .
« حاديله إجازة الليلة! » .

وهكذا احتواها بين ذراعيه وراح يدور بها في المكان وكأنه يخطو فوق السحاب . . . بدت له سامية في تلك الليلة جميلة إلى حد يجعلها بعيدة المنال ، همس في أذنها بكلمات حب تلقتها في ابتسامة مرحبة . . . أدرك نبيل أنه أخطأ عندما أطاع أبو سليم فيما يختص بسامية ، أدرك أنها نزلت معه الآن إلى نفس الحلبة ، وأنها بالقطع ، وكالعادة ، سوف تتفوق عليه . . . أحس بالغيرة تنهش صدره ، كما أحس بحبه لسامية يستيقظ بعد سبات عميق ، يستيقظ عملاقاً هائلاً راح يستبد به استبداداً لا رحمة فيه . . . تناولا العشاء وكان الحديث.بينهما في فتور عجز عن بث الحرارة فيه . . . عندما أوصلها إلى الفندق كان هو الذي سألها متى سوف يراها في الغد ، فقالت :

« حابقى أديك تليفون في المكتب! » .

قال محتجاً :

« ما انتي عارفة إني ما بقعدش في المكتب على طول يا سامية! » .
« خلاص ، حابقى أسيب لك خبر مع السكرتيرة! » .
« إنت مش ملاحظة حاجة؟! » .
« حاجة زي إيه؟! » .
« إنك ما كلمتنيش في الشغل خالص؟! » .
« مش انت اللي طلبت مني ده يا نبيل؟! » .

ابتسم وقد تذكر حديثه معها في زيارتها السابقة لروما ، غمغم متسائلاً في مرح مصطنع :

« أدريان كلمك؟! » .
« انت مش اديته خبر أنا فين؟! » .

« كان لازم أعمل كده! » .

« ليه؟! » .

قالتها في نبرة عتاب لم تخف عليه فصاح :

« جرى إيه يا سامية ، الراجل طلب مني إني أستناكي بداله ، وكان لازم أقول له إنك وصلت! » .

« على العموم أنا حاقابله بكرة ، وأول ما خلص شغل حابقى اتصل بيك! » .

همت بالسير نحو المصعد فاستوقفها متسائلاً :

« طب إيه اللي مزعلك بس؟! » .

التفتت إليه الآن بكليتها ، وضعت عينيها في عينيه ، قالت والألم يقطر من كلماتها :

« تعرف يا نبيل أنا باحبك قد إيه؟! » .

« أنا عمري ما شكيت في ده!! » .

« وتعرف قد إيه أنا استنيت إني أقضي معاك ليلة زي دي؟! » .

« طب إيه اللي حصل بس؟! » .

« إفرض إن أدريان كان طلب مني أشوفه الليلة! » .

« تعتذري! » .

في نبرة ساخرة راحت تقلده وهو يلقي عليها وصاياه في زيارتها السابقة :

« انت نسيت أن الشغل في أوروبا غيره في مصر ، نسيت إنهم هنا ما بيرحموش وإن الواحد علشان ينجح لازم يشتغل في كل وقت وأي وقت . . . مش ده كلامك يا نبيل؟! » .

هَمّ بالحديث لكنها استطردت :

« كان نفسي تبقى لنا حاجة لوحدنا ، حتى ولو كانت ميعاد على العشا وسهرة! » .

بدا مبدداً تماماً ، ضائعاً ، مبعثراً . . . حاول الحديث فلم يستطع ، وكان لا بـد أن تعفيه من الحـرج ، وتعفي نفسها من الإحسـاس بـالألم والمـرارة ، فخطت نحو المصعد هامسة :

« تصبح على خير!! » .

. . . .

. . . .

قال نبيل سالم فيما بعد إن تلك كانت ليلة من أسوأ ليالي عمره ، وإنه عندما عاد إلى البيت ووجد أبا سليم هناك ، كان في حالة من التوتر بلغت ذروتها عندما راح الرجل يمطره بالأسئلة عما قالت سامية ، وكيف تصرفت ، وكيف تحدثت ، وماذا . . . و . . . ووجد نفسه يصيح فيه :

« **جرى إيه يا أبو سليم ، هو تحقيق؟!** » .

لم يرد أبو سليم . . . راح يرمقه بتلك النظرة الثاقبة التي تلقي بالرعب إلى قلبه ، مضت لحظات صمت قبل أن يسأله الرجل بصوت هادىء :

« **ما لك يا نبيل؟!** » .

هتف نبيل منفعلاً :

« **عاوز تعرف كل حاجـة . . . عاوز تعـرف سامـيـة قالت إيـه وعملت إيه وإزاي وإمتى وليه ؟ . . . أنا حاقول لـك جملة واحدة فيهـا الشفا . . . سـامية عارفة هي بتعمل إيه بالضبط !!** » .

ولم يكن أبو سليم ، في حاجة إلى أكثر من هذا !!

* * * *

قالت سامية فهمي أنها عندما دخلت إلى مقهى بـالبو في اليـوم التالي في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً ، قرأت على ملامح أدريان تومسون كل ما قالته وفعلته مع نبيل بالأمس . . . وإذا كانت وهي تتصرف وتتحدث مع نبيل ، كانت موزعة الخواطر مشتتة العواطف بالرغم منها ، إلى الحد الذي جعلها تدهش من

نفسها عندما أنبأته بحبها له في بهو الفندق ، فلقد كانت تعني بالفعل كل كلمة مما قالت . . . كانت تعني بالفعل أنها تحب نبيل سالم ، وكانت مدركة أيضاً أنه بالرغم من أن حبها هذا بدا لها كالمرض أو الإدمان الذي لا بد من الشفاء منه ، فلقد كان حقيقة لا بد من الاعتراف بها . . . لكنها أمام أدريان تومسون ، وجدت نفسها تخوض معركة مع عدو متربص شديد الخبث والدهاء معاً . . . كانت مسألة « الوطن » وحمايته مستقرة في نفسها وليست في حاجة إلى تغذية أو تنبيه ، لكن الذي استفزها حقاً ، أنها أحست ـ وبشكل خاص ـ أن هذا الشاب الإنجليزي المظهر الصهيوني العقيدة والطبع ، كان يسعى إلى استغفالها !!

قالت إنه كان ممثلاً رديئاً بكل المعاني ، فلقد تظاهر بدهشة لم تكن حقيقية عندما رآها تخطر بين الموائد متجهة إليه حيث كان ينتظرها على نفس المائدة المنعزلة التي جلسا إليها في المرة السابقة ، وبعكس المرة السابقة ، ما أن رآها حتى هب لاستقبالها في ترحاب وحرارة أحست أنها مصطنعة وعندما مدت إليه يدها كي تصافحه ، فوجئت به يأخذ يدها بين راحتيه ويرفعها إلى شفتيه كي يطبع عليها قبلة خفيفة !

« ماذا لو أبديت إعجابي بجمالك؟! » .

« سأعاتبك ، أو أعتبرك منافقاً!! » .

ارتبك أدريان تومسون للرد الذي لم يتوقعه ، هتف :

« ولكن لماذا؟! » .

« لأنك لم تفعل ذلك في المرة الماضية . . . وعلى هذا فلسوف أعتبر إطراءك موجهاً إلى الملابس التي اشتريتها بما أرسلته لي من نقود ، وليس لشخصي! » .

بدا على أدريان أنه لم يفهم مغزى ما قالت ، سددت إليه عينيها باسمة ، كانت تنفذ الخطة التي وضعها لها عادل مكي في سهولة لم تتصورها . . . وإذا كان الشق الأول من الخطة قد نجح مع نبيل سالم ، فلا بد أنه سينجح أيضاً مع أدريان :

« لا تنسي أن لقاءنا الأول كان مخصصاً كله للعمل؟! » .

رفت حاجبيها دهشة وهي تسأله :

« وماذا عن لقاءنا هذا يا عزيزي أدريان؟! » .

ابتسم أدريان ابتسامة غامضة وهم بالرد لكنها استطردت :

« هل وصلتك رسالتي؟! » .

« بالطبع! » .

« ما رأيك فيما جمعت من أخبار؟! » .

« كان المستوى جيداً بشكل عام وإن كنت أرى أن. . . . . » .

قاطعته :

« مستر تومسون ، أنا آسفة لمقاطعتك ، لكني أرى أنه لا بد لي من وضع مجموعة من الحقائق تحت نظرك قل أن نستطرد في الحديث عن العمل! » .

« إني مصغ إليك! » .

« في البداية ، وقبل كل شيء . . . كان اتفاقنا أن ما سوف أرسله لك من أخبار خصوصاً تلك التي تتسم بأهمية خاصة بالنسبة لوطني ، سوف تستخدم فقط للتحليلات ، وهي ليست للنشر بحال من الأحوال ، إني أرسلها فقط للعلم ، وحتى تأتي تحليلات الوكالة صحيحة لا ثغرات فيها .

في حرارة حقيقة ، وكمن أدرك أنه مقبل على معركة ، قال أدريان :

« هذا ما وعدتك به ، وهذا ما أعد به الآن أيضاً! » .

« أشكرك مستر تومسون غير أني أريد أيضاً أن أنبه إلى أن أي إخلال ـ مهماً كان تافهاً ـ بهذا الاتفاق ، سوف أعتبره فسخاً لكل علاقة بيني وبينك! » .

لزم الصمت فساد بينهما توتر دفعها لأن تتلاعب بكأس العصير التي طلبها لها ، فأردفت بعد قليل :

« لا تنس أن وطني في حالة حرب، وأن مثل هذه الأمور ، تشكل خطورة ليست في حاجة إلى تنبيه! » .

« بالقطع . . . بالتأكيد! » .
ومضت سامية في هجومها . . .

« ولكن . . . أين مقر الوكالة ؟! . . . هل مقهى بالبـو هو المقـر الرسمي لها؟! » .

« يمكنك زيارة المكاتب الآن إن أردت! » .
« كنت أنتظر أن يكون لقاؤنا اليوم هناك! » .
« لقد أردت الترحيب بك لا أكثر ولا أقل! » .

« أشكرك على الدعوة ، وإن كنت أشك في أننا سوف نصل إلى اتفاق! » .

بدا أدريان تومسون وكأنه يتخبط ، هكذا تظاهـر ، وهكذا أراد لسـامية أن تفهم لكن النتيجة أنها راحت تسخر من تظاهره هذا فراحت ترمقه في لامبـالاة وهو يقول :

« سامية . . . لست أدري ما الذي يغضبك بالضبط؟! » .
« إن هناك أسباباً بالقطع! » .
« لكنها أسباب تبدو لي غامضة! » .
« فلنبدد الغموض إذن! » .
« إني منصت إليك؟! » .
« لماذا لم ترسل لي رأيك فيما أرسلت؟ » .

« ليس هذا بالسهولة التي تظنينها ، ولعلك تذكرين أننا اتفقنا على أن هناك رقابة بريدية في بلادك! » .

« كان يمكنك أن تتحدث في التليفون! » .
« إنها وسيلة تحمل نفس الأخطار! » .

« فلماذا لم تطلب من نبيل أن يفعل ذلـك كما طلبت منـه أن ينتظرني في المطار بالأمس! » .

« وحتى إذا ما تحدث نبيل أو أرسل لك خطاباً فإن هذا يعرضك إلى خطر

أن . . . . » .

كانت نظرتها المفاجئة الآن تبدو وكأنها السنة نيران تلفح وجهه فتوقف عن الحديث لثوان عاد بعدها كي يقول :

« أنا لا أتحدث عن مصر كدولة ولا كنظام حكم ، وأرجو ألا تسيئي فهمي . . . إني أتحدث عن دولة في حالة حرب! » .

هدأت نظرتها قليلاً ، ولاحت على شفتيها ابتسامة خفيفة فأردف :

« أرى أنك معتدة بنفسك إلى الحد الذي قد يربك من يتعامل معك! » .

« لست معتدة بنفسي ، ولكني معتدة بوطني وبما بذلت من جهد في جمع تلك الأخبار من مصادر لا يرقى إليها الشك! » .

« هذا موضوع على جدول أعمالنا اليوم! » .

« لن أناقش شيئاً من هذا الجدول قبل أن ننتهي من الاتفاق على كل التفاصيل! » .

حاول أن تكون دهشته الآن هائلة وهو يقول :

« كنت أظن أننا اتفقنا بالفعل على التفاصيل! » .

صمتت سامية قليلاً . أطرقت نحو المائدة وراحت تتلاعب ببعض أدواتها وكأنها مستغرقة في التفكير ، ثم عندما رفعت إليه عينيها وجدته في الانتظار متحفزاً ! .

« مستر تومسون . . . لعلك لا تعلم أني في زيارتي الماضية لإيطاليا ، كنت أمر بظروف نفسية وعصبية وضعتني في موقف ضعف فرض عليّ فرضاً!» .

« هذا ما كنت أنوي أن أعاتبك عليه!! » .

« ماذا تقصد بالضبط؟! » .

« علمت من نبيل بحادث النشل الذي وقع لك ، فلم لم تخبريني بالله عليك؟! » .

« وما دخل هذا بحديثنا؟! » .

« لم يكن النشل هو سببها الأول ولا الوحيد! » .

« لماذا لا تدخلين في الموضوع مباشرة! » .

« الأجر! » .

قالتها في وضوح من يعرف تماماً موضع قدمه ، فقال :

« وهذا أيضاً موضوع في جدول مناقشاتنا! » .

« فليكن هو البند الأول إذن! » .

« كما يحلو لك! » .

زفرت سامية الآن بصوت مسموع وكأنها أزاحت عبئاً كان يثقل كاهلها وهي تقول بابتسامة خجلى :

« لست أريدك أن تظن بي الظنون فليست النقود هي هدفي الذي أسعى إليه . . . ولكنه إحساس الإنسان بأن حقه لم يغمط ، ورغبته في تقييم عمله تقييماً عادلاً ! » .

« أنا لا أشك في هذا! » .

« حسن . . . والآن. . . . . » .

« هل أتيت معك برسالة جديدة؟! » .

« بالطبع! » .

« هل نناقش محتوياتها بعد الغداء؟! » .

« لك هذا! » .

« رفع أدريان يده ملوحاً للجرسون الذي لبى على عجل! » .

* * * *

قال لي عادل مكي إن واحداً من رجاله الذي كان ـ ولا يزال ـ يتمتع بكفاءة عالية ، كان بصحبة إيطالية حسناء بدا وكأنه يذوب فيها حباً . كما بدا لاهياً عن كل ما يدور حوله بمغازلتها . . . غير أن اندماجه هذا لم يمنعه من مراقبة ما يحدث مراقبة دقيقة ، دفعت به إلى كتابة رسالة عاجلة وصلت في اليوم التالي إلى عادل

مكي في القاهرة . . . وكانت الرسالة تنبيء عن خوف شديد من انكشاف أمر سامية فهمي ، التي كانت تبدو مندفعة في الحديث ومنطلقة بشكل يدعو إلى الشك في وقوعها في خطأ ما قد يترتب عليه ما لا تحمد عقباه .

وبالرغم من ثقة عادل مكي في سامية وفي إمكاناتها ، بدأ القلق يساوره في إلحاح . . . ذلك أن شكاً ولو بسيطاً ، ومهماً تضاءل شأنه ، لو اعترى أدريان تومسون أو أبا سليم ، كان كفيلاً بتدمير كل ما كان يبنيه طوال ما يقرب من عامين كاملين . . . وأنه لهذا فكر في أن يرسل إلى سامية رسالة يحذرها فيها ، غير أنه تراجع عن تلك الفكرة بسرعة . . .

فلقد كانت رسالة كتلك ، كفيلة بإرباك سامية في وقت كانت فيه في أشد الحاجة إلى ثقتها بنفسها وفيما وضع لها من خطط لمواجهة كل الاحتمالات التي تنتظرها في الأيام القادمة ! .

غير أنه ، على الوجه الآخر ، أبرق إلى روما بضرورة تشديد الرقابة على سامية فهمي حتى لا تغيب ولو للحظة عن عيون الرجال . . . خاصة أن المعلومات التي كانت قد تجمعت لديه عن أدريان تومسون ومجموعة الصحفيين الإنجليز الذين اشتركوا معه ، كانت قد أوصلته إلى ذلك المكتب الذي استأجرته الموساد في روما ، كي يكون ساتراً لوكالة الأنباء المزعومة !

* * * *

كانت العمارة التي دلفت إليها سامية فهمي مع أدريان تومسون متوسطة ، لم تكن من تلك العمارات الشاهقة في وسط المدينة والتي تمتلىء بمكاتب الشركات أو الوكالات . . . بل كانت واحدة من تلك العمارات ذات الطابع الإيطالي والتي بنيت في الثلاثينيات . . . ولقد وجدت كل شيء طبيعياً تماماً ، عندما وصل المصعد العتيق الذي كان لا يزال يعمل بكفاءة عالية إلى الطابق الثالث ، غادرته كي تجد نفسها أمام بضعة أبواب كان بعضها يحمل أسماء شركات ، والبعض الآخر مغلق وكأنه خصص للسكن فقط . . . تذكرت عمارات القاهرة العتيقة باتساعها الرحب وكثرة عدد الشقق في الطابق

الواحد . . . اتجه أدريان نحو باب مفتوح فتبعته لتجد نفسها - بالفعل - فيما يشبه وكالة أنباء صغيرة . . . كان هناك موظفون وموظفات وآلات تيكرز وصالات تحرير ومكاتب للمعلقين ، وكان الجميع ، الذين لا يزيد عددهم على عشرة ، منهمكين في العمل . . . أو بمعنى أصح يتظاهرون بالانهماك في العمل ، ذلك أن أحداً منهم لم يبد عليه أنه مارس الصحافة ولو ليوم واحد !

قبل أن تنقضي نصف ساعة ، كانا قد اتفقا على كل شيء : تضاعف الأجر وحددت قيمة المكافآت وعندما عرجا على قيمة بدل الانتقال جاءتها المفاجأة كالصاعقة !

« لن نعطيك بدل انتقال يا سامية! » .

مستفزة قالت :

« هل تعرف كم جنيهاً أنفقت في الشهور الماضية كي أجمع لك تلك الأخبار التي وصلتك وتلك التي لم تصلك بعد؟! » .

كانت قد أحست أنه يريد الانتهاء من أي تفاصيل مهما كانت كي يرى ماذا تحمل في جعبتها فرأت أن تعذبه .

« أعرف . . . وقد حدثني نبيل في أمر صعوبة المواصلات وضرورة الاستعانة بسيارات الأجرة في القاهرة! » .

« يبدو أن نبيل أصبح واشياً بالطبع ! » .

« لم يكن في الأمر وشاية كما تتصورين . . . وأنت تعلمين كم يحبك نبيل! » .

« ومن أجل هذا لن تعطيني بدل انتقال؟! » .

« لأننا في العالم الرأسمالي نفكر بأسلوب مختلف! » .

« ما هذا الأسلوب؟! » .

« أسلوب نستطيع أن نوفر فيه عليك جهد المواصلات! » .

« كيف بالله عليك ستفعل هذا؟! » .

« سنقدم لك سيارة! » .

الشيء المؤكد أن أدريان فوجيء في تلك اللحظات بما لم يكن ينتظره على الإطلاق . . . وفي حقيقة الأمر ، فلقد كان الأسلوب الذي نفذه عادل مكي لسامية فهمي - وإن كان جديداً تماماً على ضباط المخابرات الإسرائيلية ، الذين بالرغم من كفاءة بعضهم ، كانوا يبدون في بعض الأحيان وكأنهم عشقوا الأساليب التقليدية البالية - كان متسقاً مع شخصية سامية فهمي تماماً . . . ولقد كانت ممسكة بقلم لحظة أن قال أدريان ما قال فما كان منها إلا أن ألقت بالقلم جانباً وتحركت في مكانها كمن يهم بالانصراف وقد بدا عليها الانزعاج الشديد وهي تدمدم في صوت غاضب :

« هذا ما توقعته على كل حال! » .

دهش ، فنهض من مكانه المقابل لسامية حول تلك المائدة الصغيرة في مكتبه هاتفاً :

« ماذا حدث يا سامية؟! » .

« مستر تومسون . . . هل تسمح لي بأن أواجهك بصراحة؟! » .

« بكل تأكيد! » .

« إنك تحاول شرائي! » .

شحب وجهه وهو يعود إلى مقعده :

« لم تقولين هذا؟! » .

« لأني نبهتك بوضوح إلى أن المال في حد ذاته ليس هدفاً ، ولكن الهدف هو احترامي لجهدي وعملي! » .

« إنك تخلطين الأمور في رأسك خلطاً مخلاً ! . . . ويبدو أن نظام الحكم عندكم . . . . » .

قاطعته في حدة :

« لا تكرر هذا القول . . . ولا تنس أن نظام الحكم في مصر هو مشكلتنا نحن المصريين فقط وليس مشكلة أفراد من شعوب أخرى . . . وفوق كل هذا أحب أن أوضح لك أنني مؤمنة بنظام الحكم هذا! » .

« ألا تتركينني أشرح وجهة نظري؟! » .

« لقد طرحتها فعلا! » .

« ولكني لم أكمل! » .

« فما تريد أن تقول؟! » .

« أريد أن أستطرد إلى أننا كمؤسسة أو شركة سنوفر من بـدل الانتقال في المدى الطويل ، وبذلك تكسبين أنت السيارة ، ونكسب نحن بضعة ألوف من الجنيهات! » .

صمتت سامية وهي تحملق فيه وكأنها فوجئت بما لم يكن في حسبانهـا ، تذكرت عادل مكي وهو يقول لها إنهـا ـ بما كـانت تحمل من أخبـار ـ تستطيـع العودة إلى مصر بسيارة آخر موديل ، ولكن . . . ها هي تحصل على السيارة قبل أن تطرح ما لـديها ! . . . طـال صمتها فـظن أدريان أنهـا خجلت من تصرفهـا فاستطرد موضحاً .

« إن ثمن سيارة جيدة ، يوازي بدل انتقال لمدة عام واحد فقط . . . فأيهما أوفر لنا؟! » .

غمغمت سامية في تذمر وكأنها قلبت الأمر على كل وجوهه :

« هذا كله حسن لكنه سوف يوقعني في حرج أنا في غنى عنه! » .

« أي حرج هذا؟! » .

« كنت أنوي شراء سيارة شبه جديدة . . . ومعنى قولك هذا ، أني سأكون تحت رحمة اختيارك! » .

« فلنرَ ما جئت به من أخبار ، فلقد يحدد هذا الكثير من الأمور! » .

ابتسمت سامية شأن من غلب على أمره وهي تقول في إعجاب مصطنع :

« يبدو لي يا مستر تومسون إنك تعرف أين وكيف تخطو خطوتك! » .

تحول الآن إلى رجل آخر ، كان وكأنه انتهى من فصل وانتقل إلى فصل آخر ، في صراحة قال :

« دعي الإطراء جانباً . . . أين الأخبار؟ » .

في تباطؤ أخرجت سامية من حقيبتها نوتة جد صغيرة ، ما أن قلبت صفحاتها في اهتمام حتى هتف :

« هل هذه هي الأخبار؟! » .

« نعم! » .

قالتها في بساطة فبدت عليه خيبة الأمل وهو يهتف :

« غير معقول! » .

مالت نحوه في حدة من ينهر صاحبه وهي تقول :

« هل كنت تريدني أن أكتب الأخبار وأحملها معي وأنا أغادر مصر ؟! . . . إن هذا هو الجنون بعينه! » .

بدت عليه الدهشة ، لكنه قال :

« ولكنك أرسلتها مع نبيل! » .

« لأن نبيل ليس صحفياً ، ولم يمكث في القاهرة سوى يومين ، ولم يكن لدي وقت كي أفعل شيئاً آخر! » .

همّ بالحديث فأردفت :

« إن هذه النوتة ليس بها سوى نقاط تذكرني بما أحمله هنا! » .

أشارت بيدها نحو رأسها فابتسم هاتفاً :

« آه . . . » .

« وعلى كل ، فهذه مشكلة لم تضعها في جدول الأعمال ، ولست أدري كيف سيمكننا التغلب عليها . . . إن بعض هذه الأخبار تعتبر أسراراً خطيرة! » .

في لهفة من وجد ما لا يتوقعه قال :

« لا عليك ، فلنبدأ العمل . . . ثم نبحث بعدها عن حلول لمشاكلنا! » .

وهكذا . . . راحت سامية فهمي تلقي على مسامعه من الأنباء ما كان يجعله ينتفض في مكانه فرحاً وسروراً !

* * * *

في صبيحة اليوم التالي ، كانت سـامية فهمي تقف مـع نبيل سـالم ، في ساحة من ساحات بيع السيارات المستعملة وسط مئات السيارات ، وكان عليها أن تنتقي ما يروق لها ! .

* * * *

الفَصل السابع وَالثلاثون

الجَولة الأخيرة !

هدأت سامية فهمي تماماً بعد هذا اللقاء الأول مع « أدريان تومسون » وبدا لها كل شيء طبيعياً للغاية ، أصبحت تتحرك وتناقش وتتحدث ، وقد سقط عن وعيها ذلك الإحساس بالتوتر أو الترقب أو الخوف . . . ولقد حاولت أن تعبر لي عما كانت تشعر به في تلك المرحلة الغريبة والقاسية ، فلم تجد تعبيراً أكثر دقة من أنها أحست أنها دخلت « قالباً » صنعه لها عادل مكي « على المقاس » وأنها لم تعد تشعر بأي نوع من أنواع الارتباك كلما أمطرها « أدريان تومسون » بوابل من الأسئلة التي كانت تأتيها عبر دردشة حول خبر أو معلومة بدت له غامضة أو أراد الاستزادة منها ! .

غير أن الذي لا شك فيه أن « أدريان تومسون » لم يكن بالغفلة التي حاول التظاهر بها . . . فإن دراسة نوعية تلك الأسئلة التي طرحها على سامية فهمي طوال سبعة أيام عاشتها في روما وكأنه لا عمل لها إلا الإجابة عن تلك الأسئلة ، تُنْبيء عن شكوك حيّرت الإسرائيليين كثيراً . . ذلك أن الأمر ـ في الواقع ـ كان يبدو غريباً كل الغرابة . . . فسامية فهمي كانت تتمسك بوطنيتها تمسكاً لا ريب فيه ، أو على الأقل بدا لهم الأمر وكأنها تتظاهر بذلك . . . ثم ، ثم لم تَكُفْ كلما دارت بينهما مناقشة من تلك المناقشات ، وكلما ضغط عليها لاستخلاص المزيد من المعلومات بحجة إلقاء الضوء على بعض الجوانب الغامضة . . . لم تكف عن تحذيره بأن نشر أي خبر أو نبأ من تلك التي نقلتها إليه سوف يؤدي إلى قطع العلاقة بينهما دون إنذار ! .

لم يكن الأمر سهلاً بأي معنى من المعاني . . . بل ، لم يكن الإبقاء على سامية فهمي في روما إلا للتيقن مما حملت من معلومات بدت للمخابرات الإسرائيلية وكأنها كنوز تَفَجّرَ عنها نبع لم يكن في الحسبان . . . ولقد أدرك عادل مكي منذ اليوم التالي لوصول سامية فهمي إلى العاصمة الإيطالية . . . أنهم ابتلعوا الطعم في مرحلته الأولى على الأقل . . . ذلك أن أدريان بعد أن استمع إلى ما جاءت به سامية من أخبار ، طلب منها أن تجلس إلى مكتبه وأن تكتب كل ما لديها . . . فلم تمانع سامية فهمي ، وجلست بالفعل إلى المكتب وانهمكت في العمل حتى جن الليل ، ولم تنته مما في يدها إلا وقد جاوزت الساعة التاسعة مساءً ! . . .

خلال اليوم اتصلت بنبيل سالم الذي وجدته في انتظارها ، فاعتذرت له عن عدم اللقاء به في تلك الليلة وضربت له موعداً على التليفون في صباح اليوم التالي ، فلم تكن تعرف ما الذي تخبئه لها الساعات القادمة . . . وما أن غادرت مكتب تلك الوكالة المزعومة عائدة إلى الفندق ، حتى بدأت حركة محمومة رصدها رجال عادل مكي بدقة وانتباه بالغين فيما بين الوكالة ، وأحد الأمكنة التي كان الإسرائيليون يستعملونها في روما ، مما دفع إلى الظن بضرورة وجود شخصية لها وزنها من المخابرات الإسرائيلية في العاصمة الإيطالية في ذلك الوقت . . . ولقد رصد الرجال ما حدث تماماً ، وطارت إلى القاهرة معلومات كاملة عما كان يحدث ، بالدقيقة والثانية ، وكان مما بعث بالطمأنينة والقلق معاً إلى نفس عادل مكي القابع خلف أسوار الصمت في كوبري القبة ، ذلك النبأ الغريب الذي وصله على عجل في مساء اليوم التالي . . . والذي يقول إن أحد رجال « الموساد » المشهود لهم بالكفاءة في التحليل ، قد شوهد وهو يغادر طائرة شركة العال الإسرائيلية في مطار روما . . . وبالرغم من أنه أفلت من المراقبة التي فرضت عليه لسبب خارج عن إرادة الرجال ، فإن حقائق الأمور كانت تشير إلى أنه توجه إلى « بيت آمن » آخر . . . ذلك أنه لم يذهب إلى البيت الآمن الأول ، كما أنه لم يذهب بحال من الأحوال إلى مبنى السفارة الإسرائيلية ! .

كان الأمر يدعو إلى الطمأنينة لأن ما حملته سامية من أنباء قد أصاب الهدف وأثـار الاهتمـام إلى هـذا الحـد . . . كمـا أنـه كـان يبعث على القلق ، لأن احتمالات اكتشاف ثغرة أو خطأ ، ولو كان كلمة صدرت عن سـامية عفـواً وبلا قصد ، كانت كفيلة بتدمير كل شيء ! .

ولذلك ، وعلى مدى اليومين التاليين . . . كان على سامية فهمي أن تقوم بجولة في معارض السيارات المستعملة كي تنتقي السيارة التي تروقها ، كما كان على نبيل أن يأخذها في رحلات إلى معالم روما للمرة الثانية ، في جولة ثقافية لتلك المعالم التي لم تشاهدها في زيارتها السابقة إلى العاصمة الإيطالية كمـا ينبغي !

حتى إذا انقضى اليـومان ، كـان على أدريان تـومسـون أن يخـطو فيهـا ، ومعها ، الخطوة التالية .

* * * *

في لقائهما الثاني ، راح أدريان تومسون يسألها عما إذا كانت تقضي وقتـاً ممتعاً مع نبيل سالم ، وإذا مـا كان اختيـارها قـد وقع على السيـارة التي تريـد شراءها ، والأماكن التي زارتها والأماكن التي يجب أن تزورها . . . ولقد بدا لها الأمر وكأنه نوع من الدردشة فانساق الحديث إلى أسئلة حول بعض المعلومات التي حملتها إليه !

وكان هذا بالضبط هو ما قال عادل مكي أنه سوف يحدث .

والغريب في الأمر ، أن أدريـان تومسـون سألهـا عن تلك المعلومات التي قالها لها عادل ذات مرة وكأنه يقول شيئاً عابراً خَطَرَ له ، إن أدريان سوف يسألها عن تلك المعلومات بالذات أسئلة محددة وذات مغزى نبهها إليه . . . ولقد قال لي عـادل مكي ضـاحكـاً : إن الأمـر لم يكن فيـه ذكـاء ولا عبقـريـة ، فهــذه المعلومات ، كانت خاصة ببعض الصناعات الاستـراتيجية ، والتي كـان لا بد لأدريان أو أي ضابط مخابرات آخر ، أن يسألها عنها وحولها . . . وبصرف النظر

عن تواضع هذا الشاب ، مما جعلها تتدفق في الحديث بسرعة موضحة بعض الأمور حاجبة البعض الآخر كما اتفقت مع عادل تماماً ، مما جعل الاطمئنان يدخل إلى نفوس الإسرائيليين يوماً بعد يوم!

أما سامية ، فبرغم المعركة المهلكة ـ كان هذا تعبيرها ـ التي كانت تخوضها وكأنها تسير فوق حد سيف قاطع ، فلقد كانت مشغولة حقاً في مراقبة نبيل سالم ، وما اعتراه من عصبية بدت لها غريبة كل الغرابة !

لم يكن نبيل هذا الذي أوشك أن يكون متفرغاً لها هذه المرة تفرغاً شبه كامل ، هو نبيل الذي التقت به في زيارتها السابقة ، بل لم يكن هو نبيل الذي عرفته على الإطلاق . . . كان ، بالرغم من حبه الذي التهب فجأة التهاباً بعث إلى نفسها بالدهشة والإشمئزاز معاً ، يبدو كمخلوق بائس بلا حول ولا طول . . . وبالتأكيد ، فلقد كان هذا أمراً طبيعياً للغاية ، فلقد وجد هذا الشاب التعس نفسه ـ على حد تعبيره فيما بعد ـ كالأطرش في الزفة . . . كان كل ما عليه أن يفعله ، هو طاعة أبي سليم الذي راح يلقي إليه بالتعليمات في صرامة وجدية وتجهم معاً ، بما يجب عليه أن يفعله مع سامية وما لا يجب . . . لكن الذي حز في نفسه حقاً ، هو أنه لم يكن يستطيع أن يلتقي بسامية فهمي ، إلا إذا أمره أبو سليم بذلك ، وإذا ما طلب منه أن يعتذر لها عن موعد أو لقاء ، كان يفعل صاغراً !

ولقد حدث هذا مرة أو مرتين خلال السبعة أيام الأولى ، وكانت سامية تجد نفسها وحيدة ، وكان عليها أن تفعل ما اتفقت عليه مع عادل مكي بالحرف . . . فكانت تخرج إلى الشوارع ، وتتسكع هنا وهناك ، لا يلفت نظرها ولا يوقفها للتأمل سوى نافذة زجاجية لأحد المحلات التي تعرض ملابس من نوع فاخر ، أو معرض فاخر للسيارات كانت تتسمر قدماها أمامه وكأنها تحلم بامتلاك إحداها . . . كانت تعلم الآن أنها مراقبة ، وأن كل خطوة من خطواتها تحسب عليها وتدخل عقولاً دربت على التحليل والاستنتاج .

بعد مرور أربعة أيام بدأ القلق يساور سامية فهمي ، كان أدريان قد التقى بها مرتين عقب لقائهما الأول ذاك الذي دعاها فيه إلى طعام الغداء . . . وفي كل مرة كانت تواجه سيلاً منهمراً من الأسئلة ـ التي عادة ما كانت تأتي عبر دردشة عادية ـ لا حول ما جاءت به من أخبار أو معلومات وإنما عن الحياة في مصر . . . وفي الليلة التي دعاها فيها أدريان إلى العشاء في مطعم منعزل عند أطراف روما ، وكان الحديث بينهما ينساب من موضوع إلى موضوع عندما توقفت سامية عن تناول الطعام وهي ترمق أدريان بنظرة جعلته يتوقف دهشاً .

« لماذا توقفت عن تناول الطعام؟! » .

في استقامة بدت للرجل غير منطقية قالت :

« لأني لاحظت يا سيد أدريان ، أن ما تلقيه علي من أسئلة لا علاقة له بما يجمعنا من عمل! » .

« كنت أظن أننا أصبحنا صديقين نستطيع مناقشة همومنا المشتركة! » .

« همومنا المشتركة؟! » .

« دون شك . . . إني ، حتى كصحفي ، لا بد من أن تكون الأوضاع السياسية في بلاد تشتعل فيها الحرب منذ سنوات ، وتوشك الآن على الاندلاع من جديد ، من همومي! » .

كان ما يقوله منطقياً تماماً ، فتظاهرت سامية بالاقتناع بما قال وتمتمت كالمعتذرة :

« أرجو أن تغفر لي انفعالي يا أدريان ، يبدو أن إحساسي بالوطن يجعلني شديدة الحساسية! » .

« هذا أمر طبيعي ، وهذا من حقك أيضاً! » .

« أشكر لك تفهمك لموقفي ، وأرجو ألا نعود لمثل تلك الأحاديث مرة أخرى! » .

خطت سامية تلك الخطوة التي أنبأها عادل مكي أنها ستكون شديدة الحساسية والخطورة ولكن لا مفر منها ، فإذا ما كانت قد باحت لنبيل سالم بأمر التنظيم الطليعي ، فلا بد أن الخبر قد وصلهم ، ولم يعد هناك ضرر من أن تنبئهم هي به على أنه سر الأسرار وقدس الأقداس وألا تخوض ، بل ترفض الحديث في الأمور السياسية . . . لذلك ، فعندما قالت ما قالت وهتف أدريان مبدياً دهشته :

« ولكن لماذا . . . إن المناقشة تفيد كلينا!! » .

« أعلم هذا . . . ولكن هناك ما يمنعني من الخوض في مثل هذه الأمور! » .

« لست أفهمك! » .

نظرت إليه نظرة من غلب على أمره ، قالت هامسة :

« هناك سر أود أن أطلعك عليه بشرط أن تعد بعدم البوح به! » .

« أقسم لك ألا أفعل أبداً! » .

في مصر تنظيم سياسي سري داخل الاتحاد الاشتراكي هو التنظيم الطليعي ، ولذلك ، فثمة معلومات تتاح لي بصفتي هذه ، فهل من الأمانة أن أبوح بما أعرف .

« لا . . . لا بكل تأكيد! » .

وافقها أدريان على كل ما ذهبت إليه . . . وهو - بالطبع - لم يوافقها اقتناعاً ، وإنما وافقها كخطوة أولى كان مدركاً كيف كان يخطط بعدها للخطوة الثانية ، ثم الثالثة ، ثم إلى حيث كانت تقوده أحلامه !

في تلك الليلة كان كل شيء يبدو على ما يرام عدا تلك العقبة التي وقفت في طريقهما ، وهي كيفية وصول الأخبار من مصر إلى أدريان عبر قناة آمنة . . . راحا يقلّبان الأمر على كل وجوهه ، فبدت لهم السبل مسدودة ، فلا البريد يصلح ، ولا وصول من يتسلم منها الأخبار ، حتى ولو كان نبيل ، وتردده على

القاهرة آمن ، ولا حتى سفر سامية إلى روما بين الحين والحين . . . فكل تلك الوسائل كانت تحمل من المخاطر ما ليس في حاجة إلى إيضاح . . . حتى إذا جاءت لحظة هتفت فيها سامية في يأس :

« **يبدو أن عملي معك يشكل عليك عبئاً ثقيلاً يا أدريان!** » .

« **ماذا تعنين بالله عليك؟!** » .

« **لقد ناقشنا كل الاحتمالات دون أن نجد وسيلة آمنة نعمل من خلالها!** » .

« **قد يساعدنا العلم على تخطي العقبات!** » .

خفق قلبها في عنف ، ها هو ما حذرها منه عادل مكي يطل برأسه من خلال كلمات الرجل كالثعبان الجالس أمامها بالبراءة كلها فوق وجهه سوف يحدثها عن الكربون السري . . . قالت وهي تتصنع دهشة لم تشعر بها :

« **أي علم هذا؟!** » .

« **هل تعرفين الكربون؟!** » .

« **بالقطع!** » .

« **ما لونه؟!** » .

ضحكت للسؤال الذي بدا لها سخيفاً :

« **إما أسود أو أزرق!** » .

« **فما رأيك في كربون بلا لون؟!** » .

« **بلا لون ؟! . . . إنك تمزح !** » .

« **ليس في الأمر مزاح!** » .

« **إذا كان بلا لون ، فما فائدته إذن؟!** » .

« **فائدته أن أحداً لا يستطيع قراءة ما كتب به ، إلا إذا كان يملك محلولاً يظهره!** » .

« **لست واثقة من أني فهمت ما تريده على وجه الدقة!** » .

« في بعض المكتبات المعينة هنا في روما ، يباع ـ لبعض الشركات ذات النفوذ دون غيرها ـ كربون إذا ما كتبت فوقه رسالة ، ستبدو الورقة وكأن سطراً لم يكتب عليها ، فإذا ما مررت عليها قطعة من القطن بأسلوب خاص ، ومبللة بذلك المحلول ظهرت الكتابة! » .

هتفت سامية ساخرة :

« وماذا لو فتحوا الخطاب في الرقابة البريدية ووجدوا الورقة خالية! » .

« لن يجدوها خالية ، بل سوف يجدون فيها ، على الوجه الآخر من الورقة ، رسالة عادية منك إلى نبيل! » .

ساد الصمت هذه المرة طويلاً ، لزمته سامية فلزمه أدريان وهو يرمقها بعينين شديدتي اليقظة . . . بدا عليها الهم فأزاحت الطبق من أمامها ، رشفت من كأس العصير رشفة بللت ـ بالكاد ـ شفتيها . . . أخيراً قالت :

« ألا ترى أن في هذا الأمر مخاطرة كبيرة يا مستر تومسون؟! » .

كان أدريان قد تعوّد الآن ، أنها إذا ما نادته بلقب مستر ، فلا بد أن الحوار سوف يدخل بهما منطقة شديدة الخطر . . . ولذلك ، فلقد هتف مخففاً وقع الأمر عليها :

« هذا أمر سوف تحددينه أنت ، لا أنا! » .

« وكيف؟! » .

« إذا ما اشترينا ولو ورقة واحدة من هذا الكربون ، وزجاجة من هذا المحلول! » .

« وهل هذا متيسر؟! » .

« ليكن هذا أول ما أحاوله في صباح الغد! » .

لم تعد ترى نبيل سالم في الأيام الثلاثة الأخيرة إلا لماما . . . كان اختيارها قد وقع على سيارة متوسطة الحجم من ذلك النوع الذي انتشر في مصر في تلك السنوات ، وكانت السيارة في حالة جيدة جداً . . . وقعت الأوراق ولم تدفع

ملياً ، تَكَفَّلَ نبيل ، الذي كان الآن يفصح عن حقيقته بأسلوب فج ، تكفّل بكل شيء . . . تسلمت عقد السيارة كما تسلمت بوليصة شحن على إحدى السفن إلى الإسكندرية من نابلي . . . وأصبحت تقضي جل وقتها الآن ، صباحاً أو مساءً . مع أدريان ، أو في جولات كانت تقوم بها في شوارع المدينة تاركة نفسها لخطواتها . . . كانت قد شاهدت في صبيحة اليوم التالي ذلك الكربون السري وذلك المحلول الذي وضع في زجاجة عطر من ماركة عالمية اشتهرت بين سيدات الطبقة الراقية في القاهرة . . . كان ورق الكربون من نفس النوع الذي شاهدته في تلك الغرفة رقم ٨ التي تعودت أن تلتقي فيها بعادل مكي . . . وكانت على استعداد لأن تجري التجربة ، أن تكتب شبه تقرير بالكربون السري ، ثم تكتب خطاباً على الوجه الآخر لنبيل ، ثم تظهر الكتابة بذلك المحلول . . . في ذلك الصباح ، وفي تلك اللحظات بالذات وهي جالسة مع أدريان تومسون في مكتبه ذاك بوكالة أنبائه المزعومة ، جاءها صوت عادل مكي وكأنها تسمعه حقيقة محدداً لها أسلوب تلقي الأمر :

« جربي ، واكتبي ، وهاوديهم على كل حاجة . . . بس تعالى عند حتة إنك تجيبي الكربون معاكي مصر . . . وارفضي! » .

ولقد جربت وكتبت وأظهرت الكتابة وأبدت دهشتها وتساءلت في فزع : إلى أين يقودنا العلم الحديث ؟ . . فبادلها أدريان الابتسام والمرح وهو يقول :

« كما ترين . . . الأمر في منتهى السهولة! » .

« معك كل الحق ، ولكن . . . في الكتابة أو الإظهار فقط ! » .

« ماذا تعنين؟! » .

« أعني أنه ليس سهلاً أن أحمل معي تلك الأشياء وأدخل مصر ! » .

همّ بالحديث لكنها انبرت في تحد :

« أتظن أنهم سوف يصدقونني إذا ما قلت لهم إن هذه أدوات صحفية؟! » .

« ثقي أنهم. . . . . » .

قاطعته في فزع حاد :

« مستر تومسون لا تحاول! » .

همّ بالحديث فنهضت مستعدة للانصراف :

« لا تحاول يا سيدي فلست مستعدة للزج بي في السجن! » .

« إنك تبالغين يا سامية! » .

« هل تستطيع أن تخبرني ماذا لو فتشك أحد ضباط مطار هيثرو ووجد معك تلك الأشياء ؟! . . . كيف سيكون تصرفه؟! » .

« إنهم يفتشون الحقائب ، لكنهم لا يفتشون ما لا يرونه! » .

« أعني أنك تستطيعين شراء حقيبة إيطالية الصنع ، وأن يكون فيها جيب سري من المستحيل اكتشافه ، يوضع به الكربون السري . . . أقسم لك أن . . . . » .

صاحت في نفاد صبر :

« جه يكحلها عماها! » .

قالتها بالعربية ساخرة ثائرة فسألها :

« ماذا تقولين بحق الشيطان! » .

« كنت أردد مثلاً مصرياً يعني أنك أردت أن تُجَمّلَ الأمر فازداد قبحاً! » .

« كيف؟! » .

« أنا لا أسمح لنفسي بأن أدخل بلادي وفي حقيبة يدي جيب سري حتى ولو كان خالياً! » .

ألقى أدريان بنفسه فوق المقعد كمن فاض به وهو يدمدم :

« ليست هذه طريقة مثلى للعمل ، وليست حتى طريقة طبيعية! » .

« إني أعتذر عما سببته لك من متاعب وعما أخذت من وقتك ولكن هذا موقفي الذي لن أتزحزح عنه مهما كانت الدوافع ومهما كان الأمر! » .

خطت نحو الباب فهب ثائراً :

« وماذا إذا ما وصلتك تلك الأشياء في مصر؟! » .

جمدت في مكانها وقد التفتت إليه :

« ماذا تعني بالله عليك؟! » .

« أعني أن عدداً صغيراً لا يزيد على خمس ورقات من هذا الكربون ، مع زجاجة من عطرك المفضل سوف تسلم إليك في القاهرة! » .

« ومن الذي سوف يسلمها لي؟! » .

« لست أدري بعد ، ولكنه لا بد أن يكون محل ثقة كاملة مني ومنك! » .

« على أن أعلم من يكون قبل أن يصلني! » .

« أعدك بهذا ولكن.......... » .

قال هذا وتوقف وقد بدت عليه الحيرة ، عادت إلى مقعدها متسائلة :

« مشكلة أخرى؟!؟ » .

« نعم؟! » .

« هات ما عندك! » .

« لقد شكوت من بطء الأداء وصعوبة الاتصال بيننا ، وكان معك حق في كل هذا ، فهل سترفضين وسيلة تجعل أداءنا أكثر سرعة؟! » .

« وكيف أرفض مثل هذه الوسيلة؟! » .

« لأنها ستأتيك عبر الراديو! » .

قفزت مرة أخرى وهي تصيح :

« لا بد أن الصحافة في أوروبا قد تقدمت بشكل مذهل لم تلحق به مصر بعد ، ولا أعتقد أننا نريد أن نلحق بهذا النوع من الصحافة! » .

« ألا تستطيعين الانتظار حتى أنتهي من شرح الأمر؟! » .

« لأن ما تقوله أيها السيد يثير الجنون والفزع معاً!! » .

« لماذا؟! » .

« لأن مثل هذه الرسائل ، في كل دول العالم تُلْتَقَطْ . . . أنا نفسي سمعت بعضها وأنا أحرك مؤشر الراديو ذات مساء . . . فهل تريد أن تذهب بي إلى الليمان يا أدريان؟ ! » .

كانت سامية فهمي رائعة بحق ، كانت بسيطة وطبيعية وكأنها تحيا التجربة بكل مشاعرها وأحاسيسها ، وكان لا بد له من الصبر كي يقنعها باستكمال الحديث ، وهي من جانبها قد سمحت له بذلك فحدثها عن سهولة العثور على المحطة وسهولة التقاط الرسالة ، فثار الجدل حتى حدثها عن الشفرة ، فشحبت وهي تهتف :

« هي حَصلت؟ ! » .

لم يسألها عما قالت بل سألها :

« من كاتبك المفضل في مصر؟ ! » .

« نجيب محفوظ ! » .

« لماذا؟ ! » .

« لأنه الموضة الأدبية الآن في العالم العربي ، ولأن كل المصريين يقرءونه ، ولأنه يقول كلاماً مفيداً ! » .

« أي رواياته تفضلين؟ ! » .

« كيف عرفت أنه كاتب رواية؟ ! » .

كاد ينشق من الغيظ فأخذ يصيح :

« كيف عرفت ؟! . . . رباه . . . ألا تعرفين أيتها الآنسة العنيدة أني مهتم بالشرق الأوسط ، وأن معلوماتي عن المنطقة لا بد أن تشمل - مع السياسة - آدابها وفنونها؟ ! » .

بدا عليها أنها هُزِمت فقالت :

« اللص والكلاب ! » .

« هل لديك نسخة منها في البيت؟ ! » .

« نعم! » .
« أية طبعة؟! » .
« الثالثة! » .
« هل أنت واثقة؟! » .
« تماماً . . . لأنه أهداني إياها رغم أني لست أديبة! » .
« حسن . . . الرسالة التي سوف تتلقينها مني عبر الراديو. . . » .

وراح يشرح لها ، بدقة ، وبتفصيل وتأن ، كيف يمكنه أن يستأجر من إذاعة روما بضع دقائق تبث على موجة بعينها ، وكيف أن عليها أن تنتظر الرسالة على تلك الموجة وفي الساعة التي سوف يتفقان عليها ، وكيف أن تلك الرسالة سوف تبث وسط رسائل أخرى عديدة . وأن الرسالة لن تبث باسمها ، بل باسم فتاة أخرى في دولة أخرى . . . فإذا ما نقلت الرسالة ، سوف تكون مواضع الكلمات وأرقامها دليلاً يرشدها إلى الكلمات المعنية في الطبعة الثالثة من رواية اللص والكلاب ، والتي ستكون ، كلمة بعد كلمة ، الرسالة المطلوبة !
« وكيف أجد هذه الشفرة! » .
« سأكتبها لك في نصف ورقة! » .

« إذن فلسوف تكون هناك أوراق بها رموز غامضة! » .
« إنها نصف ورقة! » .
« آسفة . . . لن أحملها معي! » .
« أو كي ، سأرسلها مع العطر والكربون! » .
زفرت في تأفف وهي تقول :
« لقد كان نبيل على حق! » .
« نبيل؟! » .
« نعم . . . لقد حذرني ولم أنتبه لتحذيره! » .
أقسمت سامية فهمي أنها رأت ذلك الذي أطلق على نفسه اسم أدريان

تومسون ينتفض أمامها انتفاضاً . . . وأن شحوباً غريباً اعترى وجهه واجتاح لونه وهو يسأل :

« ما الذي حذرك منه نبيل سالم؟! » .

« قال لي إن رأس المال لا يرحم ، وأنه في مقابل كل ليرة أو دولار يقبضها الإنسان ، يدفع في المقابل من دمائه وأعصابه ما يوازي عشرات أمثالها! » .

« ولذلك . . . فالغرب دائماً متقدم! » .

« نحن نختلف في مقياس التقدم يا سيد تومسون ، فلا داعي لأن تخوض في مثل هذه المناقشة! » .

« والآن . . . » .

هكذا سألها فردت :

« متى تسمح لي بالسفر ، إن لي أسبوعاً كاملاً في روما عملت فيه ما يكفي لأجر شهر أو يزيد! » .

مد يده في جيبه وكأنه يفاجئها بما لم تكن تنتظر وهو يخرج ظرفاً مفعماً بالدولارات :

« وهذا مرتب ثلاثة شهور أخرى بعد تعديله . . . مضافاً إليه مكافأة شهرين! » .

دون تردد تناولت منه الظرف ودسته في حقيبة يدها وكأنها تحاول أن تداري لهفتها مغمغمة :

« متى أعود إلى القاهرة؟! » .

« عندما تنتهين من التدريب على استقبال الشفرة وحلها! » .

ولقد استغرق هذا الأمر يومين آخرين . . . كانت سامية تستقبل الرسالة - في البداية - عبر شريط مسجل كان يدور في راديو صغير وأنيق . . . ثم أخذت تستقبل الرسائل على موجة حددها لها ، وراح يدربها على ضبط الموجة حتى

تصبح الرسالة أكثر ما يكون الأمر وضوحاً .

« ولكني لا أملك راديو حساساً كهذا! » .

« سوف نرسل لك واحداً! » .

قالها بسرعة كي يعود إلى ما كانا فيه عندما أزاحت الأوراق والقلم من أمامها .

« ماذا بك؟! » .

« أدريان . . . لست أريد أن أخدعك! » .

« ماذا هنالك؟! » .

« لست واثقة من أني سوف أتذكر كل هذه الأمور المعقدة في القاهرة كما ينبغي! » .

« ماذا تعنين بهذا؟! » .

« أعني أن ذاكرتي ليست بالقوة التي تجعلني أثق فيها ، ثم ، وهذا هو المهم . . . اني مرتبكة وخائفة وأنا أتدرب على كل هذه الأشياء هنا في روما ، حتى ليخيل إلي أحياناً أن البوليس قد يداهمنا بين لحظة وأخرى . . . فما بالك وأنا في القاهرة ؟! . . . لا بد أني سأنسى ، بل المؤكد أني سأنسى ، على الأقل ، خوفاً وارتباكاً! » .

كانت هذه الجملة الأخيرة التي قالتها سامية ، مؤشراً فذاً إلى اندماج تلك الفتاة فيما كانت فيه ، ذلك أن هذا الموضوع بالذات ، موضوع النسيان ، لم يكن قد طرح بينها وبين عادل مكي . . . ولقد ساد الصمت لثوان حتى هتف وكأنه وجد الحل :

« حسن ، فليطمئن بالك! » .

« كيف؟! » .

« سيكون هناك من يراجع معك كل شيء في القاهرة أيضاً! » .

هكذا حسم الأمر الذي تقبلته سامية على مضض . . . كانا قد اتفقا على أن

تطير إلى روما بعد يومين تقضيهما مع نبيل في سياحة خارج روما تركب فيها القطار إلى مدينة فلورنس لتقضي فيها ليلة ، ثم تعود إلى الوطن على أن تُشْحَنْ لها السيارة خلال أيام ، ولسوف تصلها برقية من نبيل بموعد وصول السيارة إلى ميناء الإسكندرية !

حتى إذا حانت ساعة الوداع ، صافحت أدريان في حرارة شابها قليل من الفتور . . . ولقد قالت له إنها سوف تبدأ في انتظار وصول المعدات إلى القاهرة بعد سبعة أيام من لحظة وصولها ، فتمنى لها رحلة طيبة ، وتمنت له صيداً ثميناً !

أرادت أن تسحب يدها من يده لكنه تشبث بها متسائلاً :

« **لماذا هذه الأمنية بالذات؟!** » .

« **لأني أشعر أنك ألقيت على بشباكك في مهارة ، واستطعت صيدي!!** » .

كانت جملتها بليغة إلى الحد الذي جعلها ـ هي نفسها ـ تدهش ، كيف فاهت بها ومن أين نبعت معانيها !!! .

* * * *

في اليوم التالي ركبت القطار مع نبيل إلى فلورنس ، أخذتها المدينة العريقة أخذاً فراحت تنهل من معالمها وفنونها بنهم لا يعرف الشبع ، عندما وصلا إلى الفندق وحجزا غرفتين أراد نبيل أن يتولى عنها دفع الحساب لكنها رفضت . . . صاح محتجاً :

« **بس أنا عاوز أعزمك على رحلة فلورنس دي يا سامية!** » .

« **وليه ما عزمتنيش عليها المرة اللي فاتت يا نبيل؟!** » .

قال نبيل سالم فيما بعد أن سؤال سامية هذا وجه إليه مثل لطمة صعدت لها الدماء إلى وجهه والتهبت لها أذناه . . . كان الآن ، وبعد كل هذا الذي حدث طوال تلك الأيام في روما ، محباً بكل ما تحمل الكلمات من معنى ، أدرك كم كان مخطئاً عندما أرشد أبا سليم إلى سامية ، كما أدرك بيقين ، أنه فقد فتاته إلى

الأبد ، وزاد هذا من اشتعال حبه !

طوال اليومين اللذين قضياهما في فلورنس ، لم يكفا عن السياحة والحركة ومشاهدة كل معالم المدينة التي بدت لسامية وكأنها خلية نحل تموج بالسياح من كل بقاع الأرض . . . حتى . . .

حتى جاءت الليلة الأخيرة !

طلبت منه سامية أن يدعوها إلى منطقة بعيدة عن العمران ، قالت انها تريد أن تنفرد به وألا يشاركها فيه أحد . . . عندما وصلا إلى ذلك المحل راحت تنظر إليه وهي تتذكر كم أحبته ، وكيف ضحت من أجله ، وكيف حطم هذا الشاب كل أحلامها ودمرها تدميراً . . . كيف كان قاسياً عليها كما كان قاسياً على نفسه . . . كانت تتساءل وعيناها تمتصان ملامحه امتصاص من يخشى ألا يراه مرة أخرى : هل يحمل الإنسان بذرة موته في لحظة ميلاده حقاً ؟! . . . وهل يسعى البعض منا إلى تدمير أنفسهم بوعي أو بلا وعي لسبب أو لآخر ؟!

كانت سامية في تلك الليلة حزينة حزناً رهيباً ، وهي لم تحاول ، إخفاء حزنها عن نبيل ، كانت تعلم يقيناً أن المستقبل يحمل في طياته ما لا يمكن التنبؤ به . . . أما نبيل ، فلقد قال فيما بعد إنه كان يشعر يقيناً . . . بأن هذه هي آخر مرة يرى فيها سامية فهمي ، وبالرغم من أنه لم يستطع تفسير شعوره هذا ولا أدرك سببه ، فلقد قال : إن ما كان ظاهراً أمامه من أحداث ، كان ينبىء بما يشعر به !

« إيه الحكاية يا نبيل؟! » .

« مش عارف! » .

« إيه اللي بينا؟! » .

« أنا أقدر أعرف اللي بي! » .

« إيه اللي بيك؟! » .

« باحبك أولاً! » .

« **وثانياً؟!** » .

« **حاسس إني مش حاشوفك تاني!** » .

أحست سامية أنها أصيبت بشلل كامل . . . كانت لحظات غريبة تلك التي تجمد فيها الزمن متوقفاً عند حالة بعينها لثوان طالت ، حتى إذا ما وجدت صوتها كان كالدمع ينحدر من بين شفتيها :

« **ليه قلت كده يا نبيل؟!** » .

« **مش عارف . . . آهي تخاريف حب!** » .

« **طب ما تشوف لك حاجة ثانية تخرف فيها!** » .

في صباح اليوم التالي وصلا إلى روما ، وفي المساء أوصلها إلى المطار قبل الموعد بساعة . . . أراد البقاء معها حتى موعد دخولها إلى صالة الرحيل لكنها كانت تتعجل الانصراف . . . ألحَّ في البقاء فقالت :

« **بلاش تطول مدة الألم يا نبيل!** » .

« **طب خمس دقايق كمان؟!** » .

« **لا . . . أرجوك بلاش!** » .

كانت تحاول أن تتماسك لكنها لم تستطع !

رغم كل ما بذلت من جهد لم تستطع ، فانفجر الدمع من عينيها مدراراً وهي ترتمي بين ذراعيه باكية :

« **خلي بالك من نفسك يا نبيل . . . خلي بالك من نفسك!** » .

كان دامع العينين هو الآخر ، دفعها برفق كي ينظر إلى وجهها قائلاً :

« **إذا كنت غلطت في حقك في يوم من الأيام ، ممكن تسامحيني؟!** » .

« **أنا سامحتك من قبل ما تغلط!** » .

قالتها وهي تفر مهرولة إلى حيث اختفت عن ناظريه ، لكنها لم تنظر إلى الخلف ، ولا مرة !

* * * *

« إيه اللي انتي لابساه ده؟! » .

« مالك يا سيد عادل؟! » .

« فين الهدوم الجديدة! » .

« ما خلاص ، مشي التمثيلية خلصت؟! » .

« غلط! » .

« إيه هو اللي غلط؟! » .

« دلوقت غلط ، لازم تفضلي زي ما انتي لحد العربية ما توصل ولحد ما يبعت لك الحاجة! » .

« يعني إيه ده بقى؟! » .

في صبر أيوب راح عادل مكي يشرح لها أن الناس الذين رأوها قبل السفر وقد ارتدت تلك الملابس الجديدة واعتنت بمظهرها وزينتها ، سوف يتساءلون عن السبب في عودتها إلى أسلوبها القديم ، خاصة بعد أن عادت من إيطاليا ، حيث المفروض أنها قضت أياماً سعيدة مع من تحب ، فوق أنها اشترت سيارة لا بأس بها !

هتفت كمن ضاق حتى بنفسه :

« ما اعرفش بقى! » .

« ما أنا قلت لك . . . هانت! » .

« إمتى . . . إمتى تخلص بقى يا عادل بيه أنا تعبت! » .

« أول نبيل ما يوصل! » .

كانت جملته مثل خنجر اندب في صدرها فأصاب منها القلب تماماً !

كانت أمام الحقيقة ساطعة حارقة لا مواراة فيها !

وكان لا بد من مواجهتها !

كان لا بد لها أن تظل على تظاهرها ، وأن تجلس في انتظار وصول نبيل سالم إلى حتفه !!!

* * * *

الفصل الثامن والثلاثون

الفصل الأخير في كوميديا دامعة !

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحاً بقليل عندما التقت سامية فهمي بعادل مكي الذي رحب بعودتها في حرارة بعثت الدهشة إلى نفسها . . . كان الذي أدهشها حقاً ، إحساسها بصدق مشاعره . . . كان وكأنه صافح بطلاً عاد إلى الوطن ، بعد أن شرفه في مباراة عالمية في الخارج !

كان عادل مكي مدركاً للحالة العصبية التي عادت بها سامية من روما . . . وبالرغم من انتصاراتها التي حققتها بامتياز حقيقي ، فإن تلك العواطف التي نختزنها في نفوسنا ولا نملك حيالها شيئاً ، تكون في بعض الأحيان من العنف والقوة ، بحيث من الممكن ، مهما كان إيمان الإنسان بما أقدم عليه وفعله ، أن تحيل حياتنا إلى جحيم !!

وعندما لاحظ عادل مقدار ما كانت سامية تعانيه ، لم يحاول أن يخفف عنها ، بل على العكس ـ هكذا قال لي بعد سنوات من هذا اليوم ـ كان مشفقاً عليها مما كان ينتظرها فيما هو قادم من أيام . . . ولذلك ، فلقد كان ضرورياً أن يضعها حيث يجب أن تكون من المشهد كله ، وأن ينتزعها مما كانت فيه إلى حيث الواقع القادم عليها بشراسة . . .

وهكذا ، وبعد ما انتهت لحظات الترحيب ، دار الحوار بينهما حول ما كانت ترتديه من الملابس . . . ولم يكن هناك ما تقوله أمام تلك الحجج التي ساقها إليها ، ثم . . . ثم حان وقت العمل ، فبدأت تقص عليه ما حدث !

* * *

كانت ، يوم أن وصلت إلى القاهرة ، قد تحدثت إلى والدي نبيل تليفونياً فهرولا إليها لتهنئتها بسلامة العودة . . . بقي الأب والأم معها لساعتين أمطراها خلالها بعشرات الأسئلة عن نبيل وأحواله ومركزه . . . ولم تكن تستطيع إلا أن تجيب بما يبعث بالأمل والسعادة والفخر إلى قلبيهما . . . قدمت لهما هديتين جاءت بهما إليهما ، كما سلمتهما هديتين أخريين أرسلهما نبيل معها . . . وعندما انصرف الضيفان وانفردت سامية بأمها ، فوجئت بالسيدة إقبال تسألها :

« ما لك يا سامية ؟! » .
« ما ليش يا ماما . . . الحمد لله كل حاجة كويسة ! » .
« إنتي اتعلمت تكذبي عليّ من إمتى يا سامية ؟! » .

كانت سامية قد أخبرتها بنبأ السيارة التي ابتاعتها والتي تنتظر وصولها إلى ميناء الإسكندرية بين لحظة وأخرى . . . كما أنبأتها بخبر اتفاقها مع وكالة أنباء إنجليزية على أن تكون مراسلة لها في القاهرة ، وطلبت منها أن تحفظ الأمر سراً بينهما حتى يتم توقيع العقد رسمياً ـ وكانت قبل السفر قد اتفقت مع عادل مكي على هذا حتى تتجنب الحرج إذا ما اكتشفت أمها ما معها من نقود أجنبية ـ قصت عليها قصة رحلتها إلى فلورنس وزيارتها الثانية لمعالم روما . . . وكانت السيدة اقبال تعاني من قلق غامض ، حتى إذا حانت لحظة أثناء الحديث تحينتها السيدة إقبال كي توجه لابنتها هذا السؤال الذي اضطربت له سامية اضطراباً شديداً ، ولقد ازداد ذلك الاضطراب عندما اتهمتها أمها بالكذب فهتفت في عتاب ولوعة :

« ليه قلتي لي كده يا ماما ؟! » .
« لأن كلامك عن نبيل وزيارتك لروما حاجة . . . واللي إنتي فيه فعلاً حاجة ثانية ! » .
« مش فاهمة ! » .
« نبيل بيشتغل فعلاً في شركة عربيات ؟! » .

« ده اللي أنا شفته ! . . . » .
« ومبسوط فعلاً في شغله ؟! » .
« أيوه ! » .
« وبيكسب كويس زي ما بتقولي ؟! » .
« أيوه فعلاً . . . فعلاً يا ماما ! » .
« غريبة ! » .

كانت سامية تعلم السر وراء أسئلة أمها تلك فلم تشأ الاستمرار في الحوار فغيرته . . . لكن السيدة اقبال ، قبل أن تأوي إلى فراشها ، ضمت ابنتها إلى صدرها في حنان ، ثم قبلتها في جبينها وهي تسألها :

« إنتي مش بتعملي اللي عليك ؟! » .

طالت نظرة كل منهما إلى الأخرى . . . كان ما يحدث من تلك السيدة يكاد يكون معجزة ، هي موقنة أشد ما يكون اليقين أن حضرة الناظرة لا تعرف ، ولا يمكن أن تعرف شيئاً عن الأمر برمته . . . لكنه ، مرة أخرى ، قلب الأم الذي يخفق بما لا يدريه العقل . . . قالت سامية باسمة بعد لحظات صمت :

« إنتي إيه رأيك ؟! » .
« ربنا معاكِ يا بنتي . . . ربنا يحميك ! » .

كان هذا الدعاء من السيدة إقبال حسين بمثابة توقيع على عقد اتفاق بينهما بألا تعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى ، وأن تترك ابنتها لما كانت تعاني منه معاناة كانت تنضح بها كل ملامحها وتصرفاتها معاً . . .

* * *

مضت ساعة وبعض الساعة وسامية تحكي لعادل مكي في تدفق ودقة بعثا بالدهشة إلى نفسها ، وجدت نفسها تقص عليه من التفاصيل ما لم يكن ـ أبداً ـ بعلق بذهنها ، فصاحت في لحظة :

« مش معقول . . . مش معقول أبداً ده ! » .

« إيه مالك ؟! » .

« أنا فاكرة الحاجات دي كلها إزاي ، وأنا . . . وأنا حاسة وكأن كل حاجة وكل حرف وكل كلمة أو تصرف وكأنها بتحصل قدامي تاني ! » .

« ده أمر طبيعي ! » .

« هو كل حاجة عندك لها تبرير جاهز ؟! » .

« لاحظي إنك كنت متوترة جداً وصاحية جداً في الوقت ده !! » .

كانت إجابته مقنعة فلزمت الصمت ، وعندما همت بالاستطراد أوضح :

« العشرة أيام اللي إنتي قضيتيهم في إيطاليا كانوا صعب جداً . . . الله يكون في عونك حقيقي !! » .

لم يكن فيما قاله مجاملة أو تشجيع ، بل كان هذا يقينه وإيمانه مما نم عنه صوته ، فأحست سامية بالامتنان لهذا الشاب الذي تحمل معها ، ومع من لا تدري عنهم شيئاً ، عذابات بلا حدود . . . قالت في صوت مضطرب :

« أنا فعلاً تعبت قوي يا سيد عادل ! » .

« بس حميتي البلد من كارثة محققة ! » .

« كارثة ؟! » .

« خلي الكلام في الموضوع ده لوقت تاني ، وخلينا في اللي إحنا فيه ! » .

وهكذا عادت إلى الحديث مرة أخرى وقد صفا ذهنها أكثر فراحت تسرد عليه الأحداث حريصة كل الحرص ألا تفوتها كلمة ، أو حتى ملاحظة عابرة . . . حتى إذا ما انتهت ، أطرق عادل مكي لائذاً بالصمت . . . طال صمته دون أن تختفي الابتسامة من فوق شفتيه حتى اضطرت إلى القول ممازحة :

« طب خدونا معاكم ! » .

« إحنا لازم نعترف أولاً إنهم بيشتغلوا بذكاء شديد جداً ! » .

« بالعكس . . . أنا مختلفة معاك في ده ! » .
« ليه ؟! » .
« أنا تعاملي مع ادريان خلاني أحس إنهم على قدهم قوي ! » .
« بيتهيألك ! » .
« أديك مثل ؟! » .

ضحك معتدلاً :

« إديني مثل ! » .
« الحاجات اللي حايبعتوها دي حايبعتوها مع مين ؟! » .
« مع نبيل ! » .

هكذا في وضوح وبساطة وبلا لف أو دوران ، فسألته :

« وهو نبيل اللي حايساعدني في استقبال الرسائل وحل الشبفرة ؟! » .
« بكل تأكيد ! » .
« إذن نبيل لما حاييجي حايكون شايل الحاجات دي معاه ! » .
« حاجات إيه ؟! » .

هتفت في تذمر طفل يلاعبه أبوه :

« الكربون السري والحبر في قزازة البارفان ومفتاح الشفرة ! » .
« ده كان تصوري في البداية يا سامية ! » .
« وإيه اللي خلى تصورك يتغير ؟! » .
« العربية ! » .

قبل أن تسأل بادرها :

« مين اللي حايستلم العربية في إسكندرية ؟! » .
« أنا طبعاً ! » .
« وإذا كانت المعدات فيها ، يبقى مين اللي استلمها ؟! » .

نظرت إليه في فزع من اكتشف أنه هُزم هزيمة منكرة بعد أن كان يظن أن انتصاره كان ساحقاً . . . ضحك عادل مكي من قلبه ، أطلق ضحكة جلجلت في الغرفة ثم قال مازحاً :

« علشان لما نقول لكم إن شغلتنا دي اسمها ذكاء ، تبقوا تشغّلوا أمخاخكم ! » .

« وإذا كنت أنا ما اعرفش هم مخبيين الحاجات دي فين ؟! » .

« مش مهم انك تعرفي ، المهم إن المعدات تدخل مصر الأول ! » .

همت بالحديث لكنه استطرد :

« وعلى فكرة . . . لازم تعملي حسابك إنك حاتستلمي العربية لوحدك من غير أي نوع من أنواع المساعدة ! »

همت بالاحتجاج فأوقفها :

« حتى ولو كنت تعرفي حد ممكن يساعدك بلاش تلجئي له . . . دي مسألة مش عاوزة مناقشة ! » .

« لكن دي عملية متعبة جداً ! » .

« أنا عارف ! » .

صاحت وقد بدا عليها الضجر من كل شيء :

« هو انتو لا ترحموا ، ولا تخلوا رحمة ربنا تنزل ؟! » .

« خلينا في المهم ! » .

في استسلام مرح صاحت :

« خلينا في المهم . . . وبعدين ؟! » .

« أكيد نبيل حايوصل بعد وصول العربية بكام يوم علشان يطمنوا إن كل حاجة تمام ! » .

« وافرض إنه وصل قبل وصول العربية ؟! » .

« ممكن . . . ولو انه احتمال بعيد جداً ! » .

« طب افرض إن العربية اتفتشت وأنا خارجة بيها ؟! » .

« ما هي لازم تتفتش » .

« وإذا لقوا المعدات ؟! » .

« ماتنعيش هم المسألة دي ! » .

« آمال أنعي هم إيه ؟! » .

« وانسي إن العربية فيها كربون سري أو مُظْهِرْ أو مفتاح شفرة . . . إنسي كل ده خالص ! » .

« إزاي بقى ؟! » .

« زي الناس يا سامية . . . إسمعي اللي باقول لك عليه ! » .

واستمر الحديث بينهما بعد ذلك لساعة أو بعض ساعة . . . قال لها إن تقديره للموقف يقول : إن نبيل يعرف مخبأ تلك المعدات ، وأنه سوف يخرجها من السيارة دون أن تشعر أو دون أن تكون معه .

« طب ليه ؟! » .

« علشان لو اتمسك ، يقول إنك بعتيه يجيبها من العربية ويطلع هو زي الشعرة من العجين ! » .

« آه . . . » .

« يبقى نعترف إنهم بيشتغلوا بذكاء ! » .

« يعني ادريان كان بيهاودني وهو بيفحت لي بير !! » .

« مش ادريان لوحده يا آنسة . . إنتي كان حواليكي من يوم ما وصلت روما جيش من الموساد ! » .

« يا نهار أسود ؟! » .

« إنتي فاكرة نفسك شوية والا إيه ؟! » .

فضحكت ، وضحك معها ، وراحا يدردشان حول أمور شتى ، غير أن عادل عرج على حديث بدا لها خاصاً . . . قال :

إنـه لم يكن من المفروض أن يخبـرها بشيء ممـا أخبـرهـا بـه ، لم يكن مفروضاً أن تعرف أنهم سيرسلون المعدات في السيارة ، لم يكن مفـروضاً أن يكشف لهـا تقديـره للمـوقف حتى تكـون خـطواتهـا كلهـا طبيعيـة لا تثيـر أيـة شكوك . . . غير أن ما دفعه إلى مصارحتها بما لم يكن واجباً أن يصارحها به ، ليس فقط ثقته الكاملة في أنها ستتصرف كما ينبغي ، ولكن ، لأن ما هي مقدمة عليه سوف يضغط على أعصابها بعنف بـالغ ، ولا بـد أن هذه المكـاشفة التي حـدثت ، ستخفف كثيـراً من وقـع هـذا الضغط ويجعـل تصـرفهـا ، في كـل المراحل ، مثالياً ! !

« **لكن أنت متأكد إنهم حايبعتوا الحاجات دي في العربية فعلاً ؟!** » .

« **إستني لما توصل وأنا اقول لك !** » .

كانت تستعد للانصراف عندما مدت له يدها مصافحة فقال :

« **قدامك أسبوع على الأقل تتعلمي فيه السواقه كويس . . . مش لازم حد غيرك يركب العربية يا سامية !** » .

* * *

انتابت سامية حالة من اللامبالاة في الأيام التالية جعلتها تبدو كأنها فقـدت اتزانها . . . عادت إلى حياتها الطبيعية كما عادت إلى ارتداء تلك الملابس التي كانت تطلق عليها بينها وبين نفسها ، « ملابس تنكرية » . . . تظاهرت بالسعادة وتوجهت إلى مدرسة لتعليم قيادة السيارات وواظبت على الدروس بل استزادت منها . . . وإذا كانت السيارة تبدو الآن مهمة إلى هذا الحد ، فلا بد من أن تعود بها من الإسكندرية وهي تقودها وحدها . . . كانت تعلم أن في الأمر مخاطـرة لكن ، حتى كلمة « مخاطرة » فقدت بالنسبة إليها معناهـا . . . مع الأيـام خف اللغط الذي ثار حول سامية وملابسها وتصرفاتها وشخصيتها ، ساعدت اللامبالاة التي استقبلت بها كل هذا على تقبل الجميـع للأمـر الواقـع . . . ما أن مضت تسعة أيام حتى وصلتها برقية تحدّد لها موعد وصول السفينة ، ذهبت إلى مكتب

تعليم القيادة وطلبت منهم تأجير سيارة مع سائق يرافقها وهي تقودها إلى الإسكندرية . . . بدا الطلب لمدير المكتب ـ أو المدرسة ـ غريب ، لكن نظرة إلى الأوراق أمامه ، واسم سامية وعملها جعلته أخيراً ، وبعد قليل من التردد . . . يوافق !

* * *

انتبهت في طريق العودة من الإسكندرية إلى أنها تقود السيارة بسرعة مجللة بمرح خفي . . . كانت الأيام الأربعة التي انقضت في جمرك ميناء الإسكندرية قد جعلتها توقن أنها بالفعل قد أصبحت مالكة لسيارة . . . كما كانت مقتنعة أنها تستحق السيارة فعلاً بعد كل هذا الجهد الذي بذلته ، لقد تعبت وجمعت أخباراً وكانت تستحق عليها أجراً ، وليس ذنبها أن من عملت لحسابهم كانوا مغفلين !

كان في السيارة راديو ففتحته واستغرقت في الاستماع لإحدى أغنيات عبد الحليم حافظ . . . هاجت الذكرى فازدادت سرعة السيارة أكثر ، أدركت أنها صنعت خيراً عندما قررت قيادتها بنفسها . . . لاحظت في بداية الطريق أن ثمة سيارة زرقاء اللون قد مرقت من جوارها وهي تنهب الأرض نهباً ، وعندما توقفت في الرست هاوس كانت السيارة هناك ، لكنها اختفت عندما عادت إلى سيارتها ، وفي طريق العودة ، وقبل أن تصل إلى مشارف الجيزة ، وجدت نفس السيارة وقد فتح غطاء موتورها واختفى وجه السائق خلفه . . . أدركت ـ عندما شاهدت السيارة للمرة الثالثة ـ أن عادل مكي وراءها حريص عليها ـ لذلك ، فلقد صاحت فيه عندما التقت به :

« **متشكرة جداً على حرس الشرف اللي كان معايا من إسكندرية !** » .

« **حرس شرف ؟!** » .

كان عادل دهشاً بحق ، فهتفت :

« **العربية الزرقا اللي كانت ورايا !!** » .

« **نمرتها كام ؟!** » .

« ما أخدتش بالي ! » .
« دي كانت معايا من إسكندرية لمصر ! » .
« تفتكري إحنا سذّج للدرجة دي ؟! » .
« أمال مين اللي كان ورايا ! » .
« مكانش حد وراكِ ، انت اللي بيتهيألك ! » .
« لأ . . . أنا متأكدة إن العربية دي كانت ورايا ! » .
« ليه ؟! » .
« من غير ليه ، ده إحساس ، وأنا إحساسي مايخيبش ! » .
« على العموم ، أهم حايبطلوا يمشوا وراكي ! » .
« إيه ؟! » .
« تلغراف نبيل وصل من شوية وماما استلمته ! » .

دق قلبها في عنف وغاضت الدماء من وجهها وجاء صوتها مرتجفاً :

« وحايوصل إمتى ؟! » .
« بكره على مصر للطيران ! » .
« شوف الوطنية ! » .
« ده مش وقت تريقة ! » .
« انت متأكد ان الحاجات في العربية ؟! » .
« طبعاً ! » .
« فتشتوها ؟! » .
« مكانش ضروري ! » .
« طب وعاوزني أعمل إيه ؟! » .
« عاوزك تبقي سامية اللي أنا عرفتها واحترمتها ! » .
« ليه بتقول كده ؟! » .
« لأن اللي جاي أصعب من كل اللي فات ! » .
« حاتمسكوه ؟! » .

« عندك حل تاني ؟! » .

اهتزت سامية حتى الأعماق ، صمتت وهي تتساءل بينها وبين نفسها إن كان هناك حل آخر بالفعل ، ساد الصمت لثوان أردف بعدها عادل قائلاً :

« بالمناسبة . . . فيه حاجة مهمة عاوز أقول لك عليها ! » .
« اتفضل ! » .
« نبيل المرة دي حاينزل في لوكاندة مش عند والده ! » .
« وليه يعمل كده ! » .
« لأنه لما يحب يدربك ، أو يفكرك باللي اتعلمتيه في روما ، مش ممكن يعمل ده في بيتهم لأن والدته حاتكون موجودة . . . فوق إنه عارف ومتأكد إنك مش حاتدخليه بيتكم وماما مش موجودة ! » .

كان وكأنه يثبت لها بالدليل القاطع والبرهان الدامغ أن من أحبته كل هذا الحب يخون وطنه حتى النخاع . . . جاءها صوته وكأنه يأتي من أغوار سحيقة :

« لما حاتوصليه اللوكاندة ، أكيد حايطلب منك ، إن ماكانش في أول ليلة ، إنك تطلعي معاه الأوضة ! » .
« مش ممكن ! » .
« إنتي طبعاً حاترفضي في الأول ! » .
« يعني إيه ؟! » .
« لأنه لما يقول لك إن أدريان باعت لك معاه حاجات ، لازم توافقي ! » .

بدا وكأنه يقرأ ما سوف تأتي به الأيام فانقبض قلبها . . . في صوت مضطرب سألته :

« تحب أخليه يحجز في لوكاندة معينة ؟! » .
« ما تتعبيش نفسك ، أصله حجز خلاص ! » .

هكذا جاءتها الحقائق صارخة كالجحيم . . . صمتت لثوان ولم تكن تفكر

في شيء . . . ما لبثت أن رفعت إليه رأسها وكان وجهها شاحباً شحوباً عظيماً ، لكنها قالت في ثبات :

« أنا تحت أمرك ! » .

* * *

استقبلت نبيل في المطار ، ابتلعت قبل أن تلقاه قرصاً مهدئاً رغم تحذير عادل . . . تظاهرت بالسعادة وكان هو في شوق للقياها بالفعل . . . ما أن ركب السيارة إلى جوارها حتى طلب منها أن تحمله إلى فندق من فنادق الدرجة الأولى ذات السمعة العالمية . . . نبهته إلى أن نزوله في الفندق قد يغضب أباه وأمه ، فقال لها إنه لن يبقى في مصر لأكثر من ثمان وأربعين ساعة وأنه سوف يتحدث إليهما تليفونياً ، وقد يراهما إذا ما كان لديه بعض من الوقت !

أوقفت السيارة أمام الفندق وهمت بإخراج حقيبته فطلب منها أن تتركها حيث هي ، نظرت إليه في دهشة فقال :

« مش يمكن ما نلاقيش أوضه ؟! » .

الآن رأته يكذب وكان كذبه صارخاً :

« وإذا لقينا ؟! » .

« نبقى نبعت الفراش يجيبها ! » .

سارت معه إلى مدخل الفندق وكانت موقنة أن عادل مكي في كل مكان من حولها . . . وقفت إلى جوار نبيل أمام موظف الفندق الذي رحب به وقدم له استمارة كي يملأها . . . راحت ذاكرتها تستجلب كل ما قاله لها عادل مكي فكأنه هو الذي خطط لكل ما يحدث . . . انتهى نبيل من ملء الاستمارة وتسلم مفتاح الغرفة فالتفت نحوها هاتفاً :

« هاتي المفاتيح » .

انتفضت من استغراقها ونظرت إليه فابتسم :

« مفاتيح العربية يا سامية ! » .

قدمت له المفاتيح وهي تسأله :

« على فين ؟! » .

« رايح أجيب الشنطة ! » .

« ماتبعت حد يجيبها لك ! » .

قال وهو يخطو مسرعاً نحو المدخل :

« أنا لسه حاستنى ؟! » .

ظلت في مكانها وسط البهو جامدة كتمثال ، انتبهت إلى صوت عجلات الحقيبة وكان نبيل قد عاد وهو يجرها وراءه ، بينما علق على كتفه تلك الحقيبة الصغيرة التي غادر بها الطائرة . . . سلمها مفتاح الغرفة هاتفاً :

« ياالله بينا ! » .

« على فين ؟! » .

« انت مش حاتوصليني ؟! » .

« انت اتجننت ؟! » .

ابتسم وهو يميل نحوها قائلاً :

« ادريان باعت لك حاجات معايا ! » .

تصنعت الارتباك ، تحركت عيناها في محجريهما في هلع مصطنع فهمس باسماً :

« اتقلي وتعالي معايا بشكل طبيعي ! » .

سارت إلى جواره :

« ابتسمي ! » .

اغتصبت ابتسامة وقد أدركت انه يسير بإصرار ، نحو حتفه !

* * *

ما أن دلف نبيل إلى الغرفة حتى تحول إلى إنسان آخر تماماً ، تحول إلى كائن يتحرك بلا إحساس. . . أغلق الباب بالرتاج ثم سار إلى الشرفة وخرج إليها وأطل على النيل وألقى بنظرة يمنة ويسرة ثم عاد إلى الحمام وأطل وامتحن بابه ، وتوجه إلى الدولاب ففحصه ، وسار إلى باب كان يؤدي إلى غرفة أخرى فامتحن بابه وأنصت ، واتجه إلى آلة التليفون وفحصها . . . ظلت سامية ترقبه ذاهلة . . . كان هذا الشاب الذي يتحرك أمامها يبدو محترفاً إلى حد يبعث على الفزع . . . انتهى مما كان فيه فاتجه إلى الحقيبة الصغيرة وحملها إلى المائدة الموضوعة في طرف الغرفة فحركها من مكانها ووضع من حولها مقعدين متقابلين . . . لم تستطع أن تلزم الصمت أكثر من ذلك فسألته :

« إيه الحكاية يا نبيل ؟! » .

نظر في ساعة يده وهو يتمتم :

« مش لازم أطمن عليك الأول ؟! » .

« تطمن علي من إيه ؟! » .

توقف عن الحركة ملتفتاً نحوها قائلاً :

« تفتكري الحاجات اللي انتِ مشيلاها لي من روما لحد هنا ، لو حد شافها معانا ، حايقول إن ده شغل صحافة برضه ؟! » .

أمدها قوله باشمئزاز بلا حدود :

« بس ده شغل صحافة فعلاً ! » .

« أنا واثق من ده ! » .

« أمال إيه بقى ؟! » .

« مش المهم أنا . . . المهم اللي في مصر هنا اللي لسه عايشين في العصر الحجري !! » .

زجرت في غضب :

« نبيل ! » .
« آسف ، حقك عليّ . . . تعالي أقعدي هنا ! » .

أشار إلى أحد المقعدين فأطاعت في تذمر . . . أخرج من الحقيبة الصغيرة ظرفاً كبيراً قدمه لها :

« ده الكربون السري ! » .

وضعت الظرف على المائدة فهتف في صوت خافت :

« افتحيه ! » .
« ليه ؟! » .
« لأنك حاتلاقي مفتاح الشفرة معاه ! » .

همت بفتح الظرف فتساءل :

« جبتي نسخة من رواية اللص والكلاب ؟! » .
« وأنا إيش عرفني إنك . . . . » .

قاطعها وهو يخرج نسخة من الرواية من الحقيبة قائلاً :

« أنا كنت عامل حسابي على كل حال ! » .

كادت تسأله كيف سيستقبلون رسالة بدون راديو فإذا به يخرج من الحقيبة راديو فاخراً :

« دي هديتي ليكي المرة دي ! » .

كانت وكأنها تعيش كابوساً يكتم أنفاسها . . . جاءها صوته حاداً رغم خفوته :

« فاضل سبعة وعشرين دقيقة على ما يبدأوا الإرسال! » .

« ومالك متحمس قوي كده؟! » .

« باستغل ملكاتي اللي كنت في يوم من الأيام معتزة بيها! » .

أغفلت ما في قوله من تورية ولاذت بالصمت .

دام الصمت طوال الدقائق التالية . . . عاد نبيل إلى الشرفة وراح يدخن وهو يرقب المشهد في استعلاء نَمّت عنه قامته الشامخة الرأس . . . ظلت سامية ساكنة وقد شلها العجب . . . كانا الآن وحدهما ، هما هما ، نفس الشخصين الذين أحب منهما الآخر ذات يوم إلى حد أثار الجميع ، لكنهما الآن لم يكونا راغبين في الحديث ، بل كانا يهربان منه . . .

عندما عاد نبيل إلى الغرفة وأغلق زجاج الشرفة لم يكن باقياً على موعد الإرسال سوى دقائق قليلة . . . أومأت نحو الباب المفضي إلى الغرفة المجاورة وقالت هامسة :

« مش يمكن حد يسمعنا؟! » .

في ثقة بلا حدود ، قال :

« ما تخافيش . . . أكيد الأوضة فاضية! » .

أخرج من الحقيبة سماعتين صغيرتين لهما طرف واحد . . . ناولها إحداهما ودس الأخرى في أذنه وهو يقول :

« علشان محدش يسمع غيرنا! » .

جهزا الورق والقلمين وران الصمت وراحت الساعة تزحف ثانية بعد أخرى نحو الموعد المحدد . . . عندما حانت من نبيل نظرة نحو سامية ، وجدها شاحبة شحوباً عظيماً ، فابتسم متسائلاً :

« خايفة؟! » .

« ميتة في جلدي! » .

« ولا يهمك ، بكرة تتعودي! » .

قالها في استهتار جعل الدماء تغلي في عروقها ، همت بالحديث لكنه رفع

يده في وجهها . . . كان الإرسال قد بدأ . . . فبدآ يعملان معاً !

. . .　　. . .　　. . .　　. . .　　. . .　　. . .

. . .　　. . .　　. . .　　. . .　　. . .　　. . .

عندما انتهى الإرسال ، وهمّ نبيل بخلع السماعة من أذنه ، أضاءت الغرفة كلها بضوء باهر !

التفت في رعب نحو مصدر الضوء ، وكان هناك أربعة رجال حمل أحدهم آلة تصوير كانت تعمل بين أصابعه بسرعة وهي ترسل ضوءها الباهر في تتال كان يسجل كل زاوية للمجلسة !

« **إيه ده؟!** » .

هكذا هتف وكان الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة مفتوحاً ، عاد يهتف كمن يهوي من حالق :

« **دخلتوا إزاي؟!** » .

تقدم عادل مكي من نبيل سالم في خطى جد بطيئة وهو يقول :

« **مساء الخير يا سيد نبيل!** » .

الآن فقط تذكر نبيل السماعة فقفز واقفاً وهو يخلعها .

« **أنتوا مين ؟! . . . وعاوزين إيه؟!** » .

« **إحنا؟!** »

قالها عادل مكي مستديراً نحو شاب أسمر اللون أنيق الملبس وهو يقول :

« **السيد جلال معروف رئيس نيابة أمن الدولة (العليا)** » .

« **نيابة؟!** »

« **وأنا . . . العقيد عادل مكي من المخابرات العامة المصرية!** » .

أخذ نبيل يتلفت حوله كمن يبحث عن مخرج لِمَا لم يتصور أن يكون فيه ، وقعت عيناه على سامية فهمي وكانت تجلس في مكانها مطرقة ودموعها تنهمر كمطر بلا نهاية . . . جاءه صوت عادل مكي وهو يقول معتذراً :

« أنا آسف يا آنسة سامية . . . أصله ما ادانيش أي فرصة ثانية! » .

صرخ نبيل وكان الضوء قد غشى عينيه .

« سامية؟! » .

« أنت كنت متخيل انها ممكن تعمل اللي انت عملته برضه يا نبيل؟! » .

هوى نبيل جالساً فوق مقعده وهو يردد :

« يااااه . . . يااااه. . . . . . . » .

ران الصمت على الغرفة تماماً . . . تبادل الرجال النظرات بينما رفعت سامية رأسها نحو نبيل الذي كان ينظر إليها في ضياع مطلق . . . كان شاحباً وكأن الحياة قد غادرت جسده بالفعل ، لكن صوته الواهن جاء وكأنه نواح :

« ياما قلت لهم إنك مش ممكن تعملي كده . . . ياما نبهتهم ، لكن مفيش فايدة! » .

بعد لحظة صمت ، قال من بين أسنانه :

« أغبيا!!! » .

« هم مين دول يا سيد نبيل؟! » .

هكذا سأله عادل فرفع إليه عينين تائهتين وهو يقول :

« الإسرائيليين يا فندم! » . . .

« انت كنت بتشتغل معاهم؟! » .

ضحك نبيل ناهضاً ، ترنح مرة ثم ثبت في الأرض أقدامه وهو يقول :

« ما تنعاش هم سيادتك . . . أنا مستعد أقول كل حاجة! » . . .

تحرك الرجال من أماكنهم مفسحين الطريق نحو باب الغرفة المغلق ، فابتسم نبيل وهو يخطو نحو الباب :

« وعلى فكرة . . . أنا أعرف حاجات كتير قوي . . . أكثر مما كانوا متخيلين!! » .

كان المشهد رهيباً . . . بل كان مروعاً !

قبل أن يصل نبيل إلى باب الغرفة مزق السكون صوت سامية :

« طب ودعني!! » .

كانت تقف إلى جوار المائدة مستندة إليها حتى لا تسقط ، وكانت دموعها أنهاراً ! .

« خايف أنجسك! » .

هكذا جاءها صوته ثم ساد الصمت تماماً ، فهمست باكية :

« مع السلامة يا نبيل! » .

« صعب تقولي كده دلوقتي علي . . . الدور والباقي عليك ، خلي بالك نفسك! » .

مضت لحظات صمت قال بعدها وهو يستعد للمسير :

« وابقى حبي اللي يستهالك! » .

قال هذا وهو يمضي مع الرجال في هدوء ! .

* * * *

تمت

hazim_jalal@yahoo.com

Hazim Jabali

28 july 2008

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الحادي والعشرون: المصيدة	٢٨٣
الفصل الثاني والعشرون: التحرك نحو الهدف	٢٩٩
الفصل الثالث والعشرون: ليست سوى الطاعة العمياء	٣١٣
الفصل الرابع والعشرون: بذور الشك	٣٢٤
الفصل الخامس والعشرون: لحظات بين عينيه	٣٣٧
الفصل السادس والعشرون: أدريان تومسون	٣٤٩
الفصل السابع والعشرون: المأزق	٣٦٦
الفصل الثامن والعشرون: لو عرفت كم أحبك	٣٨٤
الفصل التاسع والعشرون: الفزع	٤٠٢
الفصل الثلاثون: الطريق إلى المجهول	٤٢٠
الفصل الحادي والثلاثون: المعرفة على قدر الحاجة	٤٣٨
الفصل الثاني والثلاثون: صراع الثعالب	٤٥٧
الفصل الثالث والثلاثون: المصيدة	٤٧٦
الفصل الرابع والثلاثون: عندما تجف الدموع	٤٩٣
الفصل الخامس والثلاثون: رسالة.. سرية.. ولكن مفتوحة	٥١٣
الفصل السادس والثلاثون: إنها تعرف ماذا تريد	٥٣٠
الفصل السابع والثلاثون: الجولة الأخيرة	٥٤٨
الفصل الثامن والثلاثون: الفصل الأخير في كوميديا دامعة	٥٦٧

الأعمال الكاملة
للأستاذ صالح مرسي . . .

أ ـ من ملف المخابرات المصرية

قصص واقعية للصراع مع المخابرات الإسرائيلية

١ ـ الحفار .

٢ ـ كنت جاسوساً في إسرائيل (رأفت الهجان) .

٣ ـ سامية فهمي .

٤ ـ دموع في عيون وقحة . . .

ب ـ روايات ومجموعات قصصية :

١ ـ زقاق السيد البلطي .

٢ ـ الكداب .

٣ ـ حب للبيع .

٤ ـ السجين

جـ ـ من أدب البحر الرحلات :

١ ـ البحار موندي وقصص من البحر .

٢ ـ البحر .